



# مجلة العلوم العربية

مجلة علمية فصلية محكمة

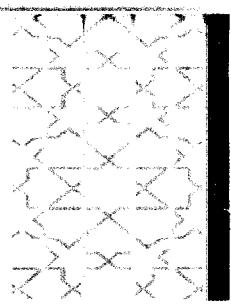
العدد السادس عشر  
شوال ١٤٢١ هـ

- **المعايير الأصولية في نماذج من اعترافات الشاطبي على ابن مالك.**  
د. سلوى محمد عمر عرب
- **معالم البيان في الحديث النبوي.**  
د. عبدالمحسن بن عبد العزيز العسكر
- **بلاغة الجملة الخبرية في سورة يوسف عليه السلام.**  
د. عبدالله بن أحمد بن محمد العمري
- **شخصية مروان بن أبي حفصة بين العاطفة والشعر.**  
د. إسماعيل محمود محمد



عمادة البحث العلمي  
Deanship of Academic Research

[www.imamu.edu.sa](http://www.imamu.edu.sa)  
e-mail: journal@imamu.edu.sa



# مجلة العلوم العربية

مجلة علمية فصلية محكمة

العدد السابع عشر  
شوال ١٤٣١هـ



عمادة البحث العلمي  
Deanship of Academic Research

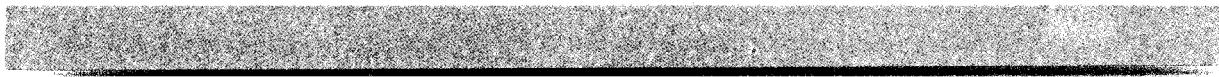
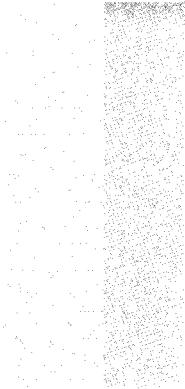
[www.imamu.edu.sa](http://www.imamu.edu.sa)  
e-mail: journal@imamu.edu.sa



رقم الإيداع: ٣٥٦٢ / ١٤٢٩ / ١٩ / ٠٦ / ١٤٢٩  
الرقم الدولي المعياري (اردمد) - ٤١٩٨ ١٦٥٨



بسم الله الرحمن الرحيم  
الحمد لله رب العالمين



المشرف العام  
معالي الأستاذ الدكتور / سليمان بن عبد الله أبا الخيل  
مدير الجامعة

نائب المشرف العام  
الدكتور / عبد الله بن حمد الخلف  
وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي

رئيس التحرير  
الأستاذ الدكتور / فهد بن عبد العزيز العسكر  
عميد البحث العلمي

## **أعضاء هيئة التحرير**

**أ.د. خالد بن محمد الجديع**

الأستاذ في قسم الأدب - كلية اللغة العربية

**أ.د. صالح بن محمد الزهراني**

الأستاذ في قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي - كلية اللغة العربية

**أ.د. عبدالعزيز بن إبراهيم العصيلي**

الأستاذ في معهد تعلم اللغة العربية

**د. عبدالرحمن بن عبدالله الحميدي**

الأستاذ المشارك في قسم النحو والصرف وفقه اللغة - كلية اللغة العربية

## قواعد النشر

مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (العلوم العربية) دورية علمية محكمة، تصدر عن عمادة البحث العلمي بالجامعة. وتُعنَى بنشر البحوث العلمية وفق الضوابط الآتية :

أولاً : يشترط في البحث ليقبل للنشر في المجلة :

- ١- أن يتسم بالأصالة والابتكار، والجدة العلمية والمنهجية، وسلامة الاتجاه.
- ٢- أن يلتزم بالمناهج والأدوات والوسائل العلمية المعتمدة في مجده.
- ٣- أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتاريخ.
- ٤- أن يتسم بالسلامة اللغوية.
- ٥- ألا يكون قد سبق نشره.
- ٦- ألا يكون مستلماً من بحث أو رسالة أو كتاب، سواءً كان ذلك للباحث نفسه، أو غيره.

ثانياً : يشترط عند تقديم البحث :

- ١- أن يقدم الباحث طليباً بنشره، مشفوعاً بسيرته الذاتية (مختصرة) وإقراراً يتضمن امتلاكه لحقوق الملكية الفكرية للبحث كاملاً، والتزاماً بعدم نشر البحث إلا بعد موافقة خطية من هيئة التحرير.
- ٢- لا تزيد صفحات البحث عن (٥) صفحة مقاس (٤ A).
- ٣- أن يكون بنط المتن (١٧) Traditional Arabic، والهوامش بنط (١٣) وأن يكون تباعد المسافات بين الأسطر (مفرد).
- ٤- يقدم الباحث ثلاثة نسخ مطبوعة من البحث، مع ملخص باللغتين العربية والإنجليزية، لا تزيد كلماته عن مائتي كلمة أو صفحة واحدة ..

ثالثاً: التوثيق :

- ١- توضع هوامش كل صفحة أسفلها على حدة.

- ٢- تثبت المصادر والمراجع في فهرس يلحق بآخر البحث .
  - ٣ - توضع نماذج من صور الكتاب المخطوط المحقق في مكانها المناسب .
  - ٤ - ترفق جميع الصور والرسومات المتعلقة بالبحث، على أن تكون واضحة جلية .
- رابعاً: عند ورود أسماء الأعلام في متن البحث أو الدراسة تذكر سنة الوفاة بالتاريخ الهجري إذا كان العلم متوفى .
- خامساً: عند ورود الأعلام الأجنبية في متن البحث أو الدراسة فإنها تكتب بحروف عربية وتوضع بين قوسين بحروف لاتينية، مع الاكتفاء بذكر الاسم كاملاً عند وروده لأول مرة .
- سادساً: تُحکم البحوث المقدمة للنشر في المجلة من قبل اثنين من المحكمين على الأقل.
- سابعاً: تُعاد البحوث معدلة، على أسطوانة مدمجة CD أو ترسل على البريد الإلكتروني للمجلة .
- ثامناً: لا تعاد البحوث إلى أصحابها، عند عدم قبولها للنشر .
- تاسعاً: يُعطى الباحث خمس نسخ من المجلة، وعشرون مستلات من بحثه.
- عنوان المجلة :

جميع المراسلات باسم عميد البحث العلمي

٥٧٠١-١١٤٣٢- ص ب

هاتف : ٢٥٨٢٢٣٠ - ناسوخ (فاكس)

[www. imamu.edu.sa](http://www.imamu.edu.sa)

E.mail: [jurnal@imamu.edu.sa](mailto:jurnal@imamu.edu.sa)

## **المحتويات**

**المعايير الأصولية في نماذج من اعترافات الشاطبي على ابن مالك**  
د. سلوى محمد عمر عرب

**معالم البيان في الحديث النبوي**  
د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر

**بلاغة الجملة الخيرية في سورة يوسف عليه السلام**  
د. عبدالله بن أحمد بن محمد العمري

**شخصية مروان بن أبي حفصة بين العاطفة والشعر**  
د. إسماعيل محمود محمد



**المعايير الأصولية في نماذج من اعترافات الشاطبي  
على ابن مالك**

د. سلوى محمد عمر عرب  
قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية  
جامعة الملك عبدالعزيز

1970-1971  
1971-1972  
1972-1973  
1973-1974  
1974-1975  
1975-1976  
1976-1977  
1977-1978  
1978-1979  
1979-1980  
1980-1981  
1981-1982  
1982-1983  
1983-1984  
1984-1985  
1985-1986  
1986-1987  
1987-1988  
1988-1989  
1989-1990  
1990-1991  
1991-1992  
1992-1993  
1993-1994  
1994-1995  
1995-1996  
1996-1997  
1997-1998  
1998-1999  
1999-2000  
2000-2001  
2001-2002  
2002-2003  
2003-2004  
2004-2005  
2005-2006  
2006-2007  
2007-2008  
2008-2009  
2009-2010  
2010-2011  
2011-2012  
2012-2013  
2013-2014  
2014-2015  
2015-2016  
2016-2017  
2017-2018  
2018-2019  
2019-2020  
2020-2021  
2021-2022  
2022-2023  
2023-2024  
2024-2025  
2025-2026  
2026-2027  
2027-2028  
2028-2029  
2029-2030  
2030-2031  
2031-2032  
2032-2033  
2033-2034  
2034-2035  
2035-2036  
2036-2037  
2037-2038  
2038-2039  
2039-2040  
2040-2041  
2041-2042  
2042-2043  
2043-2044  
2044-2045  
2045-2046  
2046-2047  
2047-2048  
2048-2049  
2049-2050  
2050-2051  
2051-2052  
2052-2053  
2053-2054  
2054-2055  
2055-2056  
2056-2057  
2057-2058  
2058-2059  
2059-2060  
2060-2061  
2061-2062  
2062-2063  
2063-2064  
2064-2065  
2065-2066  
2066-2067  
2067-2068  
2068-2069  
2069-2070  
2070-2071  
2071-2072  
2072-2073  
2073-2074  
2074-2075  
2075-2076  
2076-2077  
2077-2078  
2078-2079  
2079-2080  
2080-2081  
2081-2082  
2082-2083  
2083-2084  
2084-2085  
2085-2086  
2086-2087  
2087-2088  
2088-2089  
2089-2090  
2090-2091  
2091-2092  
2092-2093  
2093-2094  
2094-2095  
2095-2096  
2096-2097  
2097-2098  
2098-2099  
2099-20100

# المعايير الأصولية في نماذج من اعترافات الشاطبي على ابن مالك

د. سلوى محمد عمر عرب

قسم اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الملك عبد العزيز

## ملخص البحث:

فإن هذا البحث يكشف النقاب عن حقائق مستترة، أبرزها الشاطبي في شرحه لأفية ابن مالك، المسمى: بـ (المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الواقية)، إذ كان تحقيق هذا السفر - على يد مجموعة من خيرة أساتذة الوطن العربي، بدعم من مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة - بمثابة حدث علمي جليل، فقادت حوله البحوث والدراسات ، وذلك لما للنظام والشارح من مكانة علمية. وما لهذا النظم وشرحه من أهمية. ولعل مما يستدعي الوقوف والتأمل اعتراف عالم على آخر، كلاماً علم من أبرز علماء عصره، وكلامه لـه باع في علم أصول العربية، ولـه أثر عظيم في مجال الدراسات التحوية، فالاعتراف إذاً لا بد أن يكون مستندًا إلى أصول تحوية، ومعايير معتمدة. وهذا البحث يبرز المعايير الأصولية التي اعتمدتها الشاطبي في اعترافه على ابن مالك. وبمعنى آخر فإن هذا البحث يضع أيدينا على مأخذ الشاطبي على ابن مالك في الأصول التحوية، ومن ذلك: التعويل على اللفظة الواحدة، ومخالفة الإجماع، والاستشهاد بأبيات غير مشهورة، والقياس على المحتمل النادر، وتقديم الأصل على الفرع لغير موجب، والقياس على ما ليس له نظير، وبناء الكلام على الشعر من غير نظر إلى مقاصد العرب، وعدم اعتبار الكثرة والقلة، وهذا يدعونا إلى التطرق إلى قضيتين مهمتين تبأنت فيما وجهات نظر كل منهما، وهما: نظرية المقاصد، والسمع والقياس، ويندرج تحت هذه الأخيرة الاستشهاد بالقراءات الشاذة، والاستشهاد بالحديث النبوي، ومفهوم الضرورة الشعرية. إلى غير ذلك مما سيكشف عنه البحث.



## المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على نبيه الأمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن مما يسترعي اهتمام الناظر المتأمل في شرح ألفية ابن مالك للإمام الشاطبي، المسمى بـ (المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الواقية) هو عدم موافقة الشارح لابن مالك واعتراضه عليه في بعض الموضع، ولعل ذلك مما يدعو إلى التساؤل عن سبب الاعتراض، والأصول النحوية التي استند إليها في اعتراضاته، والمعايير الدقيقة التي تندرج تحت تلك الأصول، فالناظم والشارح كلاهما علم من أعلام النحو البارزين، وكلاهما له باع في علم أصول العربية، وله أثر عظيم في مجال الدراسات النحوية، فأقدمت على البحث في هذا الموضوع لأهميته، تحديوني الرغبة في الوقوف على تلك المعايير التي دعت الشاطبي لأن يعرض على ابن مالك في بعض المسائل.

ولم أقف على دراسة خصت هذا الموضوع وأفردته بالدراسة، إلا بعض الدراسات التي لها صلة بالشاطبي، وكانت مظنة أن أظفر فيها بشيء مما أنسد، ومن هذه الدراسات:  
١- (نظريّة المقاصد عند الشاطبي) للباحث أحمد الريضوني، نشرت عام ١٤١٥هـ وهي رسالة دكتوراه في فقه الشريعة الإسلامية، تبين مقاصد الشريعة والغاية منها، والأسرار التي وضعها الشارع في كل حكم من أحكامها. وقد أفادت منها في قياس مراعاته لمقاصد العرب والنحوين عند بناء الأحكام النحوية على مراعاته لمقاصد الشريعة عند الاجتهاد والاستنباط وبناء الأحكام الفقهية.

٢- (مقاصد المقاصد: مقاصد الشاطبي في شرح الألفية) للأستاذ الدكتور عياد بن عبد الشهتي، نشرت عام ١٤١٩هـ اقتصر فيها المؤلف على بيان منهج الشاطبي في شرح الألفية، وتطرق في نهاية الكتاب إلى مخالفة الشاطبي لابن مالك في الأصول النحوية، ومثل لها بمخالفته إيه في مفهوم الضرورة الشعرية، وفي الاستشهاد بالحديث، مؤثراً نقل كلام الشاطبي في هاتين القضيتين بنصه لنفاسته<sup>(١)</sup>، ولم يذكر المعايير التي استند إليها الشاطبي في مخالفته، إذ ليس هذا هو الغرض الذي من أجله وضع الكتاب. وهذا ما قوّي لدى رغبة البحث في هذا الموضوع.

(١) انظر مقاصد المقاصد .٥٦

٣ - (الأدلة النحوية الإجمالية في المقاصد الشافعية للشاطبي ) للباحث عبد الرحمن بن ضيف الله الطلحي، رسالة دكتوراه بجامعة أمر القرى، نوقشت عام ١٤٢٣هـ. تكلم فيها الباحث عن أدلة النحو الإجمالية عند الشاطبي عامة، ولم يخصصها لاعتراضات الشاطبي على ابن مالك، والمعايير الأصولية في تلك الاعتراضات.

٤ - (اختيارات أبي إسحاق الشاطبي النحوية والتصريفية في كتابه: المقاصد الشافعية ) للباحث سليمان الضحيان، وهي رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، نوقشت عام ١٤٢٣هـ. وهذه الدراسة واضح من عنوانها أنها موضوعة لبيان اختيارات الشاطبي النحوية والتصريفية، لا لبيان المعايير الأصولية في اعتراضاته على ابن مالك.

ومن هنا فقد تبعت المسائل التي خالف فيها الشاطبي ابن مالك، فوجدت أن معاييره تتكرر في معظم المسائل، فاقتصرت على نماذج منها تبرز تلك المعايير وتبيّن أسباب اعتراضاته عليه، إذ ليس الغرض حصر تلك الاعتراضات واستقصائهما والإحاطة بها جميعاً، وإنما الغرض بيان الأسباب التي دعت الشاطبي إلى الاعتراض على ابن مالك - وهو النحو المشهود له بالإمامية، والأصولي العارف بأصول النحو - واستخلاص المعايير الأصولية التي التزمها الشاطبي في اعتراضاته عليه.

وقد مهدت للبحث بالكلام عن أهمية ألفية ابن مالك وشرح الشاطبي لها، وتمكن الناظم والشارح من علوم النحو وأصوله، وقسّمت نظريته في المقاصد النحوية على نظريته في الشريعة الإسلامية. وقسّمت الدراسة إلى مباحثين:

#### المبحث الأول: مسائل الاعتراض ومعايير الشاطبي فيها:

عرضت فيه نماذج من مسائل الاعتراض، وذيلت كل مسألة بمعايير الأصولية التي اعتمدها فيها. ولم أدرج المسائل ضمن أبواب الأدلة النحوية من سماع وقياس وإجماع وغيرها منعاً للتكرار، إذ المسألة الواحدة قد يعترض فيها ابن مالك بهذه الأنواع مجتمعة.

#### المبحث الثاني: معايير الشاطبي في الأدلة النحوية:

جمعت فيه المعايير التي نتجت عن مسائل الاعتراض، وألحقتها بأبوابها من الأدلة النحوية، وذلك على النحو التالي:

- معاييره في السمع.
- معاييره في الاحتجاج.
- معاييره في القياس.
- معاييره في الإجماع.
- معايير متفرقة.

وقفوت البحث بخاتمة لخصت فيها أهم النتائج التي خلص إليها البحث، وماخذ الشاطبي على ابن مالك

\* \* \*

## التمهيد:

أثني العلماء على أفية ابن مالك، فقد حوت - على صغر حجمها - علمًا غزيرًا. فاشتملت على معظم قواعد النحو وأحكامه، غير أنها لفروط الإيجاز قد كادت تُعدُّ من جملة الألغاز - كما قال ابن هشام<sup>(١)</sup> - لذا فقد شرحتها كثير من العلماء، حتى قيل إن شروحها قد بلغت أربعين شرحاً<sup>(٢)</sup>، والشاطبي هو أحد العلماء الذين شرحوا الأفية، وشرحه يُعدُّ من أجلِّ وأوعب شروح الأفية التي بين أيدينا على الإطلاق، فقد كان يشرحها بلذة وشغف ظاهرين، وقد عبر عن ذلك في كتابه "الموافقات" بقوله: "في العلم بالأشياء لذة لا توازيها لذة، إذ هو نوع من الاستيلاء على المعلوم، والحوز له ... وهو مطلب خاص، برهانه التجربة التامة، والاستقراء العام، فقد يطلب العلم للتفكه به، والتلذذ بمحادثته، ولا سيما العلوم التي للعقل فيها مجال، وللناظر في أطرافها متسع، ولاستنباط المجهول من العلوم فيها طريق مهيء"<sup>(٣)</sup>. فهو لم يترك تساؤلاً يمكن أن يخطر على بال إلا ذكره مجيئاً عنه، فوضح لنا مشكل الأفية، وفتح مقفلها، وبين فوائدتها، وجلى فرائدها، وشرح مفرداتها ومقاصدتها، ووقف على أغراضها، وبسط المآخذ الحكيمية العربية بما يسوغ أن يقع تعليلاً لمسائل الكتاب، ونبه على الخلافات النحوية، وهو في كل ذلك كان يميل إلى الانتصار للناظم فيما رأه، والاعتذار عنه ما وجد إلى ذلك طريقاً، وبيان الحق في المسألة إذا لم يجد لما ارتكبه الناظم مساغاً في المنقول ولا في المعقول<sup>(٤)</sup>.

ولما كان ابن مالك وضع كتابه للشادين في النحو لا للمبتدئين، فقد بنى كثيراً منه على أخذ الفوائد والقواعد والشروط من التمثيلات والفهم، والإشارة الغامضة؛ لذا كان لابد للشارح من بسط ما أوجزه الناظم، فحمل العبارة ما تحتمله في باب المفهوم والمنطق، وخدمها بالاعتراضات والأجوبة فيما أمكن، وتتبع قواعد الناظم الكلية وعرضها على أصول العلم، مما وجده صحيحاً بين وجه صحته، وما كان فيه خلل بين

(١) انظر أوضح المسالك إلى أفية ابن مالك ١/١٠.

(٢) انظر مقدمة تحقيق شرح التسهيل ١/٥.

(٣) ١/٦٧.

(٤) انظر مقدمة الشارح في كتابه المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية ١/٢.

مواقع الخلل بقدر الإمكان<sup>(١)</sup>.

" وقد أداه منهجه في بسط المسائل، واستقصاء وجوهها وحججها إلى الاستطراد إلى مسائل لم يعرض لها ابن مالك في ألفيته"<sup>(٢)</sup>. هذا مع ما في المنظوم من قيود ليست في المنشور.

ويذكر لنا الشاطبي نقلًا عن بعض كتب أبي نصر بن محمد الفارابي الفيلسوف: أن العالم بعلم ما لا يسمى " عالماً بذلك العلم على الإطلاق حتى تتوافر فيه أربعة شروط: أحدها: أن يكون قد أحاط علمًا بأصول ذلك العلم على الكمال. الثاني: أن يكون له قدرة على العبارة عن ذلك العلم. والثالث: أن يكون عارفًا بما يلزم عنه. والرابع: أن يكون له قدرة على دفع الإشكالات الواردة على ذلك العلم."<sup>(٣)</sup>

ولا شك أن الشاطبي ما ذكر هذه الصفات إلا وهو متمثل ومؤمن بها، ويستطيع المطلع على شرحة أن يتبعينها مبسوطة في كل جزئية من جزئياته، دالة على صاحبها، ومنتهى عنه، فهو عالم بأصول النحو، قادر على التعبير عن مقاصد ابن مالك ومقاصد النحويين ومقاصد العرب، عارف بما يلزم عن علم النحو، ولديه القدرة على دفع الإشكالات الواردة، ويوضح ذلك جليا في التساؤلات التي يوردها ويجيب عنها بمنطق يستند إلى أصول نحوية قوية. ولا غرابة في ذلك فالشاطبي علم من أعلام أصول الفقه، متمكن من فهم أصول الشريعة ومقاصدها، وكتابه " المواقفات " خير دليل على ذلك، إذ بين فيه حقيقة مقاصد الشريعة الإسلامية التي يمكن أن تستخلص منها الأحكام الشرعية. وقياساً عليها فقد كان يستخلص الأحكام نحوية من أصول اللغة. فلابد أن تكون حججه وأحكامه قوية لها سند قوي من أصول اللغة كما هي كذلك في أصول الفقه، فلم تكن تستند إلى هوى في النفس، أو تعصب لمذهب، أو أخذ بالظاهر، وإنما هي مستندة إلى أساس قوية ومقاصد عظيمة.

فالشاطبي أصولي متمكن من علم الأصول الفقهية والنحوية، لذا فهو في اعتراضاته على ابن مالك يوضح - في الغالب - مرتکزه من الأصول نحوية، ويمكنا أن نقف عند

(١) انظر المقاصد الشافية ٢/١ .٤٨٥/٩.

(٢) مقاصد المقاصد .١٣

(٣) الإفادات والإنسادات ص ١٢، وانظر مقدمة تحقيق المقاصد الشافية ١/١ .٣٤

أمر مهم يؤكد عليه الشاطبي في كثير من اعترافاته على ابن مالك وهو: مراعاة مقاصد العرب وال نحوين، وقد استمد هذه النظرية من مقاصد الشريعة الإسلامية<sup>(١)</sup>، فالشاطبي يرى أن لكل حكم من أحكام الشريعة مقاصد وأهدافاً وغاياتٍ يستهدفها لجلب المصالح للبشرية، ودفع المفاسد، بما يحقق سعادة الدارين، الدنيا والآخرة، فالأصول الشرعية الإسلامية وأحكامها مبنية على تحقيق تلك الأهداف والغايات والمقاصد، ولم توضع للتضييق على الناس، وإدخالهم تحت سلطة الدين، بل وضعت لتحقيق "مصالح العباد في العاجل والأجل معًا"<sup>(٢)</sup>.

هكذا كان الشاطبي - يرحمه الله - ينظر إلى مقاصد الشريعة، وهي كذلك في حقيقتها، ولذلك نجده يدافع عن هذه النظرية دفاعاً يقوم على الاستقراء وعلى ما هو ثابت في الشرع، فيرد على الرازي الذي "رَعَمَ أَنَّ أَحْكَامَ اللَّهِ لَيْسَتْ مَعْلَةً بِعْلَةً الْبَتَّةِ، كَمَا أَنَّ أَفْعَالَهُ كَذَلِكَ"<sup>(٣)</sup>، فيقول: "وَالْمُعْتَمَدُ إِنَّمَا هُوَ أَنَا إِنَّمَا هُوَ أَنَا إِنَّمَا هُوَ أَنَا وَضَعَتْ لِمَحَالِّ الْعَبَادِ اسْتِقْرَاءً لَا يَنْأِي فِيهِ الرَّازِيُّ، وَلَا غَيْرُهُ"<sup>(٤)</sup>. ثم أخذ يسوق العلة تلو الأخرى من القرآن الكريم لبيان الحكمة في أصل الخلقة، إلى غير ذلك مما يدل على أحدهذه بجوهر الأشياء ولبها لا بظواهرها وفشورها. ومن هنا كان لا بد من مراعاة مقاصد الشريعة عند الاجتهاد والاستنباط وبناء الأحكام الفقهية، وقد حفل كتابه "المواقف" بفيض زاخر من تلك المقاصد.

فكما أن الشاطبي ينظر إلى مقاصد الشريعة عند بناء الأحكام الفقهية، وكذلك هو يؤسس تلك النظرية في اللغة والنحو، فينظر إلى مقاصد العرب عند بناء الأحكام النحوية وقواعد اللغة، ويرى ضرورة مراعاتها، فيقول في بعض اعترافاته على ابن مالك: إن "المعتمد في القياس عند واضعيه الأولين إنما هو اتباع صلب كلام العرب"<sup>(٥)</sup>. ويبيّن مقاصد العرب في القليل الاستعمال، بأنها لم تقصد في ذلك القليل أن يُقاس عليه<sup>(٦)</sup>، وأن

(١) انظر بحث: "نظريّة المقاصد عند الشاطبي" لأحمد الريسوبي، و"الأدلة النحوية في المقاصد الشافعية للشاطبي" لعبد الرحمن الطلحي.

(٢) المواقفات .٦ / ٢

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) المقاصد الشافعية ٤ / ١٨٠.

(٦) السابق .٣ / ٤٥٧

الذين اعتنوا بالقياس لم يثبتوا شيئاً ولا نفوه إلا بعد الاستقراء ومزاولة العرب، ومداخلة كلامها. وفهم مقاصدها، مع ما ينضم إلى ذلك من القرائن ومقتضيات الأحوال<sup>(٦)</sup>، وأن "هذا لا يفضي به إلا من أطلع على مأخذ العرب، وعرف مآل مقاصدها".<sup>(٧)</sup>

ويفسر لنا عدم الجواز في بعض الأحكام النحوية التي اعترض فيها على ابن مالك، بأن العرب لم يتكلموا به، فلو كان معتبراً عندهم لنطقوا به، وأن "تركهم له رأساً دليلاً على اطراحه جملة"<sup>(٨)</sup>، وإن هذا الرأي " fasid لأنه مخالف لمقاصد العرب"<sup>(٩)</sup>، ويرى أن قول سيبويه: "قف حيث وقفوا ثم فسّر"<sup>(١٠)</sup>، أصل عظيم لا يفهمه حق الفهم إلا من قتل كلام العرب علمًا، وأحاط بمقاصده"<sup>(١١)</sup>، وأنه "لا يجوز لنا نحن أن نتكلّم بما تركته العرب لما علمنا من قصدها التركى".<sup>(١٢)</sup>

كما يبين لنا مقاصد النحويين في قولهم: هذا شاذ، أو موقوف على السمع، أي أننا "نتبع العرب فيما تكلموا به من ذلك، ولا نقيس عليه، لأنه غير فصيح، بل لأننا نعلم أنها لم تقصد في ذلك القليل أن يقاس عليه"<sup>(١٣)</sup>، ويفسر لنا عدم اعتبار النحويين له، بأن قصدهم "عقد القوانين فيما يمكن عقدها فيه"<sup>(١٤)</sup>، ويرى أن بعض القواعد "يغفلها أكثر المتأخرین، إلا من فهم مقاصد المتقدمين"<sup>(١٥)</sup>. ويبين مقاصد النحويين في قولهم: شاذ أو لا يقاس عليه في بعض ما جاء في القرآن الكريم<sup>(١٦)</sup>. ومقاصدهم في ترك الحديث<sup>(١٧)</sup>، ومقاصدهم في الضرورة الشعرية<sup>(١٨)</sup>. إلى غير ذلك من المواضع الكثيرة التي نجد أن

(١) انظر المقاصد الشافية ٤/٤٩٣.

(٢) السابق.

(٣) السابق ٥/٥٦٦.

(٤) السابق ٦/٤٧٦.

(٥) الكتاب ١/٢٦٦.

(٦) المقاصد الشافية ١/٦١٧، ٦١٨.

(٧) السابق ٧/٥٠.

(٨) المقاصد الشافية ٣/٤٥٧.

(٩) السابق ٤/٤٣٨.

(١٠) السابق ٤/٤٩٢.

(١١) انظر المقاصد الشافية ٣/٤٥٦.

(١٢) انظر السابق ٢/٤٠١.

(١٣) انظر السابق ١/٤٨٩.

الشاطبي ينبع فيها على أهمية إدراك المقاصد، و يجعلها أصلاً من الأصول النحوية التي يعتمد عليها في بناء الأحكام النحوية، ومعياراً يقيس به الآراء، ويرجح رأياً على رأي، ويعيّز به الخطأ من الصواب. وكثير من اعترافاته كان يردد فيها عدم فهم ابن مالك لمقاصد العرب، أو لمقاصد النحويين.

ولكي نقف على معايير الشاطبي على ابن مالك لا بد من عرض بعض المسائل التي اختلف معه فيها.

\* \* \*

## المبحث الأول: مسائل الاعتراض ومعايير الشاطبي فيها:

### ١- تقديم الحال على صاحبه المجرور بحرف :

منع النحويون أن يقدم الحال على صاحبه إذا كان صاحب الحال مجروراً بحرف، وأوجبوا تأخيره عنه قياساً لا يجوز غيره، نحو: مررتُ بزينة ضاحكة، ومررت بالزدين قائمين، فلا يجوز عندهم: مررتُ ضاحكةً بزينة، ولا مررت قائمين بالزدين، وأجازه ابن مالك<sup>(١)</sup> محتاجاً بالسماع، وجعل منه قوله تعالى: « وَمَا أَرَسْتَنَكَ إِلَّا كَافَةً لِلنَّاسِ بِكِيرًا وَكَبِيرًا »<sup>(٢)</sup>، فكافحة حال من الناس أي: للناس كافة، ومنه قوله لهم: « زيدٌ خيرٌ ما تكون خيرٌ منك »، فجعل « خيرٌ ما تكون » حالاً من الكاف المجرورة وقدمها. ومنه قول الشاعر:

إِذَا الْفَرْءُ أَعْبَثَهُ الرِّيَاسَةَ نَائِنًا فَمَطَلْبُهَا كَهْلًا عَلَيْهِ شَدِيدٌ<sup>(٤)</sup>

جعل (كهلاً) حالاً من الهاء في (عليه) واحتاج بأبيات أخرى كثيرة. ورد على حجج المانعين، وبين وجه ضعفها. وقد ذكر الشاطبي كل ذلك مستوفياً في شرحه على الألفية، ثم قال: « والصواب - والله أعلم - مع النحويين دون ابن مالك، لأنهم لم يأتوا بوجه المنع القياسي إلا بعد استقراء كلام العرب، وأنهم لم يجدوا التقاديم إلا في شعر لا يجعل وحده مأخذ قياس، أو في الآية الكريمة مع احتمالها وعدم نظير لها في ظاهرها، ومعارضة الاستقراء للقياس في المسألة، فحيثئذ حزموا بمنع المسألة، وأولوا الآية الكريمة حين لم يجدوا لها في الكلام نظيراً، ولم يثبت عندهم جواز التقاديم في لغة من اللغات، فالحق ما ذهبو إليه، ومن عادة ابن مالك التعويل على اللفظة الواحدة تأتي في القرآن ظاهرها جواز ما يمنعه النحويون، فيعود عليها في الجواز، ومخالفة الأئمة، وربما رشح ذلك بأبيات مشهورة أو غير مشهورة، ومثل ذلك ليس بإنصاف، فإن القرآن الكريم قد يأتي بما لا قياس مثله - وإن كان فصيحاً، وموجهًا في القياس - لقلته »<sup>(٥)</sup>، وذكر كلام ابن ملكون بأن علة منع سيبويه جواز تقديم الحال على صاحبه المجرور

(١) انظر المقاصد الشافية ٣/٥٤ و ٣/٥١ وما بعدها.

(٢) انظر شرح التسهيل ٢/٣٦٢ وما بعدها.

(٣) سباً ٢٨.

(٤) من الطويل، ينسب لمعلوط بن بدل القرىعي، وهو في المقاصد الشافية ٣/٤٣، والحزانة ٣/٢١٩.

(٥) السابق ٣/٤٥٥، ٤٥٦.

بالحرف ”قلت“ في كلامهم، فجرى ما جاء منه مجرى الأشياء الموقوفة على السمع بالكلتها<sup>(١)</sup>.

فالشاطبى يأخذ على ابن مالك اعتماده على القليل، والتعويل على اللفظة الواحدة، ومخالفته للإجماع، والاعتماد على الشعر في بناء الأحكام النحوية. مما سبق يمكننا استخلاص بعض المعايير الأصولية التي يقيس عليها الشاطبى أحكامه النحوية، وهي:

- ١- لا يصح التعويل على اللفظة الواحدة.
- ٢- لا يصح القياس على القليل.
- ٣- لا يصح مخالفة الإجماع فاستقراء الأمة يمنع القياس على هذه المسألة.
- ٤- الشعر لا يجعل وحده مأخذ قياس.
- ٥- الدليل متى تطرق إليه الاحتمال فلا يصح للاستدلال.
- ٦- عدم النظير دليل على المنع.
- ٧- عدم ثبوت التقديم في لغة من اللغات.
- ٨- الفصل بين المتضادين<sup>(٢)</sup>.

الأصل ألا يفصل بين المضاف والمضاف إليه، لأن المضاف إليه كالجزء من المضاف، لأنه واقع موقع تنوينه، فصار الفصل بينهما محظوراً بإطلاق، وهذا هو مذهب الجمهور من النحويين<sup>(٣)</sup> وأجازه ابن مالك<sup>(٤)</sup> بشرط مع شيء من التفصيل، وبدرجات متفاوتة من الجواز، محتاجاً على ذلك بالسماع والقياس، فأما السمع فقد احتاج بقراءة بعض السلف: «فلا تحسبن الله مخلفاً وعده رسليه»<sup>(٥)</sup>، ويقوله صلى الله عليه وسلم: (هل أنتم تاركولي صاحبي)<sup>(٦)</sup>، ويقول بعض العرب: ”ترك يوماً نفسك وهوها، سعي لها في رداها“، وببعض الأبيات الشعرية، ثم قال: ”وأقوى الأدلة على ذلك قراءة ابن عامر رضي

(١) السابق، وانظر الكتاب ٢٤٢/٢.

(٢) انظر المقاصد الشافية ٤/١٧٢/٢ وما بعدها، وشرح التسهيل ٢٧٢/٢ وما بعدها.

(٣) انظر المقاصد الشافية ٤/١٧٣، ١٨٣.

(٤) انظر شرح التسهيل ١٧٢/٣ وما بعدها.

(٥) سورة إبراهيم ٧، والقراءة في معاني القرآن للفراء ٨١/٢، والبحر المحيط ٤٢٩/٥.

(٦) صحيح البخاري / باب فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ٢٦٢/٥.

الله عنه: ﴿وَكَذَلِكَ زُيْنَ لَكَثِيرٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلُ أَوْلَادَهُمْ شَرِكَائِهِمْ﴾<sup>(١)</sup>، وأما القياس، فقد حسَنَ هذا الفصل ثلاثة أمور:

أحدها: كون الفاصل فضلة، فهو بذلك صالح لعدم الاعتداد به.

الثاني: كونه غير أجنبٍ لتعلقه بالمضف.

الثالث: كونه مقدر التأخير.

وذكر الشاطبي حجج ابن مالك السابقة في جواز الفصل بين المتضارفين، وأيدتها من حيث القياس، ولكنها اعترض عليها من حيث السمعاء، إذ الفصل قليل والأكثر عدم الفصل، والعلة إذا وجدت، ووجه القياس إذا ظهر لا يعتبر إلا مع شياع السمعاء.

من هذه المسألة يمكننا استخلاص المعايير الآتية:

١ - لا يقاس إلا على ما أكثر كثرة مسترسلة الاستعمال.

٢ - ما جاء من الفصل في الكلام شاذ، وفي غاية الندور، ومصادم لما شاع في كلامهم.

٣ - العلة إذا وجدت، ووجه القياس إذا ظهر لا يعتبر إلا مع شياع السمعاء، أو كونه في قوة الشائع لعدم المعارض.

٤ - التعجب من (افتقر) ونحوه:

أكثر النحويين يجعلون من شواد التعجب (ما أفتره، وما أشهاد، وما أحياه، وما أمحقته) بناءً على أن الثلاثي منها لم يستعمل، قال ابن مالك: وليس الأمر كما اعتقدوا بل استعملت العرب: مَفْتَ، وَفَقَرَ، وَشَهِيَ، وَحَيَيَ. " وممن خفي عليه استعمال (حَيَيَ) بمعنى (استحيَا) أَبُوعَلَى الْفَارَسِيُّ، وممن خفي عليه استعمال (فَقَرَ وَمَفْتَ) سَبِيبُوِيَّهُ، ولا حجَّةٌ في قول من خفي عليه ما ظهر لغيره، بل الزيادة من الثقة مقبولة، وقد ذكر استعمال ما ادعى استعماله جماعة من أئمة اللغة"<sup>(٢)</sup>.

فرد عليه الشاطبي بقوله: " وفي هذا نظر، وذلك أن ندور الاستعمال حاكِمٌ بأن هذا الفعل لا يقع على الألسنة إلا نادراً بحيث لا يعتمدُهُ العربيُّ في بناء فعل التعجب منه، وإن اتفق كثرة استعماله عند بعض العرب لم يتفق عند الباقيين، وبذلك يُعدُّ نادراً، إذ لو

(١) سورة الأنعام، ١٣٧، وانظر البحر المحيط ٤/٣٢٩، ومعجم القراءات ٢/٣٢٢.

(٢) شرح التسهيل ٢/٤٦.

تداولت العرب استعماله لسمع كثيراً، ولو سمع كثيراً لم يكن نادراً عندهم، أعني عند الناقلين عن العرب، فعدهم إياه نادراً دليل على أنهم فهموا ذلك من العرب<sup>(١)</sup>، فإذا وجد فعل تعجب لم يكن فعله المبني هو منه كثير الاستعمال فهو شاذ لا يقاس عليه، إلا إن ثبت استعماله لبعض العرب فحيثما يقاس بالنسبة إليهم، لا بالنسبة إلى من لا يستعمله<sup>(٢)</sup>. ثم ذكر أشياء من هذا القبيل، وقال: "ما ذاك إلا لأنهم لم يعتبروا ذلك المسموع، لشذوه ونوره، فإطلاق الناظر في هذا الموضوع لا يستقيم في مدارج القياس"<sup>(٣)</sup>.

وذكر قاعدة نفيسة هي من المتقدمين على بال ويغفلها أكثر المتأخرین، مفادها أن إثبات السمع أو نفيه أمر يسير، ولكن إثبات ما يقاس عليه وما لا يقاس عليه ليس من السهل ولا من اليسير، ولا يقول به إلا من داخل العرب، وزاول كلامها، وفهم مقاصدتها. والذين اعتنوا بالقياس والنظر فيما يُعَدُّ من صلب كلام العرب وما لا يُعَدُ لم يثبتوا شيئاً إلا بعد الاستقراء التام، "إذا ثبت هذا فإنهم لم يدعوا في (ما أفقره) وأخواته أنه شاذ إلا بعد أن عرفوا بالاستقراء التام أن قائله لا يتكلّم بـ(فقر) أونحوه، وإن تكلّم به ففي شعر أو نادر كلام، وما لا يبني عليه القياس، وإن كان نفيهم لذلك لما لاعلم لهم بنفيه ولا إثباته، وهذا لا يصح أن ينسب إلى عدل منهم على حال، كما لا ينسب مثل ذلك إلى فقيه أو أصولي أو غيرهما... فمن كان مثلكم فواجب أن يقبل قوله نفياً أو إثباتاً، وهو قد قالوا: إن (ما أفقر) وأخواته شاذ، لعدم جريانه على الثلاثي، فلم يقولوا ذلك إلا بعد فهمه من العرب كذلك<sup>(٤)</sup>، لأنهم يخبرون عن السمع لا عن آرائهم، ثم قال: "فالحاصل أن ما استدرك المتأخرون هنا غير مخلص، وابن مالك منهم"<sup>(٥)</sup>.

ورد على ابن مالك قوله بأن (فقر) وأخواته قد ذكره جماعة من أئمة اللغة بأن أكثر اللغويين إنما ينقلون السمع مطلقاً، أما الاستقراء لوضع القواعد والقوانين فهي مهمة

(١) المقاصد الشافية ٤/٤٨٦.

(٢) السابق.

(٣) السابق ٤/٤٨٦.

(٤) السابق ٤/٤٩٣.

(٥) السابق ٤/٤٩٤.

النحوين<sup>(١)</sup>.

فمعايير الشاطبي التي اعتمدتها في هذه المسألة هي:

- ندور الاستعمال حاكم بعدم جواز القياس.
- الشاذ لا يقاس عليه إلا عند من يستعمله من العرب.
- الشعر ونادر الكلام لا يبني عليه قياس.
- تقديم التمييز على عامله المتصرف<sup>(٢)</sup>:

منع سيبويه وجمهور البصريين تقديم التمييز على عامله المتصرف<sup>(٣)</sup>، وذهب الكسائي من أهل الكوفة، والمازناني وتلميذه المبرد - من أهل البصرة - إلى جواز التقديم<sup>(٤)</sup>، وهو مذهب ابن مالك في "التسهيل وشرحه" وقادسه "على سائر الفضلات المنصوبة بفعل متصرف، ولصحة ورود ذلك في الكلام الفصيح بالنقل الصحيح<sup>(٥)</sup>. واستشهد بعدة أبيات منها:

ضَيَّعْتُ حَزْمِيَ فِي إِبْعَادِيَ الْأَمَلَ  
وَمَا أَرْعَوْتُ رَأْسِي شَيْئًا اشْتَعَلَ<sup>(٦)</sup>  
قدم التمييز (شيئاً) على عامله المتصرف (اشتعل).

قال الشاطبي: "والصحيح منع ذلك من جهة القياس والسماع. أما السمع: فلو كان مقولاً لسمع، لكنه لم يسمع إلا نادراً في الشعر الذي هو محل الضرورة، فدل على أن العرب تمنع منه قصداً. وأما القياس: فإن التمييز هنا منقول من الفاعل، فأصله أن يكون فاعلاً، فكرهوا أن ينقلوه عن موضعه الأصلي، وهو أن يؤخروه عن العامل فيه، إذ كان الفاعل لا يتقدم على عامله. وهذا قاله الفارسي وغيره"<sup>(٧)</sup>. ورد ما قاله الفارسي من خمسة أوجه، أجاب عنها جميعها شيخ الشاطبي الأستاذ عبد الله بن الفخار<sup>(٨)</sup>. وعندما

(١) انظر السابق.

(٢) انظر السابق ٣/٥٥٢ وما بعدها.

(٣) انظر الكتاب ١/٢٠٥، والإنصاف ٢/٨٢٨.

(٤) انظر الإنصاف ٢/٨٢٨.

(٥) شرح التسهيل ٢/٣٨٩.

(٦) من البسيط. وهو في الإنصاف ٢/٨٢٨، وشرح التسهيل ٢/٣٨٩، والمقاصد الشافية ٣/٥٥٣.

(٧) المقاصد الشافية ٣/٥٥٤.

(٨) انظر السابق ٣/٥٥٦-٥٥٨.

علم بأن أبا حيان أجازه قال: "يرحمه الله أبا حيان لقد أغفل أصلاً عظيماً من أصول النحو مع كثرة دوره على ألسنة المقرئين ... ولو كان جائزًا عند العرب لكثر نظمًا ونثرًا كثرة لا يمكن فيها تأويل... فلما كان الأمر على خلاف ذلك، دل دلالة واضحة على امتناع العرب من تقديمها على عامله وإن كان فعلًا، لأن اختصاص ذلك بالشعر مع كثرة استعماله دليل على أنه من ضرائره<sup>(١)</sup>. قال الشاطبي: "وهو أصل متفق عليه عند الأكابر: الخليل وسيبويه، فمن دونهما إلى الآن، وابن مالك قد يعتبره في مواضع كهذا الموضوع، وقد لا يعتبره كما فعل في مسألة دخول واو الحال على المضارع الموجب، وفي مسألة الفصل بين المضاف والمضاف إليه بمعنى المضاف<sup>(٢)</sup>. أراد الشاطبي - يرحمه الله - أن يشير إلى أصل عظيم من أصول النحو، وهو أن ما كثر استعماله في الشعر فهو من الضرائر الشعرية، ولا يقاس على ما جاء في الضرورة.

ولعل اختلاف رأي ابن مالك في الألفية بما قاله في "التسهيل وشرحه"<sup>(٣)</sup> يدل على اضطرابه في هذه المسألة.

فمعايير الشاطبي التي اعتمدتها في هذه المسألة هي:

- لا يقاس على النادر.
  - لا يقاس على ما جاء في الشعر لأنه محل الضرورة.
  - لا يقاس إلا على ما كثر نظمًا ونثرًا كثرة لا يمكن فيها تأويل.
- ٥ - زيادة "من" في الواجب<sup>(٤)</sup>:

اشترط جمهور البصريين لزيادة (من) أن تقع في نفي أو ما أشبه النفي، نحو: ما جاءني منْ رجل، وهل جاءك منْ أحد؟ وذهب الكوفيون والأخفش إلى جواز زiadتها في الواجب من غير اشتراط نفي أو شبهه، وإليه مال ابن مالك في "التسهيل وشرحه". قال: "وأجاز أبو الحسن الأخفش وقوعها في الإيجاب وجرها المعرفة، وبقوله أقول، لثبوت السمع بذلك نظمًا ونثرًا<sup>(٥)</sup>، واستشهد بشواهد كثيرة، فمن النثر قوله تعالى:

(١) السابق .٥٥٩/٣

(٢) السابق .٥٥٩/٣

(٣) انظر .٣٨٩/٢

(٤) انظر المقاصد الشافية ٥٩٨/٢ وما بعدها.

(٥) شرح التسهيل .١٣٨/٣

﴿ولَقَدْ جَاءَكَ مِنْ بَنَاءِ الْمُرْسَلِينَ﴾<sup>(١)</sup>، وحديث عائشة رضي الله عنها: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي جالساً فيقرأ وهو جالس، فإذا بقي من قراءته نحو من كذا ...."<sup>(٢)</sup>. ومن النظم يقول عمر بن أبي ربيعة:

فما قالَ مِنْ كَاشِحٍ لَمْ يَضُرُّ<sup>(٣)</sup>  
وَيَنْمِي لَهَا حَبْهَا عَنْدَنَا

قال ابن مالك: "وممن رأى زيادة (من) في الإيجاب الكسائي<sup>(٤)</sup>، وحمل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن من أشد الناس عذاباً يوم القيمة المصوروون"<sup>(٥)</sup> فقال: أراد: إن أشد الناس عذاباً يوم القيمة المصوروون. وممن رأى ذلك أبو الفتح بن جني، وحمل عليه قراءة عبد الرحمن بن هرمز الأعرج: ﴿إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِنَّاقَ النَّبِيِّنَ لِمَا أَتَيْنَاكُمْ﴾<sup>(٦)</sup>. أراد: لمّا آتيناكم - بثلاث ميمات فحذفت الأولى، وبقيت "لما" بعدين، أولهما بدل من نون، والثانية ميم ما<sup>(٧)</sup>. قال الشاطبي في شرح الأنفية: "والصواب ما ذهب إليه هاهنا، لأن السمع المستمر قضى أنها تختص بالمنفي، إذ لم تأت زياتها في الإيجاب إلا محل الاحتمال، أو في الندور، فلا يصح أن يقضى بالقياس حتى يتبيّن من الاستقراء القصد إليها بكترة مجئها في الكلام، فإذا لم يكن ذلك، فيجب الوقوف على السمع، لثلا ندعى على العرب ما لا نعرف<sup>(٨)</sup>". ورد على الاعتراض الذي أورده على نفسه - وهو ثبوت زياتها في الواجب كثيراً، وذكر شواهد كثيرة من القرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر - وقال بـ"أن جميع ما ذكر من السمع لا يثبت به ما قال: أما أولاً: فإن الأصل الثابت في الحروف إلا تدعى فيها الزيادة إلا إذا تيقنت، وقام الدليل عليها، وأمامع بادي الرأي بذلك غير مخلص". وأماماً ثانياً: فإن هذه الموضع المستشهد بها محتملةً لما قال، ولغير ذلك<sup>(٩)</sup>، وأخذ يفند

(١) الأنعام .٣٤.

(٢) أخرجه البخاري بباب تقصير الصلاة، وصحيحة مسلم .٣٨٢/١٣.

(٣) من المقارب، وهو في ديوانه .٢٩٩. وشرح أبيات مغني اللبيب .٥ / ٥ .٢٢٩.

(٤) انظر شرح التسهيل .١٣٩/٢.

(٥) صحيح البخاري .٢١٥/٧، وفيه روايات بدون (من) وصحيحة مسلم .٨٢٤/٣٧ .٨٢٤/٣٧.

(٦) آل عمران .٨١، والقراءة في المحتسب .١٦٤/١.

(٧) انظر شرح التسهيل .١٣٩/٣.

(٨) المقاصد الشافية .٥٥٩/٣.

(٩) السابق .٦٠٢/٣.

الأدلة واحداً واحداً، فخرج بعضها على أن (من فيها للتبعيض)، وبعضها على أنها لابتداء الغاية. فقوله تعالى: «من نبأ المرسلين»، فعل حذف الموصوف حملها طائفة، كأنه قال: نبأ من جملة نبأ المرسلين تعتبر به أو تتأسى، أو نحو ذلك مما يليق، (من) إذ ذاك للتبعيض. ثم قال: وأما الحديث: "إن من أشد الناس عذاباً" فعل إضمار الشأن، فلذلك رفع (المصورون). والعجب أن المؤلف حمل الحديث في التسهيل على إضمار الشأن، وصرح بمخالفة الكسائي، ثم التزم هنا مذهبـهـ، فاستدل به في الشرح على الزيادة. وأما (لما آتيناكم) فإنـماـ قالـهـ ابنـجـنـيـ فيهاـ تـفـريـعـ علىـ مـذـهـبـ الأـخـفـشـ،ـ والـرواـيـةـ فيهاـ مـقـالـ،ـ وإنـ سـلـمـ ماـ قـالـ فـذـكـ شـازـ كـشـذـوـذـ ماـ أـتـىـ فـيـ الشـعـرـ مـنـ ذـكـ...ـ وإـذـ كـانـ كـذـكـ لمـ يـثـبـ لـهـ زـيـادـةـ فـيـ الـواـجـبـ (١١). فالـشـاطـبـيـ فـيـ اـعـتـراـضـهـ عـلـىـ اـبـنـ مـالـكـ فـيـ جـواـزـ زـيـادـةـ (١ـ)ـ مـنـ (ـ)ـ فـيـ الـواـجـبـ اـسـتـنـدـ إـلـىـ الـمـعـايـرـ الـآـتـيـةـ:

- ١- المحتمل لا تقوم به حجة.
  - ٢- الشاذ والنادر لا يقاس عليه.
  - ٣- لا يصح أن يقاضي بالقياس إلا على ما كثُر مجيئه في الكلام.
  - ٤- مالم يكثُر في الكلام يجب الوقوف فيه على السمعان.
  - ٥- خروج "سوى" عن الطرفية (١):

مذهب سيبويه<sup>(٢)</sup>) وجمهور البصريين أن "سوى" ظرف غير متصرف، لا يخرج عن النصب على الظرفية إلا في ضرورة الشعر، فلا تقع مبتدأة، ولا ترفع على الفاعلية، ولا تجر بالإضافة، غير أن العرب ضممتها معنى الاستثناء لأنها وقعت موقع نصب، نحو: قام القوم سوأَزيد، وسوى زيد. ومذهب الكوفيين أنها تكون ظرفاً وغير ظرف<sup>(٤)</sup>.

٦٠٣/٢) المقاصد الشافية.

(٢) انظر المسابقة ٣٩٧/٢.

١٩ / ١ (٢) انظر الكتاب

٤) انظر الانصاف / ٢٤٩

(٥) انظر شرح التسهيل .٣١٤ / ٢

متصرفة مثلها. ولأن أصلها الوصف، فيجب أن تبقى على الأصل حتى يقوم الدليل على عدم التصرف. ولو كانت ظرفاً لأعطيت معنى (في) الذي كانت تتضمنه.

وأما السمع: فمن النثر قول النبي صلى الله عليه وسلم: "دعوت ربِّي لأنَّا يسلطُ على أمتي عدواً من سوى أنفسهم"<sup>(١)</sup>، وقوله عليه السلام: "ما أنتم في سواكم من الأمم إلا كالشارة البيضاء في جلد الثور الأسود"<sup>(٢)</sup>. ومن أمثلة الفراء: أتيت سواك، أي غيرك.

وأورد أمثلة كثيرة من الشعر، منها قول الشاعر:

فَسَوَّاكَ بَائِعُهَا وَأَنْتَ الْمُشْتَرِي  
وَإِذَا تَبَعَ كَرِيمَةً أَوْ تُشْتَرِي

واعتراض الشاطبي على ابن مالك فيما ذهب إليه، وقال بأن جميع ما استدل به مبناه على السمع، والسمع الذي اعتمدته الشعر، وهو موضع ضرورة، والحديث وقد ثبت عند الأئمة جواز نقله بالمعنى.

قال الشاطبي: "والمحض ببيان ضعف مدرَّك الناظم في جعله (سوى) متصرفة كـ(غير)، فإن اعتماده هنا كان على هذين الأطلين، وهو يعتمد هما كثيراً، كما أنه يعتمد غيرهما مما لم يعتمد غيره من الأئمة"<sup>(٤)</sup>.

مما سبق تتبَّع معايير الشاطبي في اعتراضه على ابن مالك رغم قوَّة حجج ابن مالك، إلا أنَّ للشاطبي مقاييساً دقيقة ثابتة عند أهل الأصول، وهي:

١- الشعر موضع ضرورة فلا تبني عليه الأحكام وحده. بل لا بد من نثر شهير يضاف إليه.

٢- لا يستشهد من الحديث إلا بما ثبت أنه من لفظه صلى الله عليه وسلم، لا منقول بالمعنى وبالفاظ الرواة.

٧ مجيء فعل الشرط مضارعاً والجواب ماضياً<sup>(٥)</sup>:

يرى النحويون أن مجيء فعل الشرط مضارعاً، وفعل الجزاء ماضياً - نحو: إنْ تقم

(١) صحيح مسلم، كتاب القتن، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ٤/٢٢١٥، رقم (٢٨٨٧).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة ١/٢٠١، رقم (٣٧٨).

(٣) من الكامل، لمحمد بن عبد الله المدني، وهو في شرح الكافية الشافية ٢/٧١٨، وشرح التسهيل ٢/٣١٥.

(٤) المقاصد الشافية ٢/٥٠٤.

(٥) انظر السابق ٦/١٢٨ وما بعدها.

قامت، وإن تُكرمني أكرمنك - ضعيف، لأنه خروج من الأقوى إلى الأضعف، وضعفه من جهة المعنى، وذلك أن استعمال الماضي في الشرط أقوى الجزاء إنما هو لقصد تحقيق الأمر، وأنه كالواقع، فكيف يتربّ على فعل مستقبل؟ وأيضاً فإن فيه تهيئة العامل للعمل بجزر الفعل الأول ثم قطعه عن العمل في الثاني. وأجازه ابن مالك<sup>(١)</sup>. مستشهدًا بما جاء عنه صلٰى الله عليه وسلم: "مَنْ يَقْرِئْ لِيَلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتَسَابًا غُفْرَانًا مَا تَقدَّمَ مِنْ ذَنبِه"<sup>(٢)</sup>. وب الحديث عاشرة رضي الله عنها: "إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ، إِنَّ يَقْرِئُ مَقَامَكَ رُقَّ"<sup>(٣)</sup>. كما استشهد ببعض الأبيات الشعرية، منها:

إِنَّ يَسْمَعُوا سِيَّئًا طَارُوا بِهِ فَرَحًا  
مِنِّي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ  
دَفَنُوا<sup>(٤)</sup> وَذَكَرَ أَنَّ الْفَرَاءَ أَجَازَهُ، وَجَعَلَ مِنْهُ فَوْلَهُ تَعَالَى: (إِنَّ شَائِئَنَّكُمْ مِنَ الْأَسْمَاءِ مَا يَهْتَاجُ  
أَعْتَقْتُمْ مَا) <sup>(٥)</sup>، لَأَنَّ (ظَلَّتْ) بِافْظَالِ الْمَاضِيِّ، وَقَدْ عُطِّلَ عَلَى (انْتَزَلَ)، وَحَقُّ الْمَعْطُوفِ أَنْ  
يُطْلَعَ لِحَلْوَةِ مَحْلِ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ<sup>(٦)</sup>. وَفَسَرَ الْأَبْيَاتَ عَلَى مَنْهَبِهِ فِي مَفْهُومِ الضرُورَةِ.  
فَلَمَّا لَمْ يَقُولُوا ذَلِكَ مَعَ إِمْكَانِهِ وَسُهُولَةِ تَعَايُّثِهِ، عَلِمُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مَضْطَرِّينَ<sup>(٧)</sup>. قَالَ  
الشاطِبِيُّ: "وَالْحَقُّ أَنَّهُ نَادِرٌ لِيُسَمِّيَ فِي رَبِّهِ مَا تَقدَّمَ... كُلُّ مَا احْتَجَ بِهِ الْمُؤْلِفُ جَارٌ عَلَى  
طَرِيقِهِ"<sup>(٨)</sup>. أَيْ عَلَى طَرِيقِهِ فِي مَفْهُومِ الضرُورَةِ، وَالاستشهادُ بالْمُحَدِّثِ. فَاعْتَدَ  
الشاطِبِيُّ فِي اعْتِراضِهِ فِي هَذِهِ الْمُسَالَّةِ عَلَى الْمُعَايِرِ الْآتِيَةِ:

- لا يقاس على ما جاء في الشعر لأنَّه محل ضرورة، ومفهوم الضرورة هو كل ما جاء في الشعر سواء أكان عنه مندوحة، أم لم يكن له عنه مندوحة.
- لا يستشهد بال الحديث وغيره من الكلام إلا بما ثبت صحة نقله.

(١) انظر شرح التسهيل ٩١/٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان - باب قيام ليلة القدر من الإيمان. فتح الباري ٩١٨، الحديث رقم ٢٥.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء - الباب التاسع عشر. فتح الباري ٤٧/٦، الحديث رقم ٣٣٨٤.

(٤) من البسيط، لقعنب بن أمر صاحب، وهو في المحتسب ٢٠٦/١، والمغني ٧٧٢/٢.

(٥) الشعراء ٤.

(٦) المقاصد الشافية ٦/١٣١.

(٧) شرح التسهيل ٤/٩٢.

(٨) السابق ٦/١٣١.

## ٨- توكيد النكرة:<sup>(١)</sup>

منع جمهور البصريين – إلا الأخفش – تكيد النكرة توكيداً معنوياً . وأجازه بعض الكوفيين مطلقاً، وأجازه بعضهم مقيداً بحصول الفائدة<sup>(٢)</sup>، وإليه ذهب ابن مالك، قال: ”فمن حكم بالجواز مطلقاً، أو بالمنع مطلقاً، فليس بمصيب، وإن حاز من الشهرة أوفر نصيب”<sup>(٣)</sup>، واستشهد على الجواز المقيد بحصول الفائدة ببعض الأبيات الشعرية منها:

قول رؤبة: أوقتْ بِهِ حَوْلًا وَحَوْلًا جُمِعًا<sup>(٤)</sup>

وقول الآخر: قَدْ صَرَّتِ الْبَكَرَةَ يَوْمًا جُمِعًا<sup>(٥)</sup>

وقول الآخر: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ صَيِّدًا مُرْضَعًا تَحْمِلُنِي الْذَّلِفَاءُ حَوْلًا أَكْتَعَانًا<sup>(٦)</sup>

واعتراض الشاطبي على ابن مالك بقوله: ”وما ذهب إليه الناظم حسن إن ساعد قياسه سماع يعتد به في القياس، ويخرج به عن الشذوذ، وتكلف التأويل”<sup>(٧)</sup>، واحتج لنحاة البصرة بالقياس والسماع. فوجه القياس: أن النكرة ”ليس لها عين ثابتة كالمعرفة، فينبغي ألا تؤكده، لأن توكيد ما لا يعرف غير مفيد. وأيضاً فإن النكرة شائعة في جنسها، والتوكيد يقتضي التخصيص، وهذا كالمتنافي فلا يجتمعان ..... هذا وجه القياس، وأما السماع فلم يأت منه ما يشفى غلّة”<sup>(٨)</sup>. ثم قال: ”إن الفائدة عندهم ليست هي المانعة فقط، بل ثم عندهم أمر آخر زائف عليه، وهو الوضع العربي، فإذا كان الوضع لم يتبيّن استمراره لم يصح أن يعتمد على مجرد الفائدة فيه.... وكثيراً ما تجد ابن مالك وغيره من المتأخرین يعتمدون على أشياء لا يعتمد على مثلها المتقدمون الذين لا يلبسوا العرب وعرفوا مقاصدهم، اتكاً على قياس مجرد، أو على حصول الفائدة، أو غير ذلك.

(١) انظر السابق ١٦/٥ وما بعدها.

(٢) انظر الإنصاف ٤٥٥/٢، المسألة ٦٢.

(٣) شرح التسهيل ٢٩٧/٢.

(٤) من مشطور الرجز، وهو في ديوان رؤبة ٩٢، وشرح التسهيل ٢٩٦/٢.

(٥) من مشطور الرجز، مجھول النسبة، وهو في الإنصاف ٤٥٤/٢، وشرح التسهيل ٢٩٧/٢، وشرح المفصل ٤٥/٢، والمقاصد الشافية ١٩٧/٥، والخزانة ١٨١/١.

(٦) من الرجز، مجھول النسبة، وهو في شرح التسهيل ٢٩٥/٢، والمقاصد الشافية ١٩٧/٥.

(٧) المقاصد الشافية ١٩٧/٥.

(٨) السابق ٢٠/٥.

والصواب الاستناد إلى السمع، ثم النظر في قياسه إن كان لا العكس<sup>(١)</sup>. ورد ابن الأنباري مذهب الكوفيين بأن بعض الأبيات التي استشهدوا بها مجحولة، فلا يجوز الاحتجاج بها، وبعضها روايتها غير صحيحة، ثم قال: لو قدرنا أن هذه الأبيات التي ذكروها صحيحة عن العرب، وأن الرواية كما أدعوه، لما كان فيها حجة، وذلك لشذوذها، وقلتها في بابها، إذ لو طردن القياس في كل ما جاء شاذًا مخالفًا للأصول والقياس، وجعلناه أصلًا، لكان ذلك يؤدي إلى أن تختلط الأصول بغيرها، وأن يجعل ما ليس بأصلٍ أصلًا، وذلك يفسد الصناعة بأسرها<sup>(٢)</sup>.

فالمعايير التي اعتمدتها الشاطبى في اعتراضه على ابن مالك في جواز توکيد النكرة، هي:

- ١- لا يقاس إلا على ما يعتد به من السمع ويخرج بكثره عن الشذوذ وتکلف التأويل.
- ٢- لا بد من ملابسة العرب ومعرفة مقاصدهم.
- ٣- لا يصح الاتکال على قياس مجرد أو على حصول الفائدة بل لا بد من الاستناد إلى السمع.
- ٤- نيابة غير المفعول به - مع وجوده - مناب الفاعل<sup>(٣)</sup>.

ذهب جمهور البصريين إلى منع إقامة غير المفعول به - عند وجوده - مناب الفاعل: "وأجازه الكوفيون<sup>(٤)</sup>، والأخفش<sup>(٥)</sup> من البصريين. قال ابن مالك في شرح التسهيل: "وبقولهم أقول، إذ لا مانع من ذلك مع أنه وارد عن العرب"<sup>(٦)</sup>. وجعل منه قراءة أبي جعفر: «ليجزئ قوماً بما كانوا يكسبون»<sup>(٧)</sup>، حيث أقيم الجار والمجرور مقام الفاعل، وتُرك (قوماً) منصوباً وهو مفعول به، واستشهد من الشعر ببعض الأبيات، منها:

(١) السابق.

(٢) الإنصاف ٤٥٦/٢.

(٣) انظر المقاصد الشافية ٤٢/٢.

(٤) انظر ائتلاف النصرة في اختلاف نحاة الكوفة والبصرة ٧٧.

(٥) انظر الخصائص ٣٩٧/١.

(٦) ١٢٨/٢.

(٧) الجاثية ١٤. والقراءة في النشر ٣٧٢/٢. وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر ٣٩٠. وانظر معجم القراءات ١٥١/٦.

لَسْبَ بِذَلِكَ الْجَرُو الْكَلَابَا<sup>(١)</sup>      وَلَوْ وَلَدَتْ قَفِيرَةً جَرُو كَلِبٍ

فأقيم الجار والمجرور (بذلك) مناب الفاعل، وبقي المفعول به (الكلابا) منصوبًا.

قال الشاطبي معللاً عدم جواز نيابة المجرور، أو الظرف، أو المصدر مناب الفاعل إذا وجد المفعول به: ”فلا تقول في: أغنیت زيداً عن السؤال: أعني عن السؤال زيداً، ولا في: ضربت زيداً ضرباً شديداً“<sup>(٢)</sup>. قال: ”لأنه من تقديم الفرع على الأصل لغير موجب، وأيضاً المشبه لا يقوى قوة المشبه به، فإذا اجتمعا لم يصح تقديم الأضعف على الأقوى... وأيضاً السمعان كذلك لم يأت على خلافه إلا قليلاً“<sup>(٣)</sup>. ووجه بعضهم قراءة أبي جعفر بأن ”الذي قام مقام الفاعل مفعول به لا مصدر...، والتقدير: ويخرج له عمله يوم القيمة كتاباً، فـ(كتاباً) ينتصب على الحال الواقعة موقع (مكتوب)، فـذلك لا يجوز أن تقام (الله) مقام الفاعل“<sup>(٤)</sup>. وخرج البيت على أن المعنى: لسبَّ السبُّ، وـ(الكلابا) منصوب بـ(ولدت)، وجرو كلبٍ منادي، وـ(قفيرةً): اسم أم الفرزدق، كأنه قال: ولو ولدت قفيرةً يا جرو كلبٍ، لسبَّ السبُّ بذلك الجرو“<sup>(٥)</sup>. قال ابن جني: ”هذا من أقبح الضرورة، ومثله لا يعتقد أصلاً، بل لا يثبت إلا محترراً، شاذًا“<sup>(٦)</sup>، وقد اختلف رأي ابن مالك في الآلية<sup>(٧)</sup> عما جاء في ”شرح التسهيل“. وهذا دليل على اضطرابه في هذه المسألة، ويترجح ما ذهب إليه الشاطبي موافقاً للبعريين.

فالمعايير التي استند إليها الشاطبي في اعتراضه على ابن مالك في هذه المسألة هي:

- ١- لا يجوز تقديم الفرع على الأصل لغير موجب.
- ٢- المشبه لا يقوى قوة المشبه به.

(١) من الواffer، نسبة البغدادي في خزانة الأدب ٢٣٧/١. لجرير وليس في ديوانه، والبيت في تأويل مشكل إعراب القرآن ٥٦، وإعراب القرآن للنحاس ١٢٩/٢، والخصائص ٣٩٧/١، والإفصاح للفارقي ٩٢، وأمالى ابن الشجري ٢١٥/٢، وشرح المفصل ٧٥/٧.

(٢) المقاصد الشافية ٤٢/٢.

(٣) السابق.

(٤) اختلف النصرة في اختلاف نحاة الكوفة والبصرة ٧٧.

(٥) واتفاق النصرة في اختلاف نحاة الكوفة والبصرة ٧٨، وانظر خزانة الأدب ٢٣٧/١.

(٦) الخصائص ٣٩٧/١.

(٧) انظر المقاصد الشافية ٤٢/٢.

٣- لا يصح تقديم الأضعف على الأقوى.

٤- لا يقاس على القليل.

#### ١٠- اجتماع الشرط والقسم:<sup>(١)</sup>

إذا اجتمع القسم والشرط، وتصدرا في كلام واحد، واتحدا في المعن، فإن جواب المتأخر يحذف مطلقاً، استغناء عنه بجواب المتقدم، فتقول إذا تقدم الشرط: إنْ جاءَنِي زيدٌ وَاللَّهُ أَكْرَمُهُ، ولا يجوز: لأَكْرَمْنَاهُ، وتقول إذا تقدم القسم: وَاللَّهِ لَنَّ أَتَيْنَاهُ لِأَكْرَمَنَاهُ، ولا يجوز: أَكْرَمْنَاهُ، إِلَّا نادِرًا.

أما إذا تقدم القسم والشرط وقبلهما ذو خبر فالراجح عند ابن مالك أن الحكم للشرط دون القسم، فهو الذي يؤتى له بالجواب، سواء تقدم الشرط أم القسم، فتقول: أنا إنْ تَأْتِنِي وَاللَّهُ أَكْرَمُكُ، وأَنَا وَاللَّهِ إِنْ تَأْتِنِي أَكْرَمُكُ<sup>(٢)</sup>. وعلل ابن مالك "ترجح الشرط في إغفاء جوابه هنا مطلقاً، بأن تقدر سقوطه مخل بالجملة التي هو منها، وقدير سقوط القسم غير مخل، لأنَّه مسوق لمجرد التوكيد، والاستغناء عن التوكيد سائغ"<sup>(٣)</sup>. وأعترض عليه الشاطبي مستنداً إلى القياس والسمع.

أما القياس فمقتضاه إما أن يكون الشرط والقسم على الحكم الذي كان عليه قبل دخول ذي الخبر، فيقال: أنا إنْ تَأْتِنِي وَاللَّهُ آتِكُ، أو يقال: أنا وَاللَّهِ إِنْ تَأْتِنِي لَآتِيَنَكُ، فيُستغنَى بجواب المتقدم فيهما عن جواب المتأخر، وعلل تسويغ هذا قياساً على الجملة إذا وقعت خبراً للمبتدأ، فهي على حكم الاستقلال كما لو لم تكن خبراً.

واماً أن يجوز الوجهان على حد سواء، دون مراعاة للمتقدم، فيقال: أنا وَاللَّهِ إِنْ تَأْتِنِي آتِكُ، وأَنَا وَاللَّهِ إِنْ تَأْتِنِي لَآتِيَنَكُ، كما يجوز العكس أيضًا<sup>(٤)</sup>. وضعف تعلييل ابن مالك في ترجح الشرط، بـ "أن سقوط الشرط إذا كان مخلًّا فكذلك يخلُّ سقوط القسم بحسب القصد، فإنَّ قصد التوكيد ينافي حذف المؤكَّد، كما أنَّ سقوط الشرط ينافي قصد التقييد به"<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر السابق ٦/١٧٠.

(٢) انظر السابق ١/١٧٣.

(٣) انظر السابق.

(٤) انظر المقاصد الشافية ٦/١٧٢، وتنقیح الألباب في شرح غوامض الكتاب ١٧١.

(٥) السابق ٦/١٧٧.

- وأنه لا فرق في القياس بين تقدير سقوط الجواب بعد ذي الخبر، ودونه.
- وأن سقوط أحد الجوابين إنما هو للدلالة عليه، فكأنه موجود لفظاً، فلا يعود حذف جواب الشرط عليه بمعنى ولا إخلال.

أما السمع: فليس له ما يدل على لزوم ما لزمه...<sup>(١)</sup>.

ومما سبق تتضح لنا أقيسة الشاطبي الدقيقة، إذ يأتي بالمقيس والمقيس عليه، ويبين وجه التباهي بينهما، والعلة الجامحة فيهما.

وبين ضعف علة الاستغناء التي استدل بها ابن مالك، مستنداً في تضعييفها إلى نظريته في المقاصد، فإن كان سقوط الشرط مخلاً بالمعنى، فكذلك سقوط القسم، إذ إن القصد منه التوكيد، والحذف ينافي التوكيد.

فمعايير الشاطبي التي اعتمدتها في هذه المسألة هي:

١- لا يصح القياس إذا انتفى السمع.

٢- لابد من معرفة القصد عند إصدار الحكم.

\* \* \*

---

(١) السابق.

## **المبحث الثاني: معايير الشاطبي في الأدلة النحوية:**

إن الباعث على وضع قواعد النحو والصرف هو حفظ اللغة من الفساد، والذي يترتب عليه حفظ الدين، فسلامة أحکامه تتوقف على حسن فهم نصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، فعندما خشي العلماء الأوائل استحکام اللحن على السنة الناس، وخافوا أن ينغلق القرآن الكريم والحديث الشريف على الأفهام ووضعوا القواعد النحوية وفق أصول يجب أن تراعى عند استقراء كلام العرب، فوضعوا شروطاً للسموع ثم نظروا بعد الاستقراء بما كثر وشاع في كلامهم بوبوا عليه، ووضعوا له القوانين المطردة، وجعلوه قاعدة يقاس عليها ودليلًا يستشهد به ويحتاج به في اللغة . وما قل، وندر في كلامهم قبلوه ولم ينكروا بفصاحته، ولكن لقلته توقفوا فيه على السماع.

هذه هي القاعدة الأصولية الصحيحة التي جرى عليها النحويون الأوائل، وهي المعايير التي انتهجها الشاطبي الفقيه الأصولي النحوي، وباستعراض معاييره في اعترافاته السابقة على ابن مالك يتضح أن جلها في اختلاف وجهات النظر بينهما في التعامل مع الأصول النحوية، ويمكننا الوقوف على ذلك بعرض تلك المعايير على التقسيم الذي جرى عليه العلماء لأصول، وهي السمعان، والقياس، والإجماع وغيرها، ولا بد للقياس والإجماع من مستند من السمعان<sup>(١)</sup>، لذا فقد تداخل بعض معايير الشاطبي في هذه الأنواع الثلاثة مع بعضها.

### **أولاً: معاييره في السمعان:**

يقصد بالسمعان " ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته "<sup>(٢)</sup>، ويشمل كلام الله تعالى، وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، وكلام العرب نظماً ونثراً.

وقد وضعوا شروطاً للسموع، منها ما يتعلق بالزمان، ومنها ما يتعلق بالمكان، ومنها ما يتعلق بالشخص الذي سمعت منه اللغة، ومنها ما يتعلق بالسموع نفسه.

والشاطبي يقيم وزناً للسموع بكل مقاييسه المعروفة عند أهل الأصول من حيث القلة والكثرة، والاطراد والشذوذ والشيوخ والندرة، ومن حيث تعدد الرواية في السموع.

(١) انظر الاقتراح ٢١.

(٢) الاقتراح ٢٦.

وتطرق الاحتمال إليه، والثقة في الراوي والعدالة، إلى غير ذلك من المقاييس الأصولية. في حين أن ابن مالك قد يعوّل على اللفظة الواحدة، ويقيس على الشاذ النادر، فيقيس على القراءات الشاذة في اللغة، ويستشهد بالحديث دون تحرز لما يقاس عليه منه وما لا يقاس، كما أن له مفهوماً في الضرورة الشعرية يبيح له القياس على ما جاء في الشعر مما لا يُعدُّ في نظره من الضرورات، ومن هنا يتضح لنا سبب اعتراضه عليه في استشهاده بعض القراءات القرآنية، والأحاديث الشريفة، والأبيات الشعرية، ويمكننا أن نتبين ذلك من خلال استعراض موقف الشاطبي وابن مالك إزاء هذه القضايا الثلاث.

#### ١- الاستشهاد بالقراءات القرآنية:

لا شك أن القرآن الكريم أصدق وأوثق مصدر يصار إليه للاحتجاج به في اللغة وال نحو: لسلامة نصوصه من التغيير وصحة سنته وتواتره. وفصاحتته. وقد أجمع النحاة على جواز الاحتجاج في العربية بالقراءات القرآنية – المتوافر منها والأحاداد والشاذ – ما لم تختلف قياساً معروفاً، بل ولو خالفته يحتاج بها في مثل ذلك الحرف بعينه وإن لم يجز القياس عليه<sup>(١)</sup>.

وذكر السيوطي أنه "كان قوم من النحاة المتقدمين يعيرون على عاصم وحمزة وابن عامر قراءات بعيدة في العربية، وينسبونهم إلى اللحن، وهم مخطئون في ذلك، فإن قراءاتهم ثابتة بالأسانيد المتواترة الصحيحة التي لا مطعن فيها، وثبتت ذلك دليل على جوازه في العربية"<sup>(٢)</sup>. وذكر من هذه القراءات:

قراءة حمزة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامِ﴾<sup>(٣)</sup> - بجر الكلمة (الأرحام) عطفاً على الضمير المجرور في (به). وقراءة ابن عامر في جواز الفصل بين المتضادين: ﴿وَكَذَلِكَ زُينَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أُولَادَهُمْ - شَرَكَائِهِمْ﴾<sup>(٤)</sup>. ببناء (زِينَ) لما لم يسم فاعله، ورفع (قتل) نيابة عن الفاعل وإضافتها إلى (شركائهم)، والفصل بينهما

(١) الاقتراح .١٥

(٢) السابق.

(٣) النساء ١، والقراءة في السبعة ٢٢٦، والنشر ٢٤٧/٢. وانظر معجم القراءات ٢/٤٠٤.

(٤) الأنعام ١٣٧، والقراءة في السبعة ٢٧٠، والكشف عن وجوه القراءات السبع ٤٥٤، والنشر ٢/٢٦٣.

وانظر معجم القراءات ٢/٣٢٢.

بالمفعول (أولادهم).

وقد تبانت مواقف النحويين من قراءة ابن عامر، فمنهم من لَحِّنها، ومنهم من ضعَّفها<sup>(١)</sup>. أما الزمخشري فقال: "أما قراءة ابن عامر، فشيء لو كان في مكان الضرورات - وهو الشعر - لكان سمجاً مردوداً... فكيف به في الكلام المنشور"<sup>(٢)</sup>، ومنهم من قال بأنها "لا تجوز في العربية، وهي زلة عالم، وإذا زل العالم لم يجز اتباعه"<sup>(٣)</sup>.

ومن العلماء من دافع عن هذه القراءة، وعن صاحبها<sup>(٤)</sup>، حتى قال أبو حيان عن الزمخشري: "وأعجب لعجمي ضعيف في النحو، يرد على عربي صريح محضر قراءة متواترة موجود نظيرها في لسان العرب في غير ما بيت، وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقاً وغرباً..."<sup>(٥)</sup>. وقال ابن الجوزي: "والحق على غير ما قاله الزمخشري، ونعود بالله من قراءة القرآن بالرأي والتشهي، وهل يحل لمسلم القراءة بما يجد في الكتابة من غير نقل؟ بل الصواب جواز مثل هذا الفصل. وهو الفصل بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول في الفصيح الشائع الذائع اختياراً..."<sup>(٦)</sup>.

وتندى الناس في رد القراءة وأخرون في الدفاع عنها، وجنحوا عن جادة الصواب، ودخلوا في صراعات وحروب كلامية. حتى قال بعض المعاصرين: "ذلك ما كان من أمر الزمخشري إزاء قراءة سبعية محكمة، ولهذا سلط الله عليه من يرد كيده في نحره"<sup>(٧)</sup>. ولعل الناظر إلى هذا الجدل، ليأخذه الحماس الديني، فيتدفع مؤيداً من دافع عن قراءة ابن عامر، ناقماً على من طعن فيها، إلا أن الشاطبي يحل هذا النزاع، بأسلوب هادئ عقلي، يحکم إلى المنطق. ويحترم القراءات وقدسيتها، وفي ذات الوقت لا يخرق

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع/<sup>٤٤</sup>، والإنصاف/<sup>٤٣٦</sup>.

(٢) الكشف/<sup>٥٤</sup>.

(٣) وهو أبو غانم النحوي انظر الجامع مع لأحكام القرآن م/٤ ج/<sup>٩٢</sup>.

(٤) كابن المنيف في الإنصاف فيما تضمنه الكشف من الاعتزال/<sup>٥٤</sup>، والسيوطى في الاقتراح/<sup>١٥</sup>، والبناء الدمياطي في إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر.<sup>٢١٧</sup>

(٥) البحر المحيط/<sup>٤</sup>، <sup>٢٢٢</sup>.

(٦) النشر/<sup>٢٦٢</sup>.

(٧) الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين.<sup>١٢٨</sup>

القوانين النحوية، ولا يفسد اللغة، فبدأ بالدفاع عن قراءة ابن عامر، والتماس وجه لها في العربية، فذكر مسوغات ابن مالك لهذا الفصل – وهي: كون الفاصل فضلة، وكونه غير أجنبي، وكونه مقدر التأخير – وأضاف إليها مسوغاً آخر، وهو "كون الإضافة أصلها الرفع أو النصب، فكان محصول هذا الفصل فصلاً بين فعل ومرفوعه أو منصوبه ببعض معمولاته، فهو في الحقيقة تقديم مفعول على فاعل، أو ظرف على مفعول ..... فصار ذلك كله كقولك: ضربَ عمراً زيدًّا، وضررتِ اليومَ زيدًا، ولا إشكال في جواز مثل هذا"<sup>(١)</sup>. ثم أخذ يدافع عن ابن عامر ضد من خطأه وغض منه بزعمه أنه اتبع رأيه، وخط المصحف، وترك الرواية، وأن تلك القراءة لحن، وغير جارية على أصول كلام العرب. قال: "فإن هذا القول تخرّص عليه، وعدم توفيقه لحق الإمامة والتقدّم والعدالة ولقاء الصحابة والأخذ عنهم، إذ كان من شيوخه الذين عوّل عليهم عثمان بن عفان – رضي الله عنهم أجمعين – وأيضاً فهو من اتفق الجم الغفير على اتباعه الآخر، وعدم أخذه بالرأي كسائر السبعة وغيرهم من اشتهر بنبذ الرأي، واتباع السنّد في القراءة"<sup>(٢)</sup>. ثم قسم الناس إزاء هذه القراءة إلى قسمين:

- قسم تعرّض للقراءة، وطعن في قارئها، وزعم أنها خطأ، وأن ابن عامر رأى في مصحف الشاميين (شركائهم) مكتوبًا بالياء فاستدل بذلك أنه مجرور، وبين قراءته على خط المصحف، فهو لاء هم الذين قصدتهم بقوله السابق.

- وقسم آخر تكلم عن الفصل بين المتظايفين، وأنه "مختص بالشعر، وأنه شاذ غير مقيس، فهذا مقرّ بأنه لم يحفظ مثله في كلام العرب، أو لم يكثر كثرة تُعتبر في القياس، أو لم يدرك وجه القياس فيه، أو أدركه لكن رأه ضعيفاً، فمثل هذا لا كلام معه، ولا عتب عليه"<sup>(٣)</sup>؛ لأنه لم يطعن في قراءة ولا قاري.

ثم بين بعد ذلك القاعدة الأصولية المتبعة في القياس عند العرب، والتي يجب التنبيه عليها في الكلام على هذا النظم، وما ارتكب صاحبه فيه وفي غيره، وهي أنَّ المعتمد في القياس عند واضعيه الأولين إنما هو اتباع صلب كلام العرب وما هو الأكثر فيه، فنظروا

(١) المقاصد الشافية ٤/١٧٨

(٢) السابق ٤/١٧٩

(٣) المقاصد الشافية ٤/١٧٩

إلى ما كثرة كثرة مسترسلة الاستعمال فضبطوه ضبطاً ينقاصل، ويتكلّمُ بمثله. وما لم يكن كثرة توازي تلك الكثرة، ولم يشع في الاستعمال، ولم يكن له معارض أجروا فيه القياس أيضاً. وإذا تكافأ السمعان في الكثرة صح القياس على كل واحد منهمما – وإن كانوا متعارضين في الظاهر – كلغة الحجازيين والتميميين في إعمال (اما) وإهمالها. وإذا قلّت إحدى اللغتين عن الأخرى في الكثرة جاز القياس على كل واحدة منهمما، إلا أن تضعف جداً فلها حكمها. وما كان له معارض توقفوا في القياس عليه، ووقفوه على محله، إذا كان المعارض مقيساً<sup>(١)</sup>.

ووفقاً لهذه القاعدة الأصولية العظيمة فقد حكم الشاطبي في قضية الفصل بين المتضادين بأن الفصل بين المضاف والمضاف إليه عامة لا يجوز القياس عليه، لأنه قليل، وعامتة في الشعر، وبالخصوص إذا كان من إضافة المصدر أو الصفة إلى معمولها، فلا شك أن عدم الفصل فيها هو الشائع الدائم، وأن الفصل بالنسبة إلى عدمه كالمعدوم، وأنَّ ما جاء منه في الشعر، وما جاء في الكلام شاذٌ في غاية الندور، فكيف نجري فيه القياس وهو مصادمة لما شاع في كلامهم من عدم الفصل؟ وأن العرب "لوعزموا على القياس لكانوا خلقاء أن يتكلموا به، ويكثر في كلامهم كما كثرة عدم الفصل"<sup>(٢)</sup>.

ورد على من قال بأن الفصل – وإن كان قليلاً – فقد ظهر له وجه من القياس، حيث جرى مجرى العامل غير المضاف في جواز تقديم بعض معمولاته على بعض، بأن ذلك غير معتبر، لأن العلة إذا وجدت، ووجه القياس إذا ظهر، لا يُعتبر إلا مع شياع السمعان، أو كونه في قوة الشائع لعدم المعارض، وهذا ليس كذلك<sup>(٣)</sup>. كما أن الفصل "لو كان مراعٍ عندهم لكثير في كلامهم كما كثرة تقديم المنصوب على المرفوع في غير المضاف".<sup>(٤)</sup>

ثم نبه إلى أمر مهم لم يتبنته له كثير من خاص في الجدل حول بعض القراءات القرآنية، وهو أن القول بعدم جواز القياس في هذه الأشياء الواقعة في القرآن الكريم

(١) السابق ٤/١٨٠، ١٨١.

(٢) السابق ٤/١٨١.

(٣) انظر المقاصد الشافية ٤/١٨١، ١٨٢.

(٤) السابق ٤/١٨٢.

ليس معناه عدم مراعاة للفظ القرآن، أو إخراجه عن الفصاحة، أو نحو ذلك، كما يظن من لا تحقق له – بل هو في أعلى الدرجات في الفصاحة، لكنه لم يكثر مثله في قياس عليه، وعلى هذا بنى سيبويه والمحققون، وهو الصواب، ولكن ابن مالك رُبما أهمل هذه القاعدة، كما فعل هنا، ولعله يقع التنبية على بعض مواضع من هذا النوع إن شاء الله<sup>(١)</sup>. وقال في موضع آخر: ” واضح في أنه ليس كل ما تكلم به العرب يقياس عليه، وربما يظن من لم يطلع على مقاصد النحويين أن قولهم: شاذ، أو لا يقياس عليه..... أو ما أشبه ذلك، ضعيف في نفسه، وغير فصيح، وقد يقع مثل ذلك في القرآن فيقومون بالتشنيع على قائل ذلك، وهم أولى – لعمرُوا الله أن يُشنئَّ عليهم، ويُمال نحوهم بالتجهيل والتقبیح<sup>(٢)</sup>“. ثم بين أن النحويين لما استقرروا كلام العرب ليقيموا منه قوانين يحدى حذوها وجدوه على قسمين:

قسم شاع، وكثير استعماله، وكثرة نظائره، ولم يعارضه معارض، فأعملوه بإطلاق، وأجروا فيه القياس.

وقسم قل، وعارضه معارض لقلته، وكثرة ما خالفه، فهنا قالوا: شاذ، أو موقوف على السمع، ” بمعنى أنا نتبع العرب فيما تكلموا به من ذلك، ولا نقيس غيره عليه..... هذا الذي يعنون لأنهم يرمون الكلام العربي بالتضعيف والتهجين – حاش لله – وهم الذين قاموا بفرض الذب عن ألفاظ الكتاب، وعبارات الشريعة، وكلام نبينا محمد – صل الله عليه وسلم – فهم أشد توقيراً للكلام العرب، وأشد احتياطاً عليه ممن يغمس عليهم بما هم منه براء<sup>(٣)</sup>“.

فالشاطبي بعد أن دافع عن القراءة، والتمس لها وجهًا في العربية، وأنها ليست لحناً، ودافع عن القاريء، وأنه متبع للأثر والسنن، وبين القواعد الأصولية المتبعة في القياس عند العرب، أصدر حكمه القاطع في المسألة محكمًا إلى كثرة السمع، فحكم بعدم جواز القياس على هذه المسألة، لعدم فصاحة الفصل، أو لأنه ليس له وجه في القياس، بل هو فصيح وله وجه في القياس، ولكن لقلته في السمع، فنقبله ولا نقيس عليه، إذ لو أعملنا

(١) السابق ٤/١٨٢.

(٢) السابق ٣/٤٥٦.

(٣) السابق ٣/٤٥٧.

القياس في كل ما سمع عن العرب لاختلت قوانين كثيرة، بل لما كان للغة قواعد يحتمل إليها، ولفسدت اللغة: فالمعايير التي احتمل إليها الشاطبي في الاستشهاد بالقراءات القرآنية هي:

- ١- لا يقاس إلا على: ما شاع، وكثير استعماله، وكثير نظائره، ولم يعارضه معارض.
- ٢- يصح القياس على ما لم يشفع ولم يكثر بشرط ألا يعارضه معارض من القياس.
- ٣- إذا تكادف السمعان في الكثرة صح القياس على كل واحد منهمما – وإن كانا متعارضين في الظاهر.
- ٤- إذا قلت إحدى اللغتين عن الأخرى في الكثرة جاز القياس على كل واحدة منها، إلا أن تضعف جداً فلها حكمها.
- ٥- ما كان له معارض توقفوا في القياس عليه، ووقفوه على محله، إذا كان المعارض مقيساً.
- ٦- لا يجوز القياس على القليل أو الشاذ أو النادر، ولكنه يقبل ويوقف فيه على السمع.
- ٧- العلة إذا وجدت ووجه القياس إذا ظهر لا يعتبر إلا مع شياع السمع، أو كونه في قوة الشائع لعدم المعارض.
- ٨- ما جاء في القراءات القرآنية شاداً ومصادماً لما شاع في كلام العرب يجب قبوله، وهو في أعلى درجات الفصاحة إلا أنه لا يجوز القياس عليه لقلته في كلامهم.

وهذه المعايير هي التي نص عليها الأصوليون في كتبهم، واتبعها النحاة الأوائل في أقيساتهم، يقول ابن الأنباري: "لو طردننا القياس في كل ما جاء شاداً مخالفًا للأصول والقياس، يجعلناه أصلاً، لكن ذلك يؤدي إلى أن تخالط الأصول بغيرها، وأن يجعل ما ليس بأصل أصلاً، وذلك يفسد الصناعة بأسرها، وذلك لا يجوز"<sup>(١)</sup>.

## ٢- الاستشهاد بالأحاديث الشريفة<sup>(٢)</sup>:

لعل الناظر إلى هذه القضية يتذمّر إلى ذهنه أن أولى ما يجب أن يستشهد به بعد كلام

(١) الانصاف ٤٥٦/٢.

(٢) انظر الاقتراح ١١، والجزانة ٩/١، والحديث النبوى في النحو العربي ١٠١ وما بعدها.

الله - سبحانه وتعالى - هو كلام نبيه - صلى الله عليه وسلم - فكما أن السنة النبوية هي الأصل الثاني بعد القرآن الكريم في التشريع الإسلامي. فكذا يجب أن تكون في الاستشهاد اللغوي. إلا أن النهاة الأولى لم يكثروا من الاستشهاد بالحديث. لا لعدم اعتبار كلامه صلى الله عليه وسلم في حيز الفصاحة - بل كلامه في أعلى درجات الفصاحة، والأحاديث التي تشير إلى ذلك أكثر من أن تحصي - بل لأمر آخر، يبينه لنا ابن الصانع قائلاً: "تجویز الروایة بالمعنى هو السبب عندي في ترك الأئمة کسیبویه وغيره الاستشهاد على إثبات اللغة بالحديث، واعتمدوا في ذلك على القرآن وتصريح النقل عن العرب ولو لا تصريح العلماء بجواز النقل بالمعنى في الحديث لكان الأولى في إثبات فصيح اللغة كلام النبي صلی الله علیه وسلم: لأنه أفحص العرب ...".<sup>(١)</sup> فتحرر لهم من الاستشهاد بالحديث النبوی كان لعدم ثوّقهم من أنه بلفظه صلی الله علیه وسلم، إذ قد ثبت عند علماء الحديث جواز نقله بالمعنى، لأن المهم عندهم هو المعنى، فهو الذي تقوم عليه الأحكام الشرعية؛ ولذلك نجد الحديث الواحد يروى بألفاظ مختلفة. كما أن روایة الحديث ليست حکراً على العرب دون غيرهم، فاحتمال تطرق اللحن إليه وارد.

في حين أن علماء اللغة وال نحو يهمهم اللفظ الذي تقوم عليه الأحكام اللغوية والنحوية، ولذلك وضعوا شروطاً فيمن تروي عنه اللغة. يقول الشاطبي: "فاعتنى النحويون بالاستنباط مما نقل من كلام العرب عن الثقات، وتركوا ما نقل من الأحاديث، لاحتمال إخراج الراوي لفظ الحديث عن القياس العربي، فيكون قد بني على غير أصل، وذلك من جملة تحريرهم في المحافظة على القواعد اللسانية، ولو رأيت اجتهادهم في الأخذ عن العرب، وكيفية التلقي منهم لقضيت العجب".<sup>(٢)</sup>

ثم ظهر بعد ذلك بعض النهاة الذين أكثروا من الاستشهاد بالحديث، وأجازوا أن تبني عليه القواعد النحوية، وحجتهم غلبة الظن أنه من لفظه صلی الله علیه وسلم، وعلى فرض وقوع التغيير، فإن "غايتها تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به، على أن اليقين غير شرط، بل الظن كافٍ".<sup>(٣)</sup> ومن هؤلاء السهيلي (ت: ٨١٥هـ)، وابن خروف (ت: ٩٠٦هـ)، وابن

(١) الخزانة ١٠٧.

(٢) المقاصد الشافية ٣/٤٠٢.

(٣) الخزانة ٩٧.

مالك (ت: ٦٧٢هـ)، حتى قال ابن الصائغ عن ابن خروف: "وابن خروف يستشهد بالحديث كثيراً، فإن كان على وجه الاستظهار فحسن، وإن كان يرى أن من قبله أغفل شيئاً وجب عليه استدراكه فليس كما رأى"<sup>(١)</sup>! كما أنكر أبو حيان على ابن مالك إثباته القواعد النحوية بما جاء في الأحاديث النبوية بقوله: "قد أكثر هذا المصنف من الاستدلال بما وقع في الأحاديث على إثبات القواعد الكلية في لسان العرب، وما رأيت أحداً من المتقدمين والمتاخرين سلك هذه الطريقة غيره ..."<sup>(٢)</sup>! وقال: " والمصنف قد أكثر من الاستدلال بما ورد في الآخر متعقباً - بزعمه - على النحوين، وما أمعن النظر في ذلك، ولا صحب من له التمييز، وقد قال لنا قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة وكان منمن أخذ عن ابن مالك: قلت له: يا سيدي هذا الحديث رواية الأعاجم، وووقع فيه من روایتهم ما یعلم أنه ليس من لفظ الرسول، فلم يجب بشيء"<sup>(٣)</sup>! ثم بين أبو حيان أنه بسط " القول في هذه المسألة لثلا يقول المبتدئ: ما بال النحوين يستدلون بقول العرب، وفيهم المسلم والكافر. ولا يستدلون بما روي في الحديث بنقل العدول كالبخاري ومسلم وأضرابهما؟"<sup>(٤)</sup>.

ويأتي الشاطبي كعادته ليقول قول الحق في هذه القضية بأسلوب مقنع سديد، يحتمل إلى المنطق، وينشد الصواب، فيقول: "إذا فرض في الحديث ما نُقل بلطفه، وُعرف ذلك بنصٍ أو بقرينة تدل على الاعتناء باللفظ صار ذلك المنقول أولى ما يتحقق به النحوين، واللغويون، والبيانيون، وبينون عليه علومهم"<sup>(٥)</sup>؛ ثم بين لنا الأحاديث التي يصح الاستشهاد بها، فقسم الحديث إلى قسمين:

"أحدهما: ما عُرف أنَّ المعنى به فيه نقل معانيه لا ألفاظه، فهذا لم يقع به استشهاد من أهل اللسان. والثاني: ما عُرف أنَّ المعنى به فيه نقل ألفاظه لمقصود خاص بها، فهذا يصح الاستشهاد به في أحكام اللسان العربي. كالأحاديث المنقوله في الاستدلال على

(١) السابق ١/١٠.

(٢) الاقتراب ١٧.

(٣) السابق ١٨.

(٤) السابق.

(٥) المقاصد الشافية ٢/٤٠٢.

فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup>.

وتبعه السيوطي في ذلك، إذ يقول: "وأما كلامه صلى الله عليه وسلم فيستدل منه بما ثبت أنه قاله على الألفاظ المروي، وذلك نادر جدًا...".<sup>(٢)</sup>

وبسط القول فيما يستشهد به من كلامه صلى الله عليه وسلم أحد الباحثين المعاصرين وهو السيد محمد الخضر حسين بانيا على تقسيم الشاطبي، مع شيء من التفصيل.<sup>(٣)</sup>

فالشاطبي لا يمنع الاستشهاد بالأحاديث النبوية منعًا مطلقاً، كما أنه لم يجزه جوازاً مطلقاً، وإنما أجاز الاستشهاد بما ثبت أنه بلفظه صلى الله عليه وسلم، وذلك زيادة في التحرز والاحتياط للغة، حتى لا تبني على غير أصل.

وببناء على هذا التقسيم، ونظريته في القياس والسماع، فقد اعترض على ابن مالك طريقة استشهاده بالأحاديث قائلًا: "وابن مالك - رحمه الله - لم يفصل هذا التفصيل الضوري الذي لا بد منه، فبني الأحكام على الحديث مطلقاً... فالحق أنَّ ابن مالك في هذه القاعدة غير مصيب..."<sup>(٤)</sup>، واعتراض عليه قوله بكثرة صحيء (أن) بعد (كاد) بقوله: "بني النظام قاعده في الاستشهاد بالحديث ..... وسيبويه لم يبن على ذلك. والحق مع سيبويه، وما بنى عليه النظام لا يثبت"<sup>(٥)</sup> - أي لم يثبت أنه بلفظه صلى الله عليه وسلم - وقال في موضع آخر: "وما احتاج به المؤلف جاري على طريقته، وله نظائر من هذا النوع".<sup>(٦)</sup> إلى غير ذلك من المواقف التي اعترض فيها الشاطبي على ابن مالك في طريقة استشهاده بالحديث.

فعدم الثبوت إذاً هو السبب الأساس الذي من أجله تحرز كثير من النحوين من الاستشهاد بالحديث، فالشاطبي يحتمل في اعتراضه إلى علم الأصول، إذ قد جاء فيه اشتراط الثبوت فيما يحتاج به من المسموع، يقول السيوطي بعد أن عدد مصادر السمع

(١) المقاصد الشافية .٤٠٣/٢

(٢) الاقتراح .١١

(٣) انظر أصول النحو ٥٥، والحديث النبوي في النحو العربي .١٢٨

(٤) المقاصد الشافية .٤٠٤/٢

(٥) السابق .٢٧٢/٢

(٦) السابق .١٣١/٦

الثلاثة: "فهذه ثلاثة أنواع لا بدّ في كل منها من الثبوت"<sup>(١)</sup>.

وثمة معايير أخرى غير الثبوت أشار إليها الشاطبي في اعتراضاته على ابن مالك من خلال الأحاديث التي استشهد بها، ففي استدلال ابن مالك لمذهب الكسائي على جواز جزم جواب النهي في نحو: "لا تدن من الأسد يأكلك" - بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "من أكل من هذه الشجرة فلا يقرب مسجداً يؤذنا بريح الثوم"<sup>(٢)</sup>. بجزم " يؤذنا". فمع أن ابن مالك لا يجوز الجزم في مثل ذلك، إلا أنه ذكر في شرح التسهيل بأنه قد جاء من السمع ما يصلح أن يحتج به الكسائي<sup>(٣)</sup>. قال الشاطبي: والأكثر في الرواية على إثبات الياء ..... وهذا الذي استدل به لا مقنع فيه - إذا سُلِّمَ صحة الاستشهاد بالحديث في أحكام العربية، وهي طريقة المؤلف - لندوره، ولجواز أن يكون المجزوم ثانياً بدلاً من المجزوم أولاً لا جواباً. فالصحيح ما عليه البصريون، وهو كلام العرب<sup>(٤)</sup>. فمن كلام الشاطبي نستنبط المعايير التي اعتمدتها هنا، وهي:

- ١- لا يُحتج للقاعدة النحوية بكلام له روایتان<sup>(٥)</sup>. ولذلك فقد أشار الشاطبي إلى أن الأكثر في الرواية إثبات الياء.
- ٢- لا يُحتج بالنادر. والنادر كما يقول الشاطبي لا يبني على مثله قياس<sup>(٦)</sup>. ولذلك فقد بين أن ما استدل به لا مقنع فيه لنظرته.
- ٣- الدليل متى تطرق إليه الاحتمال لا يصلح للاستدلال. وقد أشار الشاطبي إلى احتمال أن يكون المجزوم ثانياً بدلاً من المجزوم أولاً لا جواباً، فتطرق إليه الاحتمال، فلا يصلح للاستدلال.
- ٤- المعتمد في القياس اتباع صلب كلام العرب، وما هو الأكثر فيه، لأن القليل - عند الشاطبي ووفقاً للقواعد الأصولية - لا تبني عليه قاعدة. لذلك قال: "هو كلام

(١) الاقتراح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأذان / باب ما جاء في الثوم النين، ومسلم في كتاب المساجد، والإمام أحمد في مسنده ١٢/٢.

(٣) ٤٤.٤٢/٤

(٤) المقاصد الشافية ٦/٧٦.

(٥) في أصول النحو ٦٦.

(٦) انظر المقاصد الشافية ٢/٦٤.

العرب<sup>(١)</sup>.

٥ - لا يصح الاستشهاد بالأحاديث النبوية إلا بما ثبت أنه من لفظه صلى الله عليه وسلم، لاحتمال إخراج الرواية لفظ الحديث عن القياس العربي - فيكون قد بني على غير أصل - تحرياً في المحافظة على القواعد اللسانية.

### ٣ - الاستشهاد بالشعر:

اختلف النحاة حول مفهوم الضرورة الشعرية، فابن مالك يرى أنّ الضرورة هي ما لم يكن للشاعر عنه مندوحة، أمّا إن أمكنه أن يُحلّ غيره مكانه ولم يفعل ذلك - مع استطاعته - ففي ذلك إشعار بالاختيار، وعدم الاضطرار<sup>(٢)</sup>.

في حين أن الشاطبي وأكثر النحويين يرون أن الضرورة هي ما جاز أن يقع في الشعر مما لا يجوز أن يقع في النثر، سواءً كان للشاعر عنه مندوحة أم لا<sup>(٣)</sup>.

ويبدو أن ابن مالك قد نظر إلى المعنى اللغوي في تفسير (الضرورة)، ولم يراع المعنى الاصطلاحي والاستخدام الفعلي السائد بين أرباب الصناعة، لذلك فلما نجده يشير إلى بيت شعري بأن فيه ضرورة، لأن ما من ضرورة إلا وأمكّن أن يؤتى في مكانها بما ليس فيه ضرورة، ومعنى ذلك أن تلغى الضرورة من الشعر، وقد اعترض عليه أبو حيyan بقوله: "لم يفهم ابن مالك قول النحويين في ضرورة الشعر.. ففهم أن الضرورة في اصطلاحهم هو الإلقاء إلى الشيء، فقال: إنهم لا يلجهون إلى ذلك إذ يمكن أن يقولوا كذا.. فعلى زعمه لا توجد ضرورة أصلاً، لأنه ما من ضرورة إلا ويمكن إزالتها.. ونظم تركيب آخر غير ذلك التركيب، وإنما يعنون بالضرورة أن ذلك من تراكيبهم الواقعية في الشعر، المختصة به.. ولا يقع في كلامهم التثري...."<sup>(٤)</sup>. ومن هنا فقد بني ابن مالك قواعد كثيرة مخالفة لمذهب الجمهور بناءً على مذهبـه في الضرورة، من ذلك:

- جواز مجيء فعل الشرط مضارعاً والجواب ماضياً مستشهاداً بقول الشاعر:

(١) السابق ٦/٧٦.

(٢) شرح التسهيل ١/١٤٣.

(٣) انظر المكليات ٣/١٤٢، وضرائر الشعر لابن عصفور ١٢.

(٤) الأشباه والنظائر ٢/٢٠٠.

إِنْ يَسْمَعُوا سَيِّئًا طَأَرُوا بِهِ فَرَحًا  
مِّنْيٍ وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا<sup>(١)</sup>

وقول الآخر:

إِنْ تَصْرُمُونَا وَصَلَّاكُمْ وَإِنْ تَطْلُوا مَلَائِمَنَفْسَ الْأَعْدَاءِ إِرْهَابًا<sup>(٢)</sup>

قال ابن مالك: "وأكثر النحويين يخصون هذا الاستخدام بالضرورة" ثم ذكر أن قائل البيت الأول متمكن من أن يقول بدل إن يسمعوا: إن سمعوا. وقاتل الثاني متمكن من أن يقول بدل وصلناكم: نوصلكم. "فلما لم يقولوا ذلك مع إمكانه، وسهولة تعاطيه، علم أنهم غير مضطرين"<sup>(٣)</sup>. أراد أن يبين أن ذلك جائز بدليل مجئه في غير الضرورة. قال الشاطبي: "كل ما أحتاج به جاز على طريقته، وقد تقدم له نظائر من هذا النوع".<sup>(٤)</sup>  
- وأجاز توكييد النكرة إذا أفادت بناء على بعض الأبيات التي فسرها على مذهبه في الضرورة. لذلك قال الشاطبي: "وما ذهب إليه الناظم حسن لو ساعد قياسه سماع يعتد به في القياس".<sup>(٥)</sup>

- وأجاز تقديم الحال على صاحبها المجرور بحرف.<sup>(٦)</sup> فقال الشاطبي: "والصواب - والله أعلم - مع النحويين دون ابن مالك، لأنهم لم يأتوا بوجه المنع القياسي إلا بعد استقراء كلام العرب، وأنهم لم يجدوا التقديم إلا في شعر لا يجعل وحده مأخذ قياس ...".<sup>(٧)</sup>

- وأجاز وصل (آل) بالمضارع اختياراً.<sup>(٨)</sup> مستشهدًا بقول الشاعر:

مَا أَنْتَ بِالْحَكَمِ التُّرْضَ حُكْمُتَهُ وَلَا الْأَصِيلُ وَلَا ذِي الرأي وَالْجَدَلِ<sup>(٩)</sup>

وقول الآخر:

(١) البيت من البسيط لقعنب بن أم صاحب، وهو في المحتسب ٢٠٦/١. والمغني ٢/٧٧٢. وشرح التسهيل ٤٩٧. والمقاصد الشافية ٦/١٣٠.

(٢) البيت من البسيط وهو في شرح التسهيل ٤/٩١. والكافية الشافية ٢/١٥٨٦. والمقاصد الشافية ١/١٣٠.

(٣) شرح التسهيل ٤/٩٢.

(٤) المقاصد الشافية ٦/١٣١.

(٥) اللسابق ٥/١٩.

(٦) انظر شرح التسهيل ٢/٤٢.

(٧) المقاصد الشافية ٣/٤٥٥.

(٨) انظر شرح التسهيل ١/١٩٦.

(٩) من البسيط، وينسب لفرزدق وليس في ديوانه، وهو في الإنصال ٢/٥٢٠. وشرح التسهيل ١/٢٠١.

وشرح الكافية الشافية ١/٢٩٩. والمقاصد الشافية ١/٤٨٨. والخزانة ١/١٤.

يَقُولُ الْخَنَّا وَأَبْعَضُ الْعُجْمُ نَاطِقاً  
إِلَى رَبِّنَا صَوْتُ الْحِمَارِ يُجَدِّعُ<sup>(١)</sup>

وقول الآخر:

مَا كَالِيْرُوحُ وَيَغْدُو لَاهِيَا مَرَحَا  
مُشَمِّرَا يَسْتَدِيمُ الْحَزَمَ ذُورَشَدِ<sup>(٢)</sup>

قال ابن مالك: ”وعندي أن مثل هذا غير مخصوص بالضرورة، لتمكن الأول أن يقول:  
ما أنت بالحكم المرضي حكومته.

ولتمكن الثاني من أن يقول: إلى ربنا صوت الحمار يُجَدِّع

ولتمكن الثالث من أن يقول: ما من يروح ...

فإذلم يفعلوا ذلك مع استطاعته، ففي ذلك إشعار بالاختيار وعدم الاضطرار.<sup>(٣)</sup>  
واعتراض عليه الشاطبي، وذكر أنه بنى احتجاجه على ”أن الضرورة الشرعية إنما تعد  
ضرورة إذا لم يمكن تحويل العبارة إلى ما ليس بضرورة، فإن أمكن ذلك عُدت من قبيل  
ما جاء في الكلام“<sup>(٤)</sup>، ”فالخلاف أولًا جميع النحاة، وأئمَّا مبتدع لا سلف له فيه، ولا دليل  
يعضده، بل مؤد إلى انحراف نظام الكلام، وقواعد العربية“<sup>(٥)</sup>. ثم أورد الشاطبي أبياتاً  
كثيرة من شواهد العربية أجاز ابن مالك ما جاء فيها في سعة الكلام، بناء على أنها  
ليست ضرورة، وبإمكان الشاعر فيها أن يأتي في مكانها بما لا يوجد فيه ضرورة. ويني  
قواعده على ذلك. قال الشاطبي: ”وما ذهب إليه باطل من أوجه“<sup>(٦)</sup>. ثم ذكر خمسة  
أوجه:

أحدها: إجماع النحويين على عدم اعتبار هذا المتنزع، وعلى إهماله في النظر القياسي.  
ولو كان معتبراً لنبهوا عليه، وأشاروا إليه، ولم يفعلوا ذلك، فدل على أن ما خالفه باطل.  
والثاني: أن الضرورة عند النحويين ليس معناها أنه لا يمكن في هذا الموضع غير ما  
ذكر، إذ ما من ضرورة إلا ويمكن أن يعوض من لفظها غيره من الألفاظ الصحيحة الجارية

(١) من الطويل. وهو لذى الخرق الطهوي. وهو في الإنصال ٥٢٢/٢. وشرح التسهيل ٢٠١/١. وشرح الكافية الشافية ١/٢٩٩، والمقاصد الشافية ١/٤٨١، والخزانة ١/١٤.

(٢) من البسيط. وهو في شرح التسهيل ٢٠١/١.

(٣) شرح التسهيل ٢٠٢/١.

(٤) المقاصد الشافية ١/٤٨٩.

(٥) السابق ١/٤٨٩.

(٦) السابق ١/٤٩١.

على القياس المستمر، ولا ينكر هذا إلا جاحد لضرورة العقل.....

والثالث : أن الشاعر قد لا يخطر بباله إلا لفظةً ما تضمنه النطق به في ذلك الموضع إلى زيادة أو نقص أو غير ذلك، بحيث قد يتتبه غيره إلى أن يحتال في شيء يزيل تلك الضرورة .....

والرابع : أنه قد تكون للمعنى عبارتان أو أكثر، منها واحدة يلتزم فيها ضرورة إلا أنها مناسبة لمقتضى الحال، ومفصحة عنه على أوفي ما يكون، ولا مرية في أنهم في هذه الحالة يرجعون إلى الضرورة .....

والخامس : أن العرب قد تأتي الكلام القياسي لعارض زحاف، فتستطيب المزاحف دون غيره، أو بالعكس، فتركب الضرورة لذلك ....<sup>(١)</sup>.

ثم قال: " وقد تساهل ابن مالك - عفا الله عنه - في هذا الموضع، حتى أهمل ما يعتبره أهل البيان، بل زاد في ذلك إلى أن أخرج البيت بتقديره عن معناه إلى معنٍ آخر ..... وهذا مالاً مزيد عليه في التعسف، وتحريف المعنى، وقلب المقصود...<sup>(٢)</sup>. وقال: " وبالجملة فهذا المذهب من المذاهب الواهية، التي يجب ألا يلتفت إليها... ولم أر أحداً من شيوخنا الحذاق من سمعت كلامه في المسألة يرضي ما ارتضاه ابن مالك، ولا يُسلِّمه".<sup>(٣)</sup>.

وبعد عرض القضية كاملة يتضح أن ابن مالك يخالف جمهور النحوين في هذه المسألة ليظفر بالأدلة التي تؤيد المذهب الذي أداه إليه اجتهاده، حتى طوَّ الأبيات النادرة التي اعتبرها النحويون شاذة، لخروجهما عن القاعدة القياسية ومن الضرورات، اعتبرها دليلاً يقيِّم عليه ما أجازه في سعة الكلام، والدليل على ذلك تناقضه، فهو يقول بالضرورة في بعض الأبيات مع إمكان تغييره، وينفيها في أبيات أخرى، فیناقض مذهبه، فقد ذكر أن (بنات الأوبر) مماريَّدت فيه الألف واللام ضرورة في قول الشاعر:

وَلَقَدْ جَنَيْتَكَ أَكْمُواً وَعَسَافِلاً

وَلَقَدْ نَهَيْتَكَ عَنْ بَنَاتِ الْأَوْبِرِ<sup>(٤)</sup>.

فبين له الشاطبي أن بإمكانه أن يقول: (بنات أوبر)، فلا يكون فيه ضرورة على مذهبِه، فخالف ابن مالك مذهبِه في الضرورة. قال الشاطبي: "فالحاصل أن هذا الموضع جرى فيه

(١) المقاصد الشافية ٤٩١/١ - ٤٩٧.

(٢) السابق ٤٩٦/١.

(٣) السابق ٤٩٩/١.

(٤) من الكامل قائله مجهول. وهو في المقتضب ٤/٨٤، والخصائص ٢/٥٨، والمقاصد الشافية ١/٦٥.

الناظم على غير تأمل<sup>(١)</sup>.

نخلص من هذا أن المعيار الذي اعتمدته الشاطبي في كثير من اعتراضاته على ابن مالك في الاستشهاد بالشعر، والذي نص عليه هنا يتلخص في الآتي:

- كل ما جاء في الشعر مما خالف القياس فهو ضرورة سواء أكان للشاعر عنه متذوحة أم لا.

ومن خلال عرض وجهة نظر كل من الشاطبي وابن مالك فيما سبق، يتبيّن أن ابن مالك قد يُغفل - أحياناً - الاهتمام بمقاصد العرب من حيث كثرة استخدامها لبعض التراكيب، وقلة استخدامها لتراتيب أخرى. في حين أن الشاطبي تنبه إلى قصد العرب من حيث كثرة الاستخدام وقلته.

وابن مالك يقيس على ما جاء شاداً في القراءات القرآنية، أما الشاطبي فيقبله - ويحترم القراءات، لأن القراءة سنة متبعة، لا تخضع للأفضلي في اللغة، والأقياس في العربية، بل على الأثبت في الأثر - ولكن لا يقيس عليه، بل يقيس على الأكثر في الاستعمال، جاء في علم الأصول: "إذا تعارض قوة القياس وكثرة الاستعمال، قدم ما كثر استعماله".<sup>(٢)</sup>

وكذا الأحاديث الشريفة ، يقيس عليها ابن مالك مع ثبوت جواز نقل الحديث بالمعنى، ولم يثبت أن ما نقل بلفظه صلى الله عليه وسلم، وقواعد اللغة لا توضع إلا على مثبت.

أما مفهوم الضرورة عنده فقد خرق فيه الإجماع، وبنى أصوله على ما لا يصح أن يبني عليه، وخالف في بعض القواعد جمهور النحويين، وقد جاء في الأصول: "وليس البيت الشاذ، والكلام المحفوظ بأدنى إسناد حجة على الأصل المجمع عليه في كلام ولا نحو ولا فقه، وإنما يرکن إلى هذا ضعفة أهل النحو، ومن لا حجة معه..."<sup>(٣)</sup>

ولنا أن نتخيل حال اللغة لو أننا طردنا القياس في ماقبل وما كثرا ثم ما فائدة الاستقرار وبناء القواعد على ما كثرا وشاع في كلام العرب إذا كنا سنضع قاعدة أخرى على ماقبل وندر ؟

(١) المقاصد الشافية ١/٥٦٩.

(٢) الاقتراح ٧٩.

(٣) الأصول في النحو ١/١٠٥.

## ثانياً: معايير في الاحتجاج:

الاحتجاج هو الاستدلال على إثبات صحة قاعدة، أو استعمال كلمة أو تركيب بأقوال من يحتج بهم<sup>(١)</sup>. وهو لصيق الصلة بالسماع، إذ لا يحتج في اللغة إلا بما سمع عن العرب. وقد مضت معايير الشاطبي في الاحتجاج بالقراءات القرآنية، والأحاديث الشريفة، والشعر. وثمة معايير أخرى عامة تتعلق بالاحتجاج، وهي:

١ - لا يحتج للقاعدة النحوية بكلام له روایتان. وكثير من الأحاديث النبوية لها أكثر من روایة وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لذلك فقد اعترض على ابن مالك لاستدلاله ببعض الأحاديث قائلاً: "والأكثر في الرواية على إثبات الياء .."<sup>(٢)</sup>. وقد جاء "في أصول النحو" بأنه "لا يحتج للقاعدة النحوية بكلام له روایتان .... لاحتمال أن تكون الثانية هي التي قالها المتكلم ..."<sup>(٣)</sup>.

٢ - الدليل متى تطبق إليه الاحتمال فلا يصلح للاستدلال. فقد اعترض على استدلال ابن مالك على مذهب الكسائي بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أكل هذه الشجرة فلا يقرب مسجداً يؤذنا بريح الثوم" لاحتمال أن يكون المجزوم ثانياً بدلاً من المجزوم أولاً لا جواباً. كما اعترض على ابن مالك استدلاله على جواز تقديم الحال على صاحبه المجرور بحرف بقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا كَافَةً لِّلَّاتِينَ بِشِرًا وَّكَنِيرًا ﴾<sup>(٤)</sup> لاحتمال أن تكون (كافة) ليست حالاً<sup>(٥)</sup>. وقد جاء في كتب الأصول عدم صحة الاستدلال بالمحتمل، ورد أبو حيان بهذا الدليل على ابن مالك كثيراً من المسائل التي دخلها الاحتمال<sup>(٦)</sup>.

## ثالثاً: معايير في القياس:

القياس كما عرفه ابن الأنباري: "هو حمل غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه"<sup>(٧)</sup>؛ وهو معظم أدلة النحو، والمument في غالب مسائله عليه .."<sup>(٨)</sup>.

(١) انظر في أصول النحو لسعید الأفغاني ١.

(٢) المقاصد الشافية ٦/٧٦، وانظر مبحث "الاستشهاد بالأحاديث الشريفة".

(٣) ص ٦٦.

(٤) سبأ ٢٨.

(٥) انظر البحر المحيط ١/١٩٧، والاقتراح ١١٦.

(٦) انظر الاقتراح ٥٩.

(٧) الإغراب في حدل الإعراب ٤٥.

(٨) الاقتراح ٧٠.

والشاطبي شديد العناية بالقياس، فكما أنه يرى التواتر في المسائل الشرعية يفيد القطع "إذا حصل من استقراء أدلة المسألة مجموع يفيد العلم، فهو الدليل المطلوب، وهو شبيه بالتواتر المعنوي، بل هو كالعلم بشجاعة على رضي الله عنه، وجود حاتم المستفاد من كثرة الواقع الممنوعة عنهم"<sup>(١)</sup>، فكذلك يرى في الأصول النحوية أشياء كثيرة وشاعت لها معارض في كلام العرب، فهي التي يُقاس عليها، وما لم تكن كذلك فيوقف فيها على السمع، ولا يصح أن يُقاس بالقياس حتى يتبين من الاستقراء القصد إليها بكثرة مجيئها في الكلام، فإذا لم يكن ذلك، فيجب الوقوف مع السمع، لئلا ندعى على العرب ما لا نعرف"<sup>(٢)</sup>، "معنى أنا تتبع العرب فيما تكلموا به من ذلك"<sup>(٣)</sup>. ولذا فقد أخذ الشاطبي على الكوفيين وأبن مالك أنهم يقيسون على القليل والشاذ والنادر، فيقول بأن لهم "قاعدة يبنون عليها القياس مخالفة لما تقدم، وهي أنهم قد يعتبرون اللفظ الشاذ فيقيسون عليه، وبينون على الشعر الكلام من غير نظر إلى مقاصد العرب، ولا اعتبار لما كثر وقل". فمن هنا وقع الخلاف بينهم في مسائل كثيرة، والناظم قد ينحو نحوهم في مسائل كثيرة<sup>(٤)</sup>.

ويمكّنا جمع معايير الشاطبي في القياس من خلال مسائل الاعتراض، وهي:

- لا يصح القياس على القليل والشاذ والنادر. فهو يرى أن "استقراء النحوين حاكم على القياس وعدمه، وأن "ندور الاستعمال حاكم بعدم جواز القياس" فلا يقياس إلا على ما كثر نظماً ونثراً كثرة لا يمكن فيها تأويله". وأن "العلة إذا وجدت ووجه القياس إذا ظهر لا يعتبر إلا مع شياع السمع، أو كونه في قوة الشائع لعدم المعارض"<sup>(٥)</sup>. وكل ما ذكره الشاطبي موافق لما نصّ عليه الأصوليون في كتبهم؛ فقد جاء في "الاقتراح" أن شروط المقيس عليه أن لا يكون شاذًا خارجًا عن سنن القياس<sup>(٦)</sup>. وهذا الأصل يتكرر عنده في معظم مسائل الاعتراض، فقد منع تقديم الحال على صاحبه المجرور بحرف

(١) المواقفات .٢٦/١.

(٢) المقاصد الشافية .٥٩٩/٢.

(٣) السابق .٤٥٧/٢.

(٤) - السابق .٤٥٧/٣.

(٥) السابق .١٨١/٤.

(٦) انظر ص .٧٢.

لقلته في الكلام، واستشهد بكلام ابن ملكون في علة منع سببويه جواز هذه المسألة "لقلته في كلامهم فجرى ما جاء منه مجرى الأشياء الموقوفة على السمع لقلتها"<sup>(١)</sup>. كما منع القياس على ما جاء من الفصل بين المتطابقين لأنه قليل، وأن الفصل بالنسبة إلى عدمه كالمعدوم، وما جاء منه في الكلام شاذ في غاية التدور، وأن العرب لو عزموا القياس لكانوا خلقاء أن يتكلموا به، ويكثر في كلامهم كما كثُر عدم الفصل<sup>(٢)</sup>. ورد على ابن مالك جواز التعجب من غير الثلاثي نحو (افتقر) بأن ندور الاستعمال حاكم بأن هذا الفعل لا يقع على الألسنة إلا نادراً بحيث لا يعتمد العربي في بناء فعل التعجب منه.. ومنع تقدم التمييز على عامله المتصرف لأنه لم يسمع إلا نادراً وقادسه على الفاعل؛ إذ لا يصح أن يتقدم على عامله، ومنع زيادة (من) في الإيجاب، إذ لم تأت زياتها في الإيجاب إلا نادراً، فلا يصح أن يقض بالقياس حتى يتبين من الاستقراء القصد إليها بكثرة مجيئها في الكلام. كما احتج لنحاة البصرة في منع توكييد النكرة معترضاً على جواز ابن مالك بأنه إذا لم يتبع استمراره - أي كثرته - في الوضع العربي لم يصح أن يعتمد على مجرد الفائدة. وعلل عدم جواز نيابة المجرور أو الظرف أو المصدر مناب الفاعل إذا وجد المفعول به بأن السمع لم يأت بنيابة غير المفعول حال وجوده إلا قليلاً. وخير دليل على منعه القياس على القليل والشاذ والنادر هو منعه القياس على بعض ما جاء في القراءات القرآنية، محتكماً فيه إلى قلة السمع. فيقبل ولا يقياس عليه لعدم فصاحته. وأن ليس له وجه في القياس بل لقلته في السمع. ومنع القياس على ما جاء في بعض الأحاديث النبوية لن دوره وقلته في الكلام. بالإضافة إلى احتياطه لعدم صحة ثبوت لفظها عن النبي صلى الله عليه وسلم.

٢- لا يصح التعويل على اللفظة الواحدة. وهو ما أخذه على ابن مالك في مسألة تقديم الحال على صاحبه المجرور بحرف، إذ قال: "ومن عادة ابن مالك التعويل على اللفظة الواحدة تأتي في القرآن ظاهرها جواز ما يمنعه النحويون. فيجعل على فيها في الجواز. ومخالفة الأئمة ..."<sup>(٣)</sup>.

(١) المقاصد الشافية ٤٥٦/٣.

(٢) انظر السابق ٤/١٧٩، ١٨٠.

(٣) المقاصد الشافية ٣/٤٥٦.

٣- لا يصح القياس على ما جاء في الشعر لأنّه موضع ضرورة. فلا تبني عليه الأحكام وحده بل لابد من نشر شهير يضاف إليه. وقد مر بنا موقفه مع ابن مالك من الضرورة الشعرية.

٤- لا يقاس إلا على ما ثبتت صحته. لذا فقد تحرز من الاستشهاد ببعض الأحاديث النبوية لعدم ثبوت لفظتها عن الرسول صلى الله عليه وسلم. أما ما ثبت أنه من لفظه صلى الله عليه وسلم. وعرف ذلك بنص أو بقرينة تدل على الاعتناء باللفظ. فهو أولى ما يحتاج به<sup>(١)</sup>.

#### رابعاً: معاييره في الإجماع:

الإجماع: هو "إجماع نحاة البلدين: البصرة والكوفة"<sup>(٢)</sup>. وقد أجمع الأصوليون على عدم جواز مخالفة ما أجمع عليه العلماء. وأن "إجماع النحاة على الأمور اللغوية معتبر، خلافاً لمن تردد فيه، وخرقه ممنوع"<sup>(٣)</sup>. وـ"مخالفة المتقدمين لا تجوز"<sup>(٤)</sup>. وـالشاطبي يقيم وزناً لإجماع النحوين. قوله كلام نفيس فيه يدل على عنایته به، من ذلك قوله: "وَهَذِهِ إِحْدَى الْعَرَائِبِ مِنْ أَبْنَى مَالِكَ، حِيثُ خَرَجَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عَنْ حُكْمِ غَيْرِهِ، وَقَالَ مَا لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ، وَأَنْتَ تَرَى مَا فِي مَخَالِفَةِ إِجْمَاعٍ مِنْ لِزَوْمِ الْخَطَأِ لِلْمَخَالِفِ، إِذَا النَّاسُ مُجْمَعُونَ عَلَى خَطَأٍ مِنْ خَالِفِ إِجْمَاعٍ، وَعَلَى تَخْطِئَةٍ مِنْ خَطَأِهِمْ"<sup>(٥)</sup>. وقال: "الذِي يُقْطَعُ بِهِ وَلَا يُشَكُّ فِيهِ أَنَّ إِجْمَاعَ فِي كُلِّ فَنٍ شَرِعيٍّ أَصْلَهُ الْمَنْقُولُ حَجَّةٌ، لَأَنَّ إِجْمَاعَ مَعْصُومٍ عَلَى الْجَمْلَةِ، قَامَتْ بِذَلِكَ الدَّلَائِلُ الشَّرِعِيَّةُ عَلَى مَا تَقَرَّرَ فِي الْأَصْوَلِ"<sup>(٦)</sup>. وقال في موضع آخر: "فَهُذَا الَّذِي زَعَمْتَ خَرَقَ لِلْإِجْمَاعِ ... وَخَرَقَ إِجْمَاعَ مُمْتَنَعٍ، وَصَاحِبُهُ مُخْطَنٌ قَطْعًا، لَأَنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ"<sup>(٧)</sup>. وغير ذلك كثير من العبارات التي تدل على عنایته بالإجماع. وقد استدل به الشاطبي ضمن الدلائل التي استدل بها في اعتراضه على ابن مالك في جواز

(١) انظر السابق / ٤٠٢

(٢) الاقتراح

الاقتراح (٢)

#### ٤) المساعدة

(٥) المقاصد الشافية ١٩٢/٩

الساعة ٩/١٩٣ (٦)

٦٢٦ / السایه (٧)

تقديم الحال على صاحبه المجرور بحرف فقال: والصواب – والله أعلم – مع النحويين دون ابن مالك، لأنهم لم يأتوا بوجه المنع القياسي إلا بعد استقراء كلام العرب .... فالحق ما ذهبوا إليه، ومن عادة ابن مالك التعويل على اللفظة الواحدة تأتي في القرآن ظاهرها جواز ما يمنعه النحويون، فيقول عليها في الجواز، ومخالفة الأئمة ...<sup>(١)</sup>.

#### خامسًا: معايير متفرقة:

- الاستدلال بـ عدم النظير، وهو دليل على النفي حيث لم يقدم الدليل على الإثبات<sup>(٢)</sup>.
- وقد استدل به الشاطبي في مسألة تقديم الحال على صاحبه المجرور بحرف، فاعتراض على ابن مالك في جواز المسألة واستدلاله بقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا كَانَتْ لِتَائِبٍ بَشِيرًا وَكَبِيرًا ﴾ بأن لا نظير لهذه الآية الكريمة في ظاهرها<sup>(٣)</sup>.
- لا يجوز تقديم الفرع على الأصل لغير موجب.
- المشبه لا يقوى قوّة المشبه به.
- لا يصح تقديم الأضعف على الأقوى.

وقد استدل الشاطبي بهذه الأدلة مجتمعة في مسألة نيابة غير المفعول به – مع وجوده – مناب الفاعل.

وبعد هذا العرض الوافي، ومن خلال استخلاص معايير الشاطبي الأصولية من مسائل الاعتراض، وعرضها على أدلة الصناعة يمكننا أن نستنتج أسباب اعتراضات الشاطبي على ابن مالك وهي:

- ١- القياس على كل ما جاء في القراءات القرآنية من القليل والشاذ والنادر.
- ٢- الاستشهاد بالأحاديث الشريفة – دون تحريف – مع ثبوت جواز روایتها بالمعنى.
- ٣- بناء أحکام نحوية مخالفة لمذهب الجمهور بناء على مذهبه في الضرورة.
- ٤- عدم فهم مقاصد العرب فيما قل وما كثر استخدامه.
- ٥- القياس على المحتمل.

(١) السابق / ٢٤٥٥، ٤٥٦.

(٢) انظر الخصائص ١٩٧، ١١٦، والاقتراح.

(٣) ينظر المسألة الأولى من مسائل الاعتراض.

- التعميل على اللفظة الواحدة<sup>(١)</sup>.
- مخالفة الإجماع<sup>(٢)</sup>.
- الاتكال على القياس المجرد أو على حصول الفائدة، دون الاستناد إلى السمع.
- تقديم الأضعف على الأقوى، والفرع على الأصل لغير موجب<sup>(٣)</sup>.

وبعد فقد بقية كلمة حق لا بد من قولها، وهي أن الشاطبي لم يكن ينكر ابن مالك اجتهاده وتبريزه في علم النحو، بل قد أثنى عليه في غير موضع، وقال بأنه "بن هذا العلم على الاجتهاد، ولم يخلد فيه إلى حضيض التقليد ... فعل المجتهدين المبرزين، وهو واجب على من بلغ رتبة الاجتهاد، لامتناع التقليد عليه عند جمهور الأصوليين"<sup>(٤)</sup>، وأثنى عليه بأنه مشهود له بالإمامنة والتبريز في هذا العلم، وأنه ما اتبع اجتهاده، ولا قول غيره بغير دليل، لكنه أخذ عليه بأنه ينحو نحو الظاهرية، ولا يحکم القياس تحکیم غيره<sup>(٥)</sup>.  
رحم الله ابن مالك و الشاطبي، وغفر الله لنا ولهمما ولجميع المسلمين، وأخر دعونا أن  
الحمد لله رب العالمين.

\* \* \*

(١) انظر على سبيل المثال ٤٥٦/٣.

(٢) انظر على سبيل المثال ٤٥٦/٢.

(٣) انظر على سبيل المثال ٤٢/٢.

(٤) المقاصد الشافية ١٧١/٢.

(٥) انظر السابق ١٧١/٢.

## **فهرس المصادر والمراجع:**

- ائلاف النصرة في اختلاف نحاة الكوفة والبصرة. لعبد اللطيف بن أبي بكر الزبيدي. تحقيق: د. طارق الجنابي. بيروت: عالم لكتب، ومكتبة النهضة العربية. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، للشيخ حمد بن عبد الغني الدمياطي البناء، بيروت: دار الندوة الجديدة. د.ت. د.ط.
- الأدلة النحوية الإجمالية في المقاصد الشافية للشاطبي. رسالة دكتوراه للطالب عبد الرحمن ابن مردد الطلاحي. مكة لمكرمة: جامعة أمر القرى، كلية اللغة العربية. ١٤٢٣هـ.
- الأشباه والنظائر في النحو. لجلال الدين السيوطي. تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم. بيروت: مؤسسة الرسالة. الطبعة الأولى ٦٠٤هـ / ١٩٨٥م.
- الأصول في النحو. لأبي بكر بن السراج. تحقيق: د. عبد الحسين الفتني. بيروت: مؤسسة الرسالة. الطبعة الأولى ٥٠٤هـ / ١٩٨٥م.
- إعراب القرآن. لأبي جعفر النحاس، تحقيق: د. زهير غازى زاهد، بيروت: عالم الكتب، ومكتبة النهضة العربية. الطبعة الثانية ٥٠٤هـ / ١٩٨٥م.
- الإغراب في جدل الإعراب. لابن الأنباري، تحقيق: سعيد الأفغاني، دمشق: دار الفكر، الطبعة الثانية ٩١٣هـ / ١٩٧١م.
- الإفادات والإنسادات. لأبي إسحاق الشاطبي، من موقع مكتبة المصطفى الإلكترونية.
- الإفصاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب. لأبي نصر الفارقي. تحقيق: سعيد الأفغاني. بيروت: مؤسسة الرسالة. الطبعة الثالثة ٠٠٤هـ / ١٩٨٠م.
- الاقتراح. لجلال الدين السيوطي. حلب: دار المعارف. د.ت. د.ط.
- أمالى الشجري، لهبة الله بن الشجري. تحقيق: د. محمود محمد الطناحي / القاهرة : مكتبة الخانجي ، مطبعة المدنى. المؤسسة السعودية بمصر / الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين، والковفيين. لأبي البركات بن الأنباري. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد / بيروت: دار الفكر. د.ت. د.ط .

- الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، للإمام ناصر الدين أحمد بن محمد ابن المنير الإسكندرى، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لأبي محمد عبد الله جمال الدين بن هشام الأنباري، دار الفكر، الطبعة السادسة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
- تأویل مشکل القرآن، لابن قتيبة، شرحه: السيد أحمد صقر، القاهرة: دار التراث، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ / ١٩٧٣م.
- التنزيل والتمكّيل في شرح كتاب التسهيل، لأبي حيان الأندلسى، تحقيق: د. حسن هنداوى، دمشق: دار القلم، د.ت. د. ط.
- تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسى، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، ولشيخ علي محمد معوض، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد الأنصاري القرطبي، الطبعة الثانية ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م.
- الحديث النبوى في النحو العربى، د. محمود فجال، الرياض: أضواء السلف، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، لعبد القادر البغدادي، تحقيق: أ. عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
- الخصائص، لأبي الفتح بن جني، تحقيق: محمد علي النجار / بيروت: دار الهدى / الطبعة الثانية. د.ت.
- الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، د. أحمد مكي الأنصاري، مصر: دار المعارف، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.
- ديوان رؤبة بن العجاج، ضمن مجموعة أشعار العرب، تصحيح وترتيب: وليم بن الورد البروسي، بيروت: دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
- ديوان عمر بن أبي ربيعة، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م. د. ط.
- روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام، لأبي عبد الله محمد بن الأزرق الحميري الأصبهي الغرناطي، تحقيق: د. سعيدة العلمي، طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ / ١٩٩٩م.

- السبعة في القراءات، لأبي بكر بن مجاهد . تحقيق: د. شوقي ضيف، القاهرة : دار المعارف، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ.
- شرح أبيات مغني اللبيب، لعبد القادر البغدادي، تحقيق: عبد العزيز رياح، وأحمد يوسف دقاق، دمشق: دار المأمون للتراث، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٨م.
- شرح التسهيل، لجمال الدين بن مالك . تحقيق: د. عبد الرحمن السيد، القاهرة : هجر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٩٠م.
- شرح الكافية الشافية، لجمال الدين أبو عبد الله بن مالك، تحقيق: د. عبد المنعم هريدي، دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- شرح المفصل، لموفق الدين بن يعيش، تحقيق: د. أميل بديع يعقوب، مكتبة المكرمة: مكتبة عباس أحمد الباز، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
- صحيح البخاري، لأبي عبد الله البخاري . تقديم: أحمد محمد شاكر، القاهرة : دار الحديث، د.ت. د.ط.
- صحيح مسلم، لأبي الحسين بن مسلم بن الحاج، بشرح النووي، تحقيق: الشيخ خليل مأمون شيحا، بيروت: دار المعرفة الطبعة الأولى ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
- ضرائر الشعر، لابن عصفور الإشبيلي، تحقيق: السيد إبراهيم محمد، دار الأندلس، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، القاهرة: دار الريان للتراث، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.
- في أصول النحو، لسعيد الأفغاني، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م. د.ط.
- الكتاب، لسيبوه، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة : مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقوایل في وجوه التأویل، لأبي القاسم جار الله الزمخشري، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.
- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لأبي محمد مكي بن بي طالب القيسي، تحقيق: د. محى الدين رمضان، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

- الكليات، لأبي البقاء الكفوي، أعده: د. عدنان درويش، ومحمد لمصري، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- المحتسب في تبيان وجوه شواد القراءات والإيضاح عنها، تحقيق: علي النجدي ناصف وأخرين، القاهرة: لجنة إحياء التراث، ١٤٢٨هـ / د. ط.
- المساعد على تسهيل الفوائد، لبهاء الدين بن عقيل، دمشق: دار الفكر، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
- معاني القرآن، لأبي زكريا الفراء، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية ١٤٨٠م.
- معجم القراءات القرآنية، د. أحمد مختار عمر، و د. عبد العال سالم مكرم، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعرب، لجمال الدين بن هشام، تحقيق: د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دمشق: دار الفكر، الطبعة الثانية ١٤٨٤هـ / ١٩٦٤م.
- المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: أ.د. عياد الثبيتي وأخرين، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.
- مقاصد المقاصد "مقاصد الشاطبي في شرح الألفية"، أ.د. عياد الثبيتي، مكة المكرمة: مكتبة دار التراث، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.
- المقتضب، لأبي الفتح ابن جني، دراسة وتحقيق: د. أمين عبد الله سالم، دار أبو المجد للطباعة ١٩٩٢م.
- المواقف، لأبي إسحاق الشاطبي، بشرح: الشيخ عبد الله دراز، ضبط: محمد عبد الله دراز، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، د.ت. د.ط.
- التشر في القراءات العشر، لابن الجزري، تصحيح: علي محمد الضبع، القاهرة: دار الفكر، د.ت. د.ط.
- نظرية المقاصد عند الشاطبي "لأحمد الريسيوني، الدار البيضاء: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

\* \* \*



# **معالم البيان في الحديث النبوي**

د. عبدالمحسن بن عبدالعزيز العسمر  
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي - كلية اللغة العربية  
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

1  
2  
3  
4  
5  
6  
7  
8  
9  
10  
11  
12  
13  
14  
15  
16  
17  
18  
19  
20  
21  
22  
23  
24  
25  
26  
27  
28  
29  
30  
31  
32  
33  
34  
35  
36  
37  
38  
39  
40  
41  
42  
43  
44  
45  
46  
47  
48  
49  
50  
51  
52  
53  
54  
55  
56  
57  
58  
59  
60  
61  
62  
63  
64  
65  
66  
67  
68  
69  
70  
71  
72  
73  
74  
75  
76  
77  
78  
79  
80  
81  
82  
83  
84  
85  
86  
87  
88  
89  
90  
91  
92  
93  
94  
95  
96  
97  
98  
99  
100  
101  
102  
103  
104  
105  
106  
107  
108  
109  
110  
111  
112  
113  
114  
115  
116  
117  
118  
119  
120  
121  
122  
123  
124  
125  
126  
127  
128  
129  
130  
131  
132  
133  
134  
135  
136  
137  
138  
139  
140  
141  
142  
143  
144  
145  
146  
147  
148  
149  
150  
151  
152  
153  
154  
155  
156  
157  
158  
159  
160  
161  
162  
163  
164  
165  
166  
167  
168  
169  
170  
171  
172  
173  
174  
175  
176  
177  
178  
179  
180  
181  
182  
183  
184  
185  
186  
187  
188  
189  
190  
191  
192  
193  
194  
195  
196  
197  
198  
199  
200  
201  
202  
203  
204  
205  
206  
207  
208  
209  
210  
211  
212  
213  
214  
215  
216  
217  
218  
219  
220  
221  
222  
223  
224  
225  
226  
227  
228  
229  
230  
231  
232  
233  
234  
235  
236  
237  
238  
239  
240  
241  
242  
243  
244  
245  
246  
247  
248  
249  
250  
251  
252  
253  
254  
255  
256  
257  
258  
259  
260  
261  
262  
263  
264  
265  
266  
267  
268  
269  
270  
271  
272  
273  
274  
275  
276  
277  
278  
279  
280  
281  
282  
283  
284  
285  
286  
287  
288  
289  
290  
291  
292  
293  
294  
295  
296  
297  
298  
299  
300  
301  
302  
303  
304  
305  
306  
307  
308  
309  
310  
311  
312  
313  
314  
315  
316  
317  
318  
319  
320  
321  
322  
323  
324  
325  
326  
327  
328  
329  
330  
331  
332  
333  
334  
335  
336  
337  
338  
339  
340  
341  
342  
343  
344  
345  
346  
347  
348  
349  
350  
351  
352  
353  
354  
355  
356  
357  
358  
359  
360  
361  
362  
363  
364  
365  
366  
367  
368  
369  
370  
371  
372  
373  
374  
375  
376  
377  
378  
379  
380  
381  
382  
383  
384  
385  
386  
387  
388  
389  
390  
391  
392  
393  
394  
395  
396  
397  
398  
399  
400  
401  
402  
403  
404  
405  
406  
407  
408  
409  
410  
411  
412  
413  
414  
415  
416  
417  
418  
419  
420  
421  
422  
423  
424  
425  
426  
427  
428  
429  
430  
431  
432  
433  
434  
435  
436  
437  
438  
439  
440  
441  
442  
443  
444  
445  
446  
447  
448  
449  
449  
450  
451  
452  
453  
454  
455  
456  
457  
458  
459  
460  
461  
462  
463  
464  
465  
466  
467  
468  
469  
470  
471  
472  
473  
474  
475  
476  
477  
478  
479  
480  
481  
482  
483  
484  
485  
486  
487  
488  
489  
490  
491  
492  
493  
494  
495  
496  
497  
498  
499  
500  
501  
502  
503  
504  
505  
506  
507  
508  
509  
510  
511  
512  
513  
514  
515  
516  
517  
518  
519  
520  
521  
522  
523  
524  
525  
526  
527  
528  
529  
530  
531  
532  
533  
534  
535  
536  
537  
538  
539  
539  
540  
541  
542  
543  
544  
545  
546  
547  
548  
549  
549  
550  
551  
552  
553  
554  
555  
556  
557  
558  
559  
559  
560  
561  
562  
563  
564  
565  
566  
567  
568  
569  
569  
570  
571  
572  
573  
574  
575  
576  
577  
578  
579  
579  
580  
581  
582  
583  
584  
585  
586  
587  
588  
589  
589  
590  
591  
592  
593  
594  
595  
596  
597  
598  
599  
599  
600  
601  
602  
603  
604  
605  
606  
607  
608  
609  
609  
610  
611  
612  
613  
614  
615  
616  
617  
618  
619  
619  
620  
621  
622  
623  
624  
625  
626  
627  
628  
629  
629  
630  
631  
632  
633  
634  
635  
636  
637  
638  
639  
639  
640  
641  
642  
643  
644  
645  
646  
647  
648  
649  
649  
650  
651  
652  
653  
654  
655  
656  
657  
658  
659  
659  
660  
661  
662  
663  
664  
665  
666  
667  
668  
669  
669  
670  
671  
672  
673  
674  
675  
676  
677  
678  
679  
679  
680  
681  
682  
683  
684  
685  
686  
687  
688  
689  
689  
690  
691  
692  
693  
694  
695  
696  
697  
698  
699  
699  
700  
701  
702  
703  
704  
705  
706  
707  
708  
709  
709  
710  
711  
712  
713  
714  
715  
716  
717  
718  
719  
719  
720  
721  
722  
723  
724  
725  
726  
727  
728  
729  
729  
730  
731  
732  
733  
734  
735  
736  
737  
738  
739  
739  
740  
741  
742  
743  
744  
745  
746  
747  
748  
749  
749  
750  
751  
752  
753  
754  
755  
756  
757  
758  
759  
759  
760  
761  
762  
763  
764  
765  
766  
767  
768  
769  
769  
770  
771  
772  
773  
774  
775  
776  
777  
778  
779  
779  
780  
781  
782  
783  
784  
785  
786  
787  
788  
789  
789  
790  
791  
792  
793  
794  
795  
796  
797  
798  
799  
799  
800  
801  
802  
803  
804  
805  
806  
807  
808  
809  
809  
810  
811  
812  
813  
814  
815  
816  
817  
818  
819  
819  
820  
821  
822  
823  
824  
825  
826  
827  
828  
829  
829  
830  
831  
832  
833  
834  
835  
836  
837  
838  
839  
839  
840  
841  
842  
843  
844  
845  
846  
847  
848  
849  
849  
850  
851  
852  
853  
854  
855  
856  
857  
858  
859  
859  
860  
861  
862  
863  
864  
865  
866  
867  
868  
869  
869  
870  
871  
872  
873  
874  
875  
876  
877  
878  
879  
879  
880  
881  
882  
883  
884  
885  
886  
887  
888  
889  
889  
890  
891  
892  
893  
894  
895  
896  
897  
898  
899  
899  
900  
901  
902  
903  
904  
905  
906  
907  
908  
909  
909  
910  
911  
912  
913  
914  
915  
916  
917  
918  
919  
919  
920  
921  
922  
923  
924  
925  
926  
927  
928  
929  
929  
930  
931  
932  
933  
934  
935  
936  
937  
938  
939  
939  
940  
941  
942  
943  
944  
945  
946  
947  
948  
949  
949  
950  
951  
952  
953  
954  
955  
956  
957  
958  
959  
959  
960  
961  
962  
963  
964  
965  
966  
967  
968  
969  
969  
970  
971  
972  
973  
974  
975  
976  
977  
978  
979  
979  
980  
981  
982  
983  
984  
985  
986  
987  
988  
989  
989  
990  
991  
992  
993  
994  
995  
996  
997  
998  
999  
999  
1000

## **معالم البيان في الحديث النبوي**

**د. عبدالمحسن بن عبدالعزيز العسكر**

قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي

كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

### **ملخص البحث:**

يرمي هذا البحث إلى الكشف عن الخصائص البلاغية للحديث الشريف، الذي بلغ الذروة في البيان الإنساني، بدءاً من المقومات الأولى التي أفاء الله بها على نبيه صلى الله عليه وسلم من أسباب الفصاحه، ثم نظراً في الحديث نفسه، لاستجلاء ما ينطوي عليه بناؤه من سمات الكمال وأيات الجمال، ورصدًا لما دونه علماء المعانى وشرح الحديث وعلماء العلل من الصوى والمعالم البيانية التي تجلت في كلام سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وفي خطابه التشرعي خاصة، وهو الخطاب الذي جاء على سمعت من النظم لم يسبق له مثيل في تاريخ العربية.



## المقدمة :

الحمد لله على ما أفاء من الخير وهدى للإيمان، وصلى الله وسلم على عبده رسوله المؤيد بالفرقان وفصيح البيان، وعلى آله وأصحابه الذين عزّروه ونصروه باللسان والسنن، وعلى السالكين آثارهم والمتبعين لهم بإحسان.

أما بعد: فإن الله جل وعلا بحكمته البالغة وفضله قد اصطفى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم لرسالته، وخصه بكتابه، ونصبه لبيانه، ومنحه من المعجزات والخصائص ما لم يكن لأحد من الأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام، ومن ذلك ما آتاه الله من جوامع الكلم وفصيح القول، ليؤدي عن ربه، ويبلغ البلاغ المبين، والحديث النبوى هو ثانى مصدري التشريع في دين الإسلام، فهو مفصل لمجملات القرآن، ومؤكّد لما جاء به من المعانى والحكم.

ولقد اجتمعت لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام أسباب الفصاحه كلها، وانقادت له أزمة البيان، وصار حديثه على وجه الدهر بلاغة خالدة تضرب بها المثل، وحكمة سائرة تتوقف لها القلوب والمقل.

وكان حديثه طرازاً فريداً جمع بين سمو الغايات، وفخامة المعانى، ووضوح الأفكار، وجمال التعبير، مع الإيجاز وحسن الاختيار في الألفاظ.

وقد جاء هذا البحث مجلينا. ما اسطاع المعلم البيانية والخصائص البلاغية التي يقوم عليها نظم الحديث الشريف، كاشفاً اللثام عن وجوه التأثير فيه، وموقع الحسن، وقد كسرته على المباحث الآتية:

- تصدير في تعريف الحديث النبوى.
- فصاحه النبي صلى الله عليه وسلم.
- أسباب اختصاصه بالفصاحة.

- لمحات من الخصائص البلاغية في الحديث النبوى.  
- عناية البلاغيين بالحديث النبوى.

كتب في البلاغة النبوية كثير، وبقي في القوس منزع، وأرجو أن ينماز هذا البحث عن أسلافه بصحة جميع الأحاديث الشواهد التي ضمها بين دفتيره، فالحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لننهضي لو لا أن هدانا الله.

وإذا كان الأخذ بالحديث الصحيح دون الضعيف مطلباً شرعاً، فإنه مهم أيضاً في مثل هذه الدراسات، إذ تبني عليه النتائج والأحكام، وكيف تبني أحكام ونتائج على أدلة ضعيفة؟

أسأل الله أن ينفع بهذا البحث كاتبه وقارئه، إنه نعم المولى ونعم النصير.

\* \* \*

## تصدير في تعريف الحديث النبوى:

الحديث في اللغة يطلق على الخبر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (١٧) (النساء) وهو في الاصطلاح: ما أضيف إلى النبي من قول أو فعل أو تقرير. فالقول: ما صدر عنه ﷺ من الألفاظ، كقوله: ((إنما الأعمال بالنيات)) (١). والفعل: هو ما قام به النبي صلى الله عليه وسلم من أعمال، كالصلوات الخمس، وأداء مناسك الحج.

والتقرير: ما وقع من غيره عليه الصلاة والسلام باطلاعه، أو علمه، فلم ينكره. فهذا كله يسمى حديثاً ويسمى سنة. وقد أجمع المسلمون على حجية الحديث، واعتباره مصدراً تشريعياً كالقرآن، سواء بسواء، في إفادة الشرائع والأحكام في دين الإسلام (٢). قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَطِيقُ عَنِ الْمُؤْمِنِ﴾ (إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) (٣) (النجم)، وقال صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّمَا أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلُهُ مَعِي)) (٤).

في هذا الحديث إبانة عن كون السنة مما أوتيه النبي ﷺ، وأنه وحي من الله كالقرآن في التشريع، وهذا معنى المثلية مؤكداً بإنكار التفريق بينهما في المثل المضروب، وهذه المثلية "إِنْ كَانَتْ مُثْلِيَّةً تَبَيِّنُ وَتُشَرِّعُ، فَإِنَّهَا مِنْ دُونِهَا فِي الإِعْجَازِ الْبَيَانِيِّ، إِذْ إِعْجَازُ الْبَيَانِيِّ قَائِمٌ عَلَى التَّحْدِيِّ، وَهُوَ خَصِيْصَةٌ مِنْ خَصَائِصِ الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ، غَيْرُ أَنْ بِيَانَ النَّبُوَّةِ يَعْلُو كُلُّ آفَاقِ الْبَيَانِ الْبَشَرِيِّ عَلَى الإِطْلَاقِ، فَهُوَ وَحْيٌ فِي مَضْمُونِهِ وَهَدَاهُ" (٥).

وللسنة مع القرآن ثلاث حالات:

الحال الأولى: أنها تكون مقررة لما جاء في القرآن من الحكم فتفيد تأكيده. كتحريم عقوق الوالدين.

الحال الثانية: أنها تبين مبهمه، وتفصل مجمله، وتقييد مطلقه، وتخصص عمومه، وتفسر معانيه، كبيانها للصلة وأنصباء الزكاة.

الحال الثالثة: أنها تأتي بحكم جديد ليس في القرآن، كتحريم الحمر الأهلية.

(١) رواه البخاري (١) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٩٠٧) عن عمر رض.

(٢) إرشاد الفحول (١٤٧).

(٣) رواه الإمام أحمد (٧٦٧٤) وأبوداود (٤٦٠٤) عن المقدام بن معدى كرب رض، واسناده صحيح.

(٤) فقه بيان النبوة (٥) وينظر: معالم السنن للخطابي (بها مش سنن أبي داود) (٥/١٠٧).

وثر نوع رابع مختلف فيه وهو أن السنة تنسخ القرآن، وليس هذا موضع بسط الخلاف فيه.<sup>(١)</sup>

والذي نريد الكلام فيه هنا هو السنة القولية، وهي أقوال النبي ﷺ، فهذه يطلق عليها اسم الحديث، يقول الدكتور محمد عجاج الخطيب: “إذا أطلق لفظ الحديث عند الأصوليين أريد به السنة القولية، لأن السنة عندهم أعم من الحديث”<sup>(٢)</sup>.

إذا كان شرائح الحديث يبينون مراد النبي ﷺ من كلامه، والفقهاء يحددون دلالة الحكم الشرعي من وجوب وندب وغير ذلك، فإن البلاغيين يبينون كيف جاء هذا البيان، وعلى أيّ صورة من أساليب التعبير خرج، وما مظاهره وما سماته وما خصائصه.

فصاحة النبي صلى الله عليه وسلم:

والذي لا ريب فيه أنه لم يعرف في تاريخ العربية الطويل ناطق بها أفصح من محمد بن عبد الله النبي العربي الهاشمي صلى الله عليه وسلم، على كثرة بلغاء العربية، وخطبائها المصاقع، وشعاراتها والمفلقين، وهي أمة القول والبيان، لاسيما في عهدها الأول، وقد أوتى عليه الصلاة والسلام من جوامع الكلم، وعلم السنة العرب ما لا يجاريه فيه أحد سبقه، أو جاء بعده.

لقد كان الرسول ﷺ أفصح الخلق على الإطلاق، وأبلغ من أعجزت بلاغته الفصحاء على جهة العموم والاستغراف<sup>(٣)</sup>، وكان لا يقول إلا الحق، ولا ينطق إلا بالحكمة، وقد أعطى مع هذه العصمة أسمى ما يمكن أن يصل إليه البشر من فصاحه وحسن بيان.

كان حديثه عليه الصلاة والسلام مضرب المثل، وموضع الدهشة، ومحل الإعجاب من كل من سمعه، وكان لكلامه هيبة، إذ كان محكم المبن، غزير المعن، حسن العبارة، سلس الأسلوب، بلغاً يستميل النفوس، ويأخذ بمجامع القلوب، كان لتعبيره ﷺ نمط فريد، جمع بين ملاحة العبارة وتألف كلماتها وتجاذب أصواتها وشمول معناها وعمقها ودقتها، وبالجملة فقد جاء حديثه ﷺ على النمط الباهر، والنظام البديع، الذي وصفه عبد القاهر الجرجاني بقوله: ”ومنه ما أنت ترى الحسن يهجم عليك منه دفعه“.

(١) ينظر: الرسالة للشافعي (٩١) أصول الفقه لأبي زهرة (١١٢).

(٢) أصول الحديث (٢٧).

(٣) فيض نشر الانشراح (٤٤٦/١) لابن الطيب.

ويأتيك منه ما يملأ العين ضريةً، حتى تعرف من البيت الواحد مكان الرجل من الفضل،  
وموضعه من الحدق، وتشهد له بفضل المنة، وطول الباع<sup>(١)</sup>.

كان عليه الصلاة والسلام لا يتكلف في القول ولا يتضمن، سليم المنطق، وليس في  
كلامه حشو ولا سقط ولا بذاء ولا هزل ولا عوج، وإذا تكلم خشعت القلوب من جلال  
العظة، وإذا خطب انقطعت الشبه ببلاغة الحجة، وامتلأت النفوس اقتناعاً بالحقيقة،  
ورضا برأيه، وامتثالاً لأمره ﷺ، حتى أضحت هذه البلاغة النبوية دليلاً ساطعاً على صدق  
رسالته<sup>(٢)</sup>، وكان أصحابه رضي الله عنهم إذا جلسوا عنده كأنهم على رؤوسهم الطير<sup>(٣)</sup>،  
إجلالاً له، وترقباً للحديث الشريف.

لقد كان ﷺ في كلامه يتميز بأمرتين، الأولى: أنه أوضح من نطق بالضاد<sup>(٤)</sup>، والثانية: أنه  
وحي يوحى إليه من الله الذي أنزل عليه الكتاب، والفرق بين بلاغة الحديث وبلاغة القرآن  
لا يخفى على ذوي الفطر السليمة لاسيما الذين أتقنوا فنون البلاغة، وقلعوا أنظارهم في  
أساليبها المختلفة، وعرفوا كيف يضعون كل كلام بلigh في مرتبيه، وهذا التفاوت  
 الواضح بين القرآن والحديث من أصدق الشواهد على أن القرآن كتاب نزل من السماء، لا  
أنه من صنع النبي ﷺ<sup>(٥)</sup>.

لقد اصطفى الله نبيه ﷺ من خير العرب نسباً، وأكرمههم حسناً، وأرفعهم بيتاً، وكانت  
قبيلته بنو هاشم إحدى قبائل قريش، وقريش أفحص القبائل العربية، وأعزبها منطقاً،  
وأصفاها لفظاً، وهي واسطة قبائل العرب.

وعند النقاد وعلماء الحديث أن فخامة المعنى وإشراق الدبياجة وفصاحة اللفظ من

(١) دلائل الإعجاز(٨٨).

(٢) المواهب اللدنية بالمنج المحمدية (٢٢٦/٢).

(٣) ينظر: صحيح البخاري (٢٦٨٧) وصحيح ابن حبان (٧٢٠٧). وينظر: البلاغة النبوية وأثرها في النفوس. مقال في مجلة البحوث الإسلامية (١٤٩/٥).

(٤) كثير من الناس يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((أنا أوضح من نطق بالضاد)) وهو وإن كان صحيح المعنى إلا أنه لا أصل له. كما قال ابن كثير في التفسير (٤٨/١)، وقال عنه السيوطي في مناهيل الصفا (٥٢): "أورده أصحاب الغريب ولا يعرف له إسناد".

(٥) إعجاز القرآن للباقلاني (١٣٦,١٢٧) وينظر: محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لمحمد الخضر حسين (١٦٨). ومراجعات في أصول الدرس البلاغي (٢٢٤).

أمارات صحة الحديث، لأن الركيك لا يكون من كلامه، ولهم في وصف الحديث النبوى عبارات رنانة، حفظتها لنا كتب المصطلح وتراجم الرجال، فيقولون: هذا كلام صالح أن يكون من كلام النبوة<sup>(١)</sup>، وهذا الحديث خرج من مشكاة النبوة<sup>(٢)</sup>، وعليه نور النبوة<sup>(٣)</sup>، وعليه من النور والجلالة ما يشهد بصدقه<sup>(٤)</sup>، وله حلاؤه<sup>(٥)</sup>، وله ضوء كضوء النهار<sup>(٦)</sup>، وقالوا: "إن الخبر، أي الحديث، الفصيح يقدم على معارضه غير الفصيح، للعلم بأن غير الفصيح مروي بالمعنى، لأنه لو كان بلغت النبي ﷺ لكان فصيحا"<sup>(٧)</sup>. وقال الجَرِيرِي (٣٩٠ هـ)<sup>(٨)</sup>: بعد أن أورد انحرافاً لغوياً في حديث واتهم به أحد رواهـ. قال: "لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوضح العرب، وكلامه جار على أوضح الإعراب، وأعلى مراتب الصواب"<sup>(٩)</sup>، وقال أبو حيان: "تعلم قطعاً غير شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أوضح الناس، فلم يكن ليتكلم إلا بأوضح اللغات، وأحسن التراكيب، وأشهرها، وأجزلها"<sup>(١٠)</sup>.

وإذا كان العرب في الجاهلية قد بلغوا شأوا بعيداً في الفطاحة، وصار إليهم المنتهـ في المعرفة بأنواع البيان من الخطـ والرسائل والسبـ والمقفى والمنتور، وكانوا يسبـحون في بحار البلاغـة، وكان الكلام صناعتهمـ التي بها يتباـهون ويتـشدقـون، كما شهد لهم القرآن بذلكـ في قوله سبحانه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ حَسُّمُونَ﴾ (الزخرف)، وقولـه تعالى: ﴿وَئِذْرَيْهِ قَوْمًا لُّدًا﴾ (مرـيمـا)، أي شـدـيديـ الخـصـومـةـ بـالـبـاطـلـ، جـمـعـ آلـ، وقولـه عـزـ وجلـ: ﴿إِذَا ذَهَبَ لَتَّقُوْفَ سَلَّمُوكُمْ بِالْأَسْيَةِ حَدَادَ﴾ (الأحزـابـ)، فلا بدـ أنـ يكونـ الرـسـولـ

(١) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٣٥١/١).

(٢) زاد المـعاد (٦٧٧/٢).

(٣) المقترـفـ فيـ أجـوبـةـ بـعـضـ أـسـنـلـةـ الـمـصـتـلـحـ لـلـوـادـعـيـ (٩٧).

(٤) مختصر الصواعق المرسلـةـ (٣٧٩/٢).

(٥) اقتضاء الصراط المستقيمـ (٧٤٨/٢).

(٦) الكـفـاـيـةـ (٤٣١)، فـتـحـ المـغـيـثـ (١٢٨/٢).

(٧) نـثـرـ الـوـرـودـ شـرـحـ مـرـاقـيـ السـعـودـ (٦٠٩/٢).

(٨) هو أبو الفرج المعافـيـ بنـ ذـكـريـاـ الجـرـيرـيـ، نـسـبةـ إـلـىـ ابنـ جـرـيرـ الطـبـرـيـ لـأـنـهـ كـانـ يـنـتـحـلـ مـذـهـبـهـ فـيـ الـفـقـهـ.

(٩) الجـلـيسـ الصـالـحـ الـكـافـيـ (٣٧٣/١)، وـيـنـظـرـ: ضـوـابـطـ التـرجـيـحـ عـنـدـ وـقـوعـ التـعـارـضـ لـدـىـ الـأـصـوـلـيـينـ (٣٢٦)، وـمـاـ ذـكـرـ مـنـ مـرـاجـعـ فـيـ هـامـشـهـ.

(١٠) التـذـيلـ وـالـتـكـمـيلـ شـرـحـ التـسـهـيلـ اـمـخـطـوـطاـ (جـ ٥ وـرـقـةـ ١١٩ـ بـ). وـهـوـ بـنـجـوـهـ فـيـ خـزـانـةـ الـأـدـبـ لـلـبـغـادـيـ (٦٧١).

الذي يبلغهم عن ربهم، ويهدم عقائدهم الباطلة، ويقتلع شجرة الشرك من قلوبهم، لا بد أن يكون بيانه أسمى من بيانهم، ومنطقه أبلغ من منطقهم، ففصاحة اللسان لها أثر بالغ في الإقناع والإلزام بالحجية، والتوطئة لقبول الدعوة، ونفاذها إلى القلوب، وقد طلب موسى عليه السلام من الله أن يرسل معه أخاه هارون ليشد أزره، ول يكن عضدا له بفصاحة لسانه، وحسن بيته، فقال: ﴿وَأَنِّي هَرُوتُ هُوَ أَنْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَنْسِلْهُ مَعِي رَدْمًا يُصَيْقِنِي﴾ (القصص)، وكان فرعون قد كذبه ورماه بعدم الإبارة، وكان يقول: ﴿أَمْ أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (الزخرف).

ولقد أيد الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بمعجزة القرآن وحجة البيان، وآتاه الله الحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَيْكَ مَا تَمَكَّنَ تَمَكُّنًا وَكَانَ فَصِيلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ ( النساء)، وأمره الله، بعد أن أوحى إليه وألهمه، أن يخاطب قومه بالقول البليغ المؤثر، فقال سبحانه: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِتْ أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيْغاً﴾ ( النساء) أي حسن الألفاظ حسن المعاني، مشتملا على الترغيب والترهيب، فإن الكلام إذا كان هكذا عظيم وقعه في القلب<sup>(١)</sup>.

قال صاحب تفسير المنار: "في الآية شهادة للنبي صلى الله عليه وسلم بالقدرة على الكلام البليغ، وهي شهادة له بالحكمة ووضع الكلام في موضعه، وهذا بمعنى إيتاء الله تعالى نبيه داود عليه السلام الحكمة وفصل الخطاب، وما أوتي نبي فضيلة إلا وأوتي مثلها خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم عليه وعليهم أجمعين، وشهادته لله له في هذا المقام أكبر شهادة"<sup>(٢)</sup>.

ومع هذه الشهادة العظيمة من الله عز وجل فقد تتابعت كلمات العلماء وأئمة البيان والبلاغة قديماً وحديثاً في الإشادة بكلامه، وأنه كان أبلغ العرب، وأعلاهم بياناً، وأعزبهم أسلوباً، وأروعهم حكمة، وأصدقهم قولاً، وأوضحهم عبارة، وأطبعهم على البلاغة والفصاحة والبيان.

ومن حكمة الله تعالى أن صرف نبيه ﷺ عن أن يكون شاعراً، لما في الشعر من

(١) التفسير الكبير للرازي (١٦٤/١٠).

(٢) تفسير المنار (٢٣١/٥).

المبالغة والخيال<sup>(١)</sup>. ولأن الشعراء في كل واد يهيمون، كما أخبر الله عنهم، ولذا قيل: أذب الشعر أكذبه، ونبينا محمد ﷺ لا يقول إلا حقا، كما أخبر عن نفسه<sup>(٢)</sup>. والله يقول: ﴿وَمَا عَلِمْتُنَّهُ أَنْتُعْرُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ (يس: ٦٩)، ويرى القرطبي أنه ﷺ منع عليه الشعر "ثلاثاً تدخل الشبهة على من أرسل إليه، فيظن أنه قوي على القرآن بما في طبعه من القوة على الشعر"<sup>(٣)</sup>. كما لم يكن عليه الصلاة والسلام من رواة الشعر، وإن كان يستمع إلى الشعراء، ويتمثل بالشعر<sup>(٤)</sup>. وأما ماجرى على لسانه ﷺ من الكلام الموزون فهذا لا يعد شعراً، لعدم القصد إليه، كقوله عليه الصلاة والسلام: ((أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب))<sup>(٥)</sup>.

قال يونس بن حبيب (ت ١٨٢هـ): "ما جاءنا عن أحد من روائع الكلم ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم"<sup>(٦)</sup>.

وقال الجاحظ (ت ٢٥٥هـ). وهو من أئمة البيان، وأحد واضعي أصول البلاغة: "هو. أي كلام نبينا محمد عليه الصلاة والسلام. الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثير عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلف. وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا محمد<sup>(٧)</sup>: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٢٦) (ص) ... استعمل ﷺ المبسوط في

(١) فيض القدير (٣٨/٣).

(٢) رواه الإمام أحمد (٨٤٨١) و(٨٧٢٢) والترمذى في جامعه (١٩٩٠) عن أبي هريرة رض، وقال الترمذى: "حسن صحيح". وصححه الألبانى في صحيح سنن الترمذى (١٦٢١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤٨٥/١٧).

(٤) روى الإمام أحمد في مسنده (٢٥٢٣) والترمذى في جامعه (٢٨٤٨) وصححه عن شریع قال: قيل لعائشة رضي الله عنها: هل كان النبي صلى الله عليه وسلم يمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان يتمثل من شعر عبد الله بن رواحة ويقول: ((ويأتيك بالأخبار من لم تزود)) وصححه الألبانى في السلسلة الصحيحة (٢٠٥٧)، قلت: وبهذا يتبين عدم صحة ما يدعى به بعض العلماء وكثير من الأدباء من أن النبي صلى الله عليه وسلم أنشد هذا الشطر قدم فيه وأخر، وقال الحافظ في فتح الباري (٥٥/١٠): "وقد اختلف في جواز تمثيل النبي صلى الله عليه وسلم بشيء من الشعر وانشاده حاكياً عن غيره، فالصحيح جوازه".

(٥) رواه البخاري (٢٧٠٩) ومسلم (١٧٧٦) عن البراء بن عازب رض.

(٦) البيان والتبيين (١٨/٢).

(٧) الأولى أن يقول: أيها النبي، فإن الله نهى عن ندائه صلى الله عليه وسلم باسمه، ولم يناده سبحانه في القرآن إلا بوصف النبوة أو الرسالة، خصيصة له عليه الصلاة والسلام من دون سائر الأنبياء، فالأولى التأدب بأدب الله تعالى.

موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورُغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشُيد بالتأييد، ويسِّر بال توفيق، وهذا الكلام الذي ألقَ الله المحبة عليه وغضَّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلوَّة وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، ومع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يَبْدُ الخطاب الطوال بكلام القصير، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتاج إلا بالصدق، ولا يطلب الفَلَاج<sup>(١)</sup> إلا بالحق، ولا يستعين بالخِلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يَهْمِز ولا يَلْمِز، ولا يُبْطِئ ولا يَعْجِل، ولا يُسْهِب ولا يَحْصَر، ثم لم يسمع الناس بكلام قَطْ أَعْمَّ نفعاً، ولا أصدقَ لفظاً، ولا أعدلَ وزناً، ولا أجملَ مذهباً، ولا أكرمَ مطلباً، ولا أحسنَ موقعاً، ولا أسهلَ مخرجاً، ولا أفصَحَ معنى، ولا أبينَ فحوى من كلامه<sup>(٢)</sup>.

وإنما أطلت في نقل كلام أبي عثمان لما فيه من الإجاده والإفادة، ثم هو أول نص في هذا الباب تضمن عرضاً موفوراً لخصائص الحديث النبوى، من رجل صناعته تفقد الكلام، وتحسُّس مواضع الحسن فيه، وفي كلام الجاحظ إشارات للأصول البلاغية التي يخرج عليها كلام النبي<sup>(٣)</sup>، من الفصاحة، ومراعاة الأحوال، والإيجاز، وغيرها، وكأنما أحس الجاحظ نفسه بوجود من سيأخذ عليه هذا الإطناب في الثناء، فقال: "ولعل بعض من لم يتسع في العلم، ولم يعرف مقادير الكلام يظن أننا تكلينا له من الامتداح والتشريف، ومن التزيين والتجميد ما ليس عنده، ولا يبلغه قدره، كلا! والذي حرم التزييد على العلماء، وقبَّ التكُلُّف عند الحكماء، وبهُرجَ الكذَّابين عند الفقهاء، لا يظن هذا إلا من ضل سعيه"<sup>(٤)</sup>.

وقال الزمخشري (ت ٢٨٥هـ): "ثم إن هذا البيان العربي كان الله عزَّ قدرته مَحْظَه، وألقى زُدَّته على لسان محمد عليه أَفْضَلُ صلاة وأَوْفَرُ سلام؛ فما من خطيب يقاومه إلا نَكَصَ متفكِّكَ الرِّجْل<sup>(٥)</sup>، وما من مِصْقُعٍ يناهزه إلا رجع فارغ السَّجْل<sup>(٦)</sup>".

(١) الفَلَاج، بالفتح وبالتحريك: الفوز والظفر.

(٢) السابق.

(٣) متفكِّك الرجل: كناية عن العجز، وفي نسخة: الرَّجُل بالحاء المهملة، والمعنى هو.

(٤) الفائق (١١/١).

وقال أيضاً: "النبي العربي المستلٌ من سلالة عدنان، المفضلُ باللسان، الذي استخزنه الله الفصاحة والبيان"<sup>(١)</sup>.

وقال القاضي عياض (ت: ٤٥٥هـ): "وأما فصاحة اللسان، وبلاحة القول، فقد كان **ﷺ** من ذلك بال محل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع، وبراعة منزع، وايجاز مقطع، ونطاعة لفظ، وجذالة قول، وصحة معان، وقلة تكافف، أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعلم السنة العرب، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثيراً من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله، ومن تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه"<sup>(٢)</sup>.

وقول عياض: "وعلم السنة العرب" إلخ، يريد لهجات العرب ولغات القبائل المختلفة. فقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام بمقتضى عموم رسالته يخاطب عامّة الناس من أحياء العرب المتفرقة في هذه الجزيرة ويكاتبهم بإبلاغاً لدين الله، ويستقبل الوافدين منهم للإسلام، ويعرف ألسنتهم<sup>(٣)</sup>، وسمي عامّ تسع من الهجرة عام الوفود لكثرتهم وتتابعهم، فلا جرم أن يتخلل هاته المحاورات أمثلج من اللهجات العربية المختلفة، وفسر بعض العلماء **ﷺ** قوله: ((أعطيت جوامع الكلم))<sup>(٤)</sup> أنه كان يكلّم كل قبيلة بلسانها<sup>(٥)</sup>.

ومن العجيب أن اللغويين، فيما أعلم، لم يصنفوا في لغات القبائل الواردة في الحديث كما فعلوا في القرآن، حيث وضعوا في ذلك مصنفات، ومنها كتاب لغات القبائل الواردة في القرآن لأبي عبيد، وهو مطبوع.

وقال مجده الدين ابن الأثير (ت: ٦٠٦هـ): "كان رسول الله **ﷺ** أفتح العرب لساناً، وأوضحهم بياناً، وأعزبهم نطقاً، وأسدّهم لفظاً، وأبينهم لهجة، وأقومهم حجة، وأعرفهم بمواقع الخطاب، وأهداهم إلى طرق الصواب، تأييداً إلهياً، ولطفاً سماوياً.

(١) أساس البلاغة (١/ ج).

(٢) الشنفا (١/ ٩٥)، وينظر: سبل الهدى والرشاد (٢/ ٩٤).

(٣) قال الإمام الشافعي في الرسالة (٤٢): "ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبها، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسانٌ غيرُ نبيٍّ".

(٤) سيلاني تحريرجه.

(٥) الفتوحات الوهبية (٢٨).

وعنائية ربانية، ورعاية روحانية<sup>(١)</sup>.

وقال يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩هـ): "فإن كلامه صلى الله عليه وسلم . وإن كان نازلاً عن فصاحة القرآن وبلاعته . في الطبقة العليا، بحيث لا يدانيه كلام، ولا يقاربه وإن انتظم أي انتظام".<sup>(٢)</sup>.

وقال القسطلاني (ات ٩٢٣هـ): "فصاحة لسانه صلى الله عليه وسلم غاية لا يدرك مداها، ومنزلة لا يداري منتهاها، وكيف لا يكون ذلك وقد جعل الله تعالى لسانه سيفاً من سيوفه يبين عنه مراده ويدعو إليه عباده! فهو ينطق بحكمه عن أمره، ويبين عن مراده بحقيقة ذكره، أفحى خلق الله إذا لفظ، وأنصحهم إذا وعظ، لا يقول هُجراً ولا ينطق هذراً، كلامه كله يثمر علماً، ويمثل شرعاً وحكماً، لا يتقوه بشر بكلام أحڪم منه في مقالته، ولا أجزل منه في عذوبته، وخلق بمِنْ عَبَرَ عن مراد الله بلسانه وأقام الحجة على عباده ببيانه ويَبَيِّنُ مواضع فروضه وأوامره ونواهيه وزواجره أن يكون أحڪمُ الخلق تبياناً، وأفحى لهم لساناً، وأوضحهم بياناً".<sup>(٣)</sup>.

هذه بعض كلمات العلماء سقّتها التقىنا على شيء من خصائص البلاغة النبوية، وأنها المثل الأعلى للبلاغة العربية، بعد كتاب الله جل وعلا، ولم أوردها على أنها أدلة وبراهين لوجود البلاغة في الحديث، فكل صاحب ذوق وفطرة صحيحة من أبناء هذا اللسان يدرك ذلك، وكيف يُطلب الدليل في رابعة النهار على وجود الشمس! قال الصالحي (ات ٩٤٢هـ) بعد أن ساق كلام القسطلاني السابق: " وبالجملة فلا يحتاج العلم بفضحاته إلى شاهد، ولا ينكرها موافق ولا معاند"<sup>(٤)</sup>، ونقل أبوحيان في شرح التسهيل عن ابن الأعرابي (ات ٢٢١هـ) أن قوماً من الزنادقة، وهو يتطلبون على زعمهم في القرآن لحنا، فقال لهم: "ولكم! هبكم شَكَّتم في كونه نبياً، أتشكون في كونه عربياً؟"<sup>(٥)</sup>

(١) النهاية في غريب الحديث (٤/١).

(٢) الطراز (١٦٠/١).

(٣) المواهب اللدنية بالمنج المحمدية (٢٣٦/٢).

(٤) سبل الهدى والرشاد (٩٤/٢).

(٥) التذليل والتكميل شرح التسهيل (مخطوط) (ج ٥ ورقة ١١٩/ب).

## أسباب اختصاصه بالفصاحة:

علمت مما مضى ما كان عليه الصلاة والسلام من كمال الفصاحة، وجمال المنطق، ولا شك أن ثمة أسباباً تضافرت في صناعة هذا البيان الخالد ليكون آية بينة تقوم به الحجة، وتنقطع به معاذير الخلق، فمن تلك الأسباب:

١. التوفيق والإلهام: فإن الله تعالى - بكمال علمه وحكمته - اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم من خلقه وخصه بأفضل شريعة، وأنزل عليه أفضل كتاب، وفتح عليه من العلم، وأيده بالوحى، ومنحه الحكمة، وأجرها على لسانه، وفضله بجوابع الكلم، قال ﷺ: ((إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفى من بنى هاشم))<sup>(١)</sup>، فالحديث عن بلاغته صلى الله عليه وسلم حديث عن الوحي الرباني والمدد الإلهي، قال الله عز وجل: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾<sup>(٢)</sup> (النساء)، وقال سبحانه: ﴿وَذَكَرْنَاهُ مَا يُتَّقِنُ فِي يَوْمِئِنَ﴾<sup>(٣)</sup> من آيات الله وآيات الحكمة<sup>(٤)</sup> (الأحزاب)، قال المفسرون: الكتاب القرآن، والحكمة السنة<sup>(٥)</sup>، قال حسان بن عطية التابعي الجليل: "كان جبريل ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن، ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن"<sup>(٦)</sup>، وقال ابن حزم رحمة الله: "الوحى ينقسم من الله عز وجل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم على قسمين، أحدهما وحي متلو مؤلف تأليفاً معجز النظام، وهو القرآن، والثاني وحي مرói منقول غير مؤلف ولا معجز النظام ولا متلو لكنه مقوء، وهو الخبر الوارد عن رسول الله ﷺ، وهو المبين عن الله عز وجل مراده منا" ثم ذكر رحمة الله أن "القرآن والخبر الصحيح بعضها مضاف إلى بعض، وهما شيء واحد في أنهما من عند الله تعالى، وحكمهما حكم واحد في باب وجوب الطاعة لهما"<sup>(٧)</sup>.

فظهر بذلك أن السنة كالقرآن في كونها وحيا من الله، لكن القرآن ألفاظه ومعانيه

(١) رواه مسلم (٢٢٧٦) عن وائلة بن الأسعف<sup>رض</sup>.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧٧٤/٢).

(٣) رواه أبو داود في المراسيل (٣٦١) والالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٩٣/١) والخطيب في الفقيه والمتفقه (٢٦٦/١) واستناده صحيح، وذكر ابن حجر في فتح الباري (٢٩١/١٣) أن البيهقي أخرجه بسند صحيح، قلت: ولم يزل العلماء يصفون السنة بأنها وحي، وأنها منزلة من الله، وقال الشافعى: "السنة وحي يتلّ طرح التثريب (١٥/١) وينظر: الكفاية للخطيب البغدادي (٢)".

(٤) الإحکام لابن حزم (٧٣/١).

من الله، أما السنة فمعانيها من الله وألفاظها من الرسول صلى الله عليه وسلم. وظاهر أن من الحكمة في أن الله اختص نبيه بكمال الفصاحة وببلغ القول حتى يبلغ عن ربه البلاغ المبين الذي تقوم به الحجة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْنَم﴾ (النحل)، ولأن السنة مكملة للقرآن ومفسرة له، فهي منه بموضع الشرح من المتن، فوجب أن تكون بلاغة الحديث من السمو بحيث تكون وافية في تفصيل مجلدات القرآن وتبيين مبهماته.

وكان شيخنا العلامة عبد الرحمن البراك<sup>(١)</sup> قد سئل عن كلام النبي التشريعي وأنه وحي من الله تعالى، فهل تكون صياغته عليه الصلاة والسلام للحديث على وفق مراد الله، من حيث تقديم الكلام وتأخيره، وما أشبه ذلك؟

فأجاب وفقيه الله بقوله: "الحمد لله، لا رب أن ما كان يتكلم به الرسول مبلغاً عن الله شرعه يحصل به بيان مراد الله أتم بيان، لأنه أعلم الناس بمراد ربه وأقدر الناس على البيان لما يريد بيانه، وأنصح الناس للعباد، ويكتفي هذا القدر عن التقيد بحثيات الكلام، كقول السائل: "من حيث التقديم والتأخير"، ومن المعلوم أن ما كان ضرورياً للبيان فلا بد أن يراعيه المكافف بالبلاغ، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْنَم وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ (النحل)، والله أعلم"<sup>(٢)</sup>.

قال البيهقي: "فصل في بيان النبي صلى الله عليه وسلم فصاحته، قال الحليمي رحمه الله: وهذا أشهر وأظهر من أن يحتاج إلى وصفه، ولو لم يكن على ذلك دلالة سوى أن الله تعالى نصبه منصب البيان لكتابه فقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْنَم﴾ (النحل: ٤٤) لكان كافياً، فإنه لو لم يكن آتاه البيان لكتابه، ولم يرقه فيه إلى أعلى الدرجات لما رضيه لتبيين كتابه، والكشف عن معاني خطابه".<sup>(٣)</sup>

٢. ومن أسباب فصاحته صلى الله عليه وسلم كونه قرشياً، وقريش أفتح العرب بإجماع العلماء قاطبة، روى ابن فارس بسنده عن إسماعيل بن أبي عبيد الله، قال:

(١) أحد كبار العلماء المعاصرين، كان أستاذًا في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وكان من أكابر تلاميذ العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز، وقد رشحه لمنصب الإفتاء فاستعن.

(٢) مجموع الفتاوى (مخطوط) (٣٤/٢).

(٣) الجامع لشعب الإيمان (٣١٧/٢)، وقد تصرف البيهقي قليلاً في نص الحليمي، ينظر: المنهاج (٧٧/٢).

"أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً أفسحَ العربُ ألسنة، وأصفاهم لغة، وذلك أن الله جل ثناؤه اختارَهم من جميع العرب، واصطفاهم، واختار منهم نبي الرحمة محمدًا، فجعل قريشاً قُطْنَ حَرَمَه، وجيران بيته الحرام، وولاته، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم... وكانت قريش، مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقّة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم، وأصفي كلامهم، فاجتمع ما تخروا من تلك اللغات إلى سلائفهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفسحَ العرب، ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنونة تميم<sup>(١)</sup>، ولا عَجْرَفِية قيس<sup>(٢)</sup>، ولا كَشْكَشَةً أسدًا<sup>(٣)</sup>، ولا كَسْكَسَةً ربيعة<sup>(٤)</sup>، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس، مثل: تعلمون ونعلم<sup>(٥)</sup>.

وقال أبو نصر الفارابي: "كانت قريش أجود العرب انتقاداً<sup>(٦)</sup> للأفسح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنتها مسموعاً، وأبینَها إبانةً عمماً في النفس"<sup>(٧)</sup>. ٣. ومن أسباب فصاحته استرضاعه ونشأته في بني سعد بن بكر، حيث أقام بين ظهرانيهم أربعَ سنين<sup>(٨)</sup>، وكانت عادةً أشراف العرب استرضاعَ أبنائهم في الباية ليكون ذلك أنجَبَ للولد، وأصح للبدن، وأصفي للذهن، وأبعد عن الوخم والكسيل، "وأدرج أن لا يفارق الهيئة المَعَدِّية"<sup>(٩)</sup>: ثم ما يجده الصبي بعد ذلك إثر مثافنته للأعراب، من استقامة لسانه بالفصيح من الكلام، والسلامة من اللحن، والبراءة من الهُجنة، قال صل

(١) العنونة: جعل الهمزة المبدوع بها عيناً، فيقولون في إنك: عنك.

(٢) العجرافية: التغفر في الكلام.

(٣) الكَشْكَشَة: إبدال كاف الخطاب في المؤنث شيئاً، فيقولون: علیش في عليك، ومنهم من يضيف شيئاً بعد الكاف.

(٤) الكَسْكَسَة: جعل سين بعد كاف الخطاب في المذكر، أو جعل سين مكانها. ينظر: فقه اللغة لابن فارس (٢٣) المزهر (٢١/١) تاج العروس (٨/١).

(٥) فقه اللغة (٢٣) وينظر: مجالس ثعلب (٨/١) المزهر (٢١/١).

(٦) كذا، ولعلها: انتقاءً.

(٧) المزهر (٢١/١) وعزاه إلى كتابه الحروف، ولم أجده فيه بتحقيق محسن مهدي.

(٨) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأ忒لية (١١٩/١).

(٩) الروض الأنف (٢/١٦٦). والمعدية نسبة إلى قبيلة عاد، وهو قوم أشداء أجلاد.

الله عليه وسلم: ((وَاسْتَرْضَعْتُ فِي بْنِي سَعْدٍ))<sup>(١)</sup>، وبنو سعد بطن من علية هوازن، من عدنان، قال أبو عمرو بن العلاء: "أفصح العرب علية هوازن وسفلى تميم"<sup>(٢)</sup>، ثم ترعرع بعد ذلك فيبني هاشم وإخوانهم من القرشيين، وعند أخواله منبني زهرة، ثم تزوج فيبنيأسد، ثم هاجر إلى الأوس والخرزج، وكل هؤلاء سادة فصحاء، وهم أخلص القبائل لسانا، وأذبها لهجة، والوسيلة الطبيعية لاكتساب اللغة إنما هي المنطق والمحاكاة<sup>(٣)</sup>.

٤. ومن أسباب فصاحته عليه الصلاة والسلام إنزال القرآن العظيم عليه، وهو البالغ مرتبة الإعجاز، والكتاب الذي أحكمت آياته، وفصلت كلماته، وخرقت بلاغته عادة العرب، فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، فكان لهذا الكتاب أثر في سمو فصاحته حيث تأدب بآدابه وتتأثر بأساليبه، وإذا كان المسلم أيّاً كان، يقرأ القرآن ويحفظ شيئاً منه ويستعين بهذه القليل، فيضيء كلامه، وتسمو أساليبه على أساليب الناس، ويعلو بيانه على بيان الآخرين، فكيف إذا كان ذلك مع الموحى إليه به؟ وإن من أدلة الدلائل على ذلك اقتباساته من القرآن، كقوله عليه الصلاة والسلام يوم خير: ((الله أكبر! خربت خيراً إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المندرين))<sup>(٤)</sup>. فهذا اقتباس من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَأَلَ سَاحِرُونَ فَمَاءَ صَبَّاحُ الْمُنْدَرِينَ﴾ (الصفات)، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله : ((إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقته فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض))<sup>(٥)</sup>، وهذا اقتباس من قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَعْتَلُهُ كَثُنَ فَتَنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَيْرٌ﴾ (الأنفال). وأما استشهاده عليه الصلاة والسلام بالقرآن فكثير، ومنه ما جاء في حديث علي قال: كنا جلوسا عند النبي فقال: ((ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقدنه من النار)) فقلنا: يا رسول الله، أفلأنت كل؟

(١) رواه ابن إسحاق - كما في سيرة ابن هشام (١/٢١٩) - قال ابن كثير في البداية والنهاية (٢/٢٩٩): "إسناده جيد وقوى".

(٢) فقه اللغة (٤١) المزهر (١/٢١١).

(٣) إعجاز القرآن للرافعي (٣٧٠) وهي الرسالة (٣/٨١).

(٤) رواه مسلم (٦٢٨).

(٥) رواه الترمذى (٤٦٨٠) وابن ماجه (١٦٧) وصححه الألبانى في السلسلة الصحيحة (٢٢١٠) وصححه سنن الترمذى (٦٢٨).

فقال: ((اعملوا فكل ميسرا)). ثم قرأ: ﴿فَمَنْ أَعْطَنِي وَأَنْقَرَهُ وَصَدَّقَ إِلَّا هُنَّ﴾ (٦) إلى قوله: ﴿فَسَيِّرُوهُ لِيَعْرِيَ﴾ (٧) (الليل) (١).

إن كل هذه الأسباب قد اجتمعت لتصوغ بعد ذلك أذب بيان إنساني، وأصدق حكمة، في أجل لغة وأسمها، فانتظرم في لسانه عليه الصلاة والسلام "طبع الصافي والتأيد الإلهي" (٢). قال ابن حزم رحمه الله: "تَالله لَقَدْ كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَلَّبِ بْنِ هَاشِمٍ قَبْلَ أَنْ يَكْرِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالنَّبُوَّةِ، وَأَيَامَ كُونِهِ فِي بَمَكَةَ، بِلَا شَكٍّ عِنْدَ كُلِّ ذِي مُسْكَنٍ مِّنْ عَقْلٍ = أَعْلَمَ بِلُغَةِ قَوْمِهِ وَأَفْصَحَ فِيهَا، وَأَوْلَى بِأَنْ يَكُونَ مَا نَطَقَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ حِجَّةً مِّنْ كُلِّ حِنْدِفٍ وَقِيسِي وَرِبِيعِي وَإِيادِي وَتَمِيمِي وَقَضَاعِي وَحِمِيرِي" (٣)، فكيف بعد أن اختصه الله تعالى للنذر (٤)، واجتباه للوساطة بينه وبين خلقه، وأجرى على لسانه كلاماً، وضمِّنَ حفظه، وحفظ ما يأتي به" (٥).

#### لمحات من الخصائص البلاغية في الحديث النبوى:

ثمة خصائص بلاغية ومعالم بيانية كثيرة يجدها المطالع المتأنل في حديثه صلى الله عليه وسلم، وقد يسر الله تدوين شيء منها بعد النظر في الحديث الشريف نفسه، وبعد مراجعة كلام أهل العلم والكتابين في بلاغة الحديث النبوى، ويمكن تصنيف هذه الخصائص إلى نوعين، أحدهما: خصائص تتعلق بلغة الحديث نفسه وبنائه التركيبى، أي بنظمه، والثانى: خصائص لا تتعلق بلغة الحديث وبنائه، بل هي من خارج الحديث ولكنها من متممات الفحاحاة، وإلى تفصيل ذلك:

#### أولاً: الخصائص المتعلقة بلغة الحديث وبنائه:

١. مراعاة أحوال المخاطبين، فقد كان النبي ﷺ يخاطب كل أحد بما يناسب حاله وإدراكه وواقعه، ويراعي المقامات والمواقف، وقد يزيد في جواب السائل بأكثر مما سأله، وقد يكرر كلامه ثلاثاً، ويؤكده بالمؤكّدات من القسم وغيره، تبعاً لأحوال

(١) رواه البخاري (٤٦٤) ومسلم (٢٦٤٦) (٧). وينظر: الاقتباس أنواعه وأحكامه (٦٧).

(٢) ضوء الصباح (مخطوط) (١٣).

(٣) يزيد: من كل عربي.

(٤) في القاموس (نذر): "النذر: الإنذار كالنذر بالكسر. وهذه عن الإمام الشافعى". قلت: وينظر: الرسالة (١٤).

(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل (١٩٣/٣).

المخاطبين، والبلاغيون يقولون: إن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحتها، ومن شواهد ذلك مارواه أنس رض أن النبي صل قال لمعاذ رض وكان ردifice على الرجل: ((يا معاذ بن جبل)). قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: ((يا معاذ)) قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثلثا، قال: ((ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار)). قال معاذ: يا رسول الله، ألا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: ((إذا يتكلوا))<sup>(١)</sup>. فكرر النبي صل نداءه لمعاذ ليُقبل إليه بكمال سمعه لتلقي هذا الخبر المهم، والبشاررة العظيمة، وهو أن من حرق التوحيد حرمه الله على النار، وأدخله الجنة، مع قيامه بالعمل وما أوجبه الله من الفرائض، وقد خص النبي صل معاذا بهذا الخبر لفطنه وعلمه، ولأن مثله لا يمكن أن يدع العمل، وقد بُوَّب البخاري في صحيحه على الحديث فقال: ”باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا“، قال شارحه العيني: ”مطابقة الحديث للترجمة من حيث المعنى، وهو أنه خص معاذا بهذه البشاررة العظيمة دون قوم آخرين مخافة أن يقصروا في العمل متخلين على هذه البشاررة“<sup>(٢)</sup>، ولكن معاذا رض أخبر بها عند موته تأثما، كما جاء في الخبر نفسه، أي خروجا من الإثم بكتم العلم.

وقد أخذ الصحابة رض بهذا المنهج النبوي في خطاب الناس على قدر فهومهم وأحلامهم، فهذا ابن مسعود رض يقول: ”ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة“<sup>(٣)</sup>، وقال علي رض: ”حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله صل“<sup>(٤)</sup>.

ومن مراعاته رض للمخاطبين تنوع حديثه رض في فضائل الأعمال، فمرة جعل أفضلها الصلاة وبر الوالدين<sup>(٥)</sup>، ومرة جعل أفضلها الإيمان بالله ورسوله<sup>(٦)</sup>.

(١) رواه البخاري (١٢٨) ومسلم (٣٢).

(٢) عمدة القاري (١٧٦/٢).

(٣) رواه مسلم في المقدمة (١١/١).

(٤) رواه البخاري معلقا بصيغة الجزم (١٢٧).

(٥) رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٨٥) عن ابن مسعود رض.

(٦) رواه البخاري (١٧) ومسلم (٨٣) عن أبي هريرة رض.

وقال مرة: ((اذكر الله))<sup>(١)</sup>، في أحاديث أخرى، ويدرك الشرح أن هذا "الاختلاف بالنظر إلى اختلاف أحوال المخاطبين فمنهم من يكون الأفضل له الاشتغال بعمل ومنهم من يكون الأفضل له الاشتغال بأخر، والله أعلم"<sup>(٢)</sup>.

ومن هذا أيضاً وصيحة النبي ﷺ لكل رجل بما يناسب حاله، فقد أتاه رجل فقال: أوصني يارسول الله، قال: ((لا تغضب))<sup>(٣)</sup>، وينقل ابن حجر عن بعض العلماء قوله: "لعل السائل كان غضوباً" ثم يقول: "وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر كل أحد بما هو أولى به، فلهذا اقتصر في وصيته له على ترك الغضب"<sup>(٤)</sup>، وبهذا يندفع ما يورد من إشكال، وهو لم لم يوصه النبي صلى الله عليه وسلم بما هو أعلى من ذلك، كتفوي الله، أو الإيمان بالله.

ومن شواهد ذلك أيضاً في السنة أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: أوصني، فقال له عليه الصلاة والسلام: ((لاتسبّن شيئاً)) أو قال: ((أحداً)). شك الحكم. قال: "فما سببت بغيرها ولا شأة من ذكري روسلي الله" <sup>(٥)</sup>، وقالت امرأة: "أوصني يارسول الله". قال: ((إياكِ وما يسوء الأذن))<sup>(٦)</sup>، وجاءه رجل فقال: يا رسول الله أريد أن أسافر فأوصني، قال عليه الصلاة والسلام: ((عليك بتقوى الله والتکبير على كل شرف)) فلما أن ولَّ الرجل قال: ((اللهم ازوْلْه الأرض، وهوْنْ عليه السفر))<sup>(٧)</sup>.

ومما يدخل في مراعاة النبي ﷺ للأحوال ما ذكره العلامة ابن القيم رحمه الله بقوله: "كان ﷺ يكره أن يستعمل لفظ الشريف المصنون في حق من ليس كذلك. وأن

(١) رواه أحمد (٢١٧٠٢) و٢١٧٠٤ والترمذى (٣٣٧٧) عن أبي الدرداء <sup>رض</sup>، واستناده صحيح.

(٢) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢١٨/٢) شرح الموطأ للزرقاني (٢٨٦/٢) طرح التثريب (٢١٦/٥).

(٣) رواه البخاري (٥٧٦٥).

(٤) فتح الباري (٥٢٦/١٠) وينظر: شرح الأربعين النووية لابن عثيمين (١٨٣).

(٥) رواه الإمام أحمد (١٦٦١٦) عن أبي تميمة <sup>رض</sup>، وقال محققته: "حديث صحيح".

(٦) رواه الإمام أحمد (١٦٧٠١) واستناده حسن، وأعلاه محقق المسند بجهالة حال العاص بن عمرو، وال الصحيح قبول روایته إذ لم يُنْقُلْ فيه جرح، ولذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٥/٨): "فيه العاص بن عمرو، وهو مستور، وبقية رجاله رجال الصريح". قال السندي في حاشية المسند (٤١٥/٩): " قوله: ((وما يسوء الأذن)) أي الكلام القبيح الذي تتأذى به الأذن". وينظر: رعاية حال المخاطب في الصحيحين (٣٧).

(٧) رواه الإمام أحمد (٨٣١٠) والترمذى (٣٤٤٥) وحسنه، والحاكم في المستدرك (٤٤٥/١) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٢٠).

يستعمل اللفظ المهين المكرور في حق من ليس من أهله، فممنع أن يقال للمنافق: سيد، ومنع تسمية أبي جهل بأبي الحكم، وأن يقال للسلطان: ملك الملوك، أو خليفة الله، وأرشد من مسه شيء من الشيطان أن يقول: بسم الله، ولا يلعنه أو يسبه، ولا يقول: تعس الشيطان، ونحو ذلك<sup>(١)</sup>.

٢. سهولة المعاني، ووضوح الألفاظ وحسنها في كلامه ﷺ، فجمهور حديثه عليه الصلاة والسلام واضح العبارة، حلو الديباجة، مشرق المعنى، مع قوة البناء، وليس معنى هذه السهولة أن لغة الحديث هي نفسها لغة الكلام العادي، والسوقي المبتذل، بل هي اللغة المحكمة، التي توصف بقوية البناء، وجزالة المفردات، وحسن الإفهام، وكمال التأثير والمهابة، فأسلوبه ﷺ هو البلاغة القريبة البعيدة، والسهل الممتنع الذي تراه كالشمس قريباً ضوئها، بعيداً مكانها، وهذا عند البلاغاء. أجود الكلام، أعني السهل الممتنع، وهو الذي يظن كل أحد أنه يقول مثله، فإذا رأمه تعذر عليه<sup>(٢)</sup>، وبالجملة فقد جمع كلامه ﷺ بين السهولة والعذوبة والجزالة والرصانة، ولا تجد في حديثه عليه الصلاة والسلام لفظاً حوشياً غريباً، ولا كلمة خشنة متنافرة الحروف، ولا كُزَّة نابية، ولا سائر ما ينافي الفصاححة، وقد عقد ابن القيم فصلاً قال فيه: "فصل في هديه صلى الله عليه وسلم في حفظ المنطق واختيار الألفاظ" ثم قال: "كان عليه الصلاة والسلام يتخير في خطابه، ويختار لأمته أحسن الألفاظ، وأجملها، وألطفها، وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والغلظة والفحش"<sup>(٣)</sup>.

كما لا تجد في أحاديثه ﷺ شيئاً من ضعف التأليف بجميع أنواعه المعروفة عند البلاغيين، ولم يكن من همه عليه الصلاة والسلام تعقيد الكلام ولِّي الحديث، واجتلابهُ الضمائر الموهمة، ولا الإغراب، مع إحياطته بجميع اللغة، كما يقول الإمام الشافعي<sup>(٤)</sup>، بل جاء كلامه سهلاً في لغة هادئة، متبعاً عن التكلف، فكان كما قال الله له: ﴿قُلْ مَا أَنْتَ كُنْ عَلَيْكُمْ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنْتُ مِنَ النَّذَّاكِينَ﴾ (١٦) (ص).

(١) ينظر: زاد المعاد في هدي خير العباد (٢٥٢/٢).

(٢) كتاب الصناعتين (٦٧).

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (٢٥٢/٢).

(٤) الرسالة (٤٢) وينظر: فقه اللغة لابن فارس (٢٦) ومعجم مقاييس اللغة (٦١٠/٦).

كان يتكلم **فيخرج كلامه** رقراقاً عذباً، “يأخذ بمجامع القلوب، ويسبّي الأرواح”<sup>(١)</sup>، وقد وصفته أم معبد رضي الله عنها بقولها: ”حلو المنطق، فصل لائز ولا هدر، لأن منطقه خرزات نظم يتحدرن”<sup>(٢)</sup>، وأشار إلى ذلك الجاحظ بقوله المتقدم: ”ولا يُطِئ ولا يعجل، ولا يُسْهِب ولا يَحْصِر”， ومن آثار هذه السهولة وحسن الانتظام في كلامه عليه الصلاة والسلام ظهور معانيه، ووضوح مقاصده للجميع، حتى كان الناس يتتساون في فهمها، وقد قيل: ”إن الذي تجود به الطبيعة، وتعطيه النفس سهوا رهوا”<sup>(٣)</sup>. مع قلة لفظه وعدد هجائه. أحَمَدُ أَمْرًا، وأَحْسَنَ موقعاً من القلوب، وأنفع للمستمعين من كثير خرج بالكلام **والعلاج**<sup>(٤)</sup>، وقال المتنبي:

**أَبْلَغُ مَا يُطْلَبُ النَّجَاحُ بِهِ الطَّبَعُ وَعِنْدَ التَّعْمَقُ الزَّلْلُ<sup>(٥)</sup>**

وقد قيل: إن المعاني الغامضة التي يسلكها نفر من الكتاب لا تدل على العمق والقوةقدر ما تدل على العجز والعمى، لأن المعنى إذا كان واضحاً في نفس الكاتب بارز الجواب في تصوّره انقاد له اللفظ انقياداً، والعكس بالعكس<sup>(٦)</sup>.

وكان **إلى ذلك** يكره التشدّق والتفيهق والإكثار من الكلام، بل كان هو عليه الصلاة والسلام ”طويل السكوت لا يتكلّم في غير حاجة، وكان لا يتكلّم فيما لا يعنيه، ولا يتكلّم إلا فيما يرجو ثوابه”<sup>(٧)</sup>، وكان يقول: ”إن أحبكم إلىي وأقربكم مني يوم القيمة أحسّنكم أخلاقاً، وأبغضكم إلىي مساوئكم أخلاقاً، الثّثارون المتفهّمون

(١) زاد المعاد (١٨٢).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٩/٢) وصححه ووافقه الذهبي، وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢٠٩/٢): ”قصة أم معبد مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضها“.

(٣) في أساس البلاغة (٣٨٧/١): ”أناه بالشيء رهوا سهوا أي عفوا سهلاً لا احتباس فيه“.

(٤) البيان والتبيين (٤) (٢٨/٤).

(٥) ديوانه (٢٢٠/٣) قال في شرحه التبيان: ”المعن. يقول: إذا فعل الإنسان الشيء بعادته وجد النجاح فيه وإذا بالغ وتعمق وتتكلّف أخطأ وزل، وهذا من أحسن الأمثال، وهو من قول عبد القدوس: فَدَعَ التَّعْمَقَ فِي الْأَمْرِ فَإِنَّمَا قَرُبَ الْهَلَاكَ بِكُلِّ مَنْ يَتَعْمَقُ“

(٦) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري (٢١٢).

(٧) ينظر: زاد المعاد (١) (١٨٢).

المتشدقون”<sup>(١)</sup>، الثثار هو الكثير الكلام تكالفاً، والمتشدّق هو المتكلّم بملء شدقة تفاصحاً وتعظيماً لكلامه، والمتفيهق الذي يملأ فمه بالكلام ويتوسّع فيه، إظهاراً لفصاحته وفضله، واستعلاء على غيره<sup>(٢)</sup>، وقال عليه الصلاة والسلام: ”إِنَّ اللَّهَ يَبْغُضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّ بِلِسَانِهِ كَمَا تَخَلَّ بِالْبَقَرَةِ“<sup>(٣)</sup>. قال الطيبى: ”قوله: (يتخلل بلسانه) هو الذي يتشدّق في الكلام، ويفخم به لسانه، ويلفه كما تلف البقرة الكلا بلسانها، شبيه إدارة لسانه حول الأسنان والفهم حال التكلّم تفاصحاً بما تفعل البقرة بلسانها“<sup>(٤)</sup>، كما ذمَّ صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السجع المتكلّف، وأنكر على من تكلّم به فقال: ”أَسْجَعُ كَسْجَعَ الْأَعْرَابِ“، هذا لفظ مسلم<sup>(٥)</sup>، وفي رواية الشيختين: ”إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الْكَهَانِ“<sup>(٦)</sup>. زاد الراوى: ”مِنْ أَجْلِ سَجْعِهِ الَّذِي سَجَعَ“<sup>(٧)</sup>.

٣. أن كلامه صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخرج وفق فطرته المستقيمة وعلى البديهة، فكان يرمي بالكلام على السليقة من غير تكالٍفٍ ولا مراجعة ولا احتشادٍ ولا تزويق ولا تصنع، كما يفعل البلوغاء، ولا يبالغ في الخيال والمجاز، على أنه تحدث في مسائل الغيب، والجنة والنار، وأعذر وأنذر وبشر، وقص من أخبار السابقين من الأنبياء والأئمَّة الغابرة وأخبر عن مصارع الظالمين، وبسط القول في الملاحم وفتن آخر الزمان وأشراط الساعة، وغير

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٥١٥/٨) والإمام أحمد في مسنده (٤/١٩٤) وابن حبان في صحيحه (٤٨٢) عن أبي ثعلبة الخشنبي رض وقال الهيثمي: ”رواه أحمد والطبراني، ورجاله رجال الصحيح“ مجمع الزوائد (٢١/٨)، وكذا قال المنذري في الترغيب والترهيب (٤١٢/٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٦٦٢).

(٢) الترغيب والترهيب (٤١٢/٢) الكافش عن حفائق السنن (٩١/٩).

(٣) رواه الإمام أحمد (٦٥٤٣) و(٦٧٥٨) وأبوداود (٥٠٠٥) والترمذني (٢٨٥٣) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، واسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤١٨٥) وصحيح الترمذني (٢٢٨٩).

(٤) الكافش عن حفائق السنن (٩٢/٩).

(٥) رواه مسلم (٤٤٧٨) عن المغيرة بن شعبة رض.

(٦) البخاري (٥٤٢٦) مسلم (١٦٨١).

(٧) قلت: ولأن هذا المتكلّم بالسجع أراد رد حكم النبي ﷺ في دية المرأة وجنبتها بقوله: ”كَيْفَ أَغْرِمُ مِنْ لَا شَرِبَ وَلَا أَكَلَ، وَلَا نَطَقَ وَلَا اسْتَهَلَ، فَمَثَلُ ذَلِكَ يُطَلَّ“ صحيح مسلم (١١٨١)، فاجتمع في سجعه عيّبان التكالٍف ودفع الحكم الشرعي، وإلا فالسجع في أصله جائز، ولو كرهه النبي ﷺ لقال: ”أَسْجَعُ ثُمَّ سَكَتَ“.

هذا، ومع ذلك جاء حديثه وهو الغاية في الصدق والواقعية، وحسن الديباجة، وسهولة المأخذ. بل ليس فوقه مقدار إنساني من البلاغة والتسليد، قال الرافعي في كلامه على حديث الثلاثة والغار: ”أَنَا فلست أَدْرِي! أَهْذَا النَّبِيُّ يَكْتُمُ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ وَحْقَوْقَهَا بِكَلَامٍ بَيْنَ صَرِيحٍ لَا فَلْسِفَةَ فِيهِ، يَجْعَلُ مَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْإِنْسَانِ مِنَ النِّيَّةِ هُوَ مَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَرَبِّهِ مِنَ الدِّينِ، أَمْ هِيَ إِنْسَانِيَّةٌ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِهِ بِهَذَا الْبَيَانِ الْعَالِيِّ“<sup>(١)</sup>، ثم قال: ”وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَتَعْمَلُ وَلَمْ يَكْتُبْ وَلَمْ يَؤْلِفْ، وَمَعْهُ ذَرَّةٌ لَا تَجِدُ فِي بِلَاغَتِهِ عَلَيْهِ الْصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَوْضِعًا يَقْبِلُ التَّنْفِيْحَ، أَوْ تَعْرُفُ لَهُ رَقَّةً مِنَ الشَّائِنِ، كَأَنَّمَا بَيْنَ الْأَلْفَاظِ وَمَعَانِيهَا فِي كُلِّ بِلَاغَةٍ مَقْيَاسٌ وَمِيزَانٌ“<sup>(٢)</sup>.

وذكر الجاحظ في بيانه أن إخراج الكلام بالكلد والعلاج، وجمع النفس له، وحصر الفكر عليه ”لَا يَكُونُ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ السَّمْعَةَ، وَيَهُوَ التَّفْجُّعُ<sup>(٣)</sup> وَالْإِسْتَطَالَةُ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ الْمُتَنَافِسِيْنَ وَيُبَيِّنُ حَالَ الْمُتَحَاسِدِيْنَ إِلَّا حِجَابُ رَقِيقٍ وَحِجَازٌ ضَعِيفٌ، وَالْأَنْبِيَاءُ بِمَنْدُوهَةٍ مِنَ هَذِهِ الصَّفَةِ، وَفِي ضَدِّ هَذِهِ الشِّيْمَةِ“<sup>(٤)</sup>.

فهو ﷺ بنجوة من حب السمعة والاستطالة ومن قصد التكلف، مع علو بيانه الشريف الذي يصدر وكأنما هو صادر عن مراجعة وصنعة وتقدير، واقرأ في صحيحي البخاري ومسلم، وتأمل البلاغة البالغة والكلام الحكيم الذي جاء على سمت واحد وعلى بناء لغويا واحد، في تكامل عجيب، يأخذ بعضه ببعض، ويصدق أوله آخره.

وانك إذا نظرت إلى الفصحاء من الشعراء والخطباء والبلغاء المحترفين للكلام قبله وبعده عليه الصلاة والسلام، رأيتهم كيف يحتشدون لفنهم، ويجمعون قواهم العقلية وبهذبون كلامهم، ومع ذلك كله فإنهم لا يأمنون العثار، ولا يسلمون من النقد، بل يلوح على أدبهم التصنّع والتکلف، وفي شعراء العرب من لقب بعيد الشعر وأصحاب الحوليات، وهم الذين يمكثون حولاً كاملاً في نظم القصيدة الواحدة وتنقيحها، ويحللون

(١) وحي القلم (١١/٢).

(٢) السابق (١٧/٢).

(٣) التفجع: الفخر والكبر.

(٤) البيان والتبيين (٤/٢٦).

فيها عقولهم<sup>(١)</sup>، وربما نزل بهم شيء عظيم من طول التفكير وشدة العناء ورشرح الجبين، كما يقول ابن قتيبة<sup>(٢)</sup>، وكان الحطيئة يقول: خير الشعر الحوليُّ المحك<sup>(٣)</sup>، وفي علماء البيان من يوصي بالترثيث عند إنشاء الخطب والكتب وإعمال الذهن وكِّ القرحة وتبيح الكلم، كيما يستجاد، ويسلم من الزلل<sup>(٤)</sup>، ومع كل أولئك فقلما سلم الكاتب المجيد والشاعر البليغ من عيب وملاحظة، أو على الأقل لا يخلو كلام أحد منهم من ضعف في بعضه، وتفاوت في استيفاء خصوصيات الكلام التابعة لمقتضيات الأحوال واختلاف المقامات، وأما حديثه . بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه. فقد بلغ الطرف الأعلى من البلاغة على مستوى الإنسان، والطرف الأعلى من البلاغة هو مطابقة الكلام لجميع ما يقتضيه الحال، ولهذا لا تجد في حديثه تفاوتاً في البلاغة، كما لا ترى فيه تكالفاً ولا صنعة، وقد بذَ المصطفى<sup>ﷺ</sup> بحديثه الشريف وكلامه السائر مصاقع الخطباء وفحول الشعراء ومشاهير البلاغاء، ولم يكن لأحد منهم من الموهبة والقدرة ما يعينه على أن ينسج على منواله، وقد برى بيانيه من كل عيب ونقד، وكيف يتطرق إليه العيب! وهو مدد الوحي الإلهي، ونتاج الفطرة الأصلية! وقد مر بك قريباً كراحته صلى الله عليه وسلم للتراثيين المتفقهين والمتكلفين المتshدقين في الكلام.

ويذكر نقادُ الأدب في هذا العصر أنَّ أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم في الخطابة وفي مراسلاتِه إلى الأمراء والملوك ككتابه إلى هرقل، أنه أسلوب عصري متجدد، يجب أن يقتدي به المعاصرون في زماننا وفي كل زمان، لأنَّ الأسلوب الذي يخرج من الفطرة المستقيمة هو أسلوب عصري في جميع العصور<sup>(٥)</sup>.

وذكر الرافعي أنَّ أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم أسلوب منفرد، قد باع من غيره بأسباب طبيعية فيه، وأنك لا ترى فيه حرفاً مضطرباً، ولا لفظة مستكرهة على معناها، ولا كلمةٌ غيرُها أتم منها أداءً للمعنى، وتأتياً لسره في الاستعمال، وأن جهات الصنعة في

(١) السابق (٨/١)، وفيه قال الجاحظ: ”وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات.“

(٢) الشعر والشعراء (١/٨٨).

(٣) السابق (١/٧٨).

(٤) إِحْكَام صنعة الكلام (٥) المثل السائر (٢/٣٧).

(٥) عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم (١٠/١).

الكلام من اللغة والبيان والحكمة قد سلمت للنبي ﷺ على أنها، ولم تسلم بل ي Linguist غيره فقط. واللغة في النبي ﷺ فطرية، والبيان بيان أوضح الناس نشأة، وأقواهم من الذكاء والإلهام، وأما الحكمة فتلقي حكمة النبوة، وتبصير الوحي، وتأنيب الله تعالى، ثم قال: "وهذه حقيقة راهنة، دليلها الكلام نفسه بحملته وتفصيله، لا يجعلها إلا جاهلاً، ولا يغفل عنها إلا غافل، فإذا أنت أضفت إليها ما هناك، من سمو المعنى، وفصل الخطاب، وحكمة القول، ودنس المأخذ، وإصابة السر، وفصل التصرف في كل طبقة من الكلام، وما يتحقق بهذه وأمثالها من مذهبة صل الله عليه وسلم في الإفصاح، ومنحاف في التعبير، مما خص به دون الفصحاء، وكان له خاصة من عظمة النفس، وكمال العقل، ونقاوة الذهن، ومن النزعة الجيدة، وللسان المتمكن؛ رأيت من جملة ذلك نسقاً في البلاغة قلماً يتهدى في مثل أغراضه، وتساوق معانيه بل يليغ من البلوغ، إذ يجمع الحال من سر اللغة، ومن البلاغة ومن الحكمة، بعضها إلى بعض<sup>(١)</sup>.

٤. ومن ذلك اختصاصه صل الله عليه وسلم بجموع الكلم، كما قال ﷺ "فضلت على الأنبياء بست، أعطيت جوامع الكلم"، هذا أحد أفتاط مسلم<sup>(٢)</sup>، وفي المتفق عليه: ((بعثت بجموع الكلم))<sup>(٣)</sup>. قال البخاري: "جموع الكلم فيما بلغنا أنَّ الله يجمع له الأمور الكثيرة، التي كانت تُكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد والأمررين، ونحو ذلك<sup>(٤)</sup>". وقال النووي: "كلامه ﷺ كان بجموع، قليل اللفظ كثير المعانى"<sup>(٥)</sup>، وقال القرطبي عند قول أبي موسى رض: ((كان رسول الله ﷺ قد أعطى جوامع الكلم بخواتمه))<sup>(٦)</sup> قال: "يعني بالجموع: الكلمات البليغة الوجيزة الجامحة للمعاني الكثيرة، ويعني بخواتيم الكلام: أنه يختتم كلامه بمقطع وجيز بلigli، كما بدأه بمبدأ وجيز بلigli جامع، ويعني بجملة هذا الكلام - والله أعلم - : أن كلامه من مبدئه إلى خاتمته كله بلigli وجيز"<sup>(٧)</sup>، وقال أبو

(١) إعجاز القرآن (٤٢٣).

(٢) صحيح مسلم (٥٢٢) عن أبي هريرة رض.

(٣) البخاري (٢٨١٥) و(٦٦١١) ومسلم (٥٢٢) عن أبي هريرة رض.

(٤) صحيح البخاري (٦/٢٥٧٣).

(٥) المنهاج (٥/٥).

(٦) صحيح مسلم (٢٠٠١).

(٧) المفهم (٥/٢٦٨).

سلیمان الخطّابي: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجْلَ لِمَا وَضَعَ رَسُولُهُ مَوْضِعَ الْبَلَاغَةِ مِنْ وَحْيِهِ، وَنَصِبَّهُ مَنْصَبَ الْبَيَانِ لِدِينِهِ، اخْتَارَ لَهُ مِنَ الْلِّغَاتِ أَعْرِبَهَا، وَمِنَ الْأَلْسُنِ أَفْصَحَهَا وَأَبْيَنَهَا، لِيَبَاشِرَ فِي لِبَاسِهِ مَشَاهِدَ التَّبْلِيغِ، وَيَنْبُذُ الْقَوْلَ بِأَوْكَدِ الْبَيَانِ وَالْتَّعْرِيفِ، ثُمَّ أَمْدَهُ بِجَوَامِعِ الْكَلْمَنِ الَّتِي جَعَلَهَا رَدِئاً لِنَبُوَّتِهِ، وَعَلَمَا لِرَسَالَتِهِ، لِيَنْتَظِمَ فِي الْقَلِيلِ مِنْهَا عِلْمُ الْكَثِيرِ، فَيُسَهِّلَ عَلَى السَّاعِدِينَ حِفْظَهُ، وَلَا يَؤْوِدُهُمْ حَمْلُهُ، وَمِنْ تَبَعِ الْجَوَامِعِ مِنْ كَلَامِهِ لَمْ يَعْدِ بِيَانَهَا، وَقَدْ وَصَفَتْ مِنْهَا ضَرُوبًا، وَكَتَبَتْ لَكَ مِنْ أَمْثَلِهَا حُرُوفًا تَدْلِي عَلَى مَا وَرَاءَهَا مِنْ نَظَائِرِهَا وَأَخْوَاتِهَا"<sup>(١)</sup>. ثُمَّ ساقَ شَواهدَ مِنَ الْحَدِيثِ.

وَعِنْ أَبِنِ الْأَئِيرِ أَنَّ جَوَامِعَ الْكَلْمَنِ هِيَ "الْجَامِعَةُ لِلْمَعْانِيِ الْمَقْصُودَةُ عَلَى إِيْجَازِهَا وَالْأَخْتَارِهَا" قَالَ: "وَجْلَ كَلَامَهُ جَارٌ هَذَا الْمَجْرِي"<sup>(٢)</sup>.

فَتَحَصَّلُ مِنْ كَلَامِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ جَوَامِعَ الْكَلْمَنِ هِيَ الْعَبَاراتُ الْمَوْجَزَةُ الَّتِي تَحْمِلُ فِي طَبَاطِهَا مَعْانِي غَزِيرَة، إِنْ فِي الْعَقَائِدِ أَوْ فِي الْأَخْلَاقِ أَوْ فِي الْفَقْهِ أَوْ فِي غَيْرِ ذَلِكِ، وَالَّذِي هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِقَوْلِهَا: "كَانَ النَّبِيُّ يَحْدُثُ حَدِيثاً لَوْ عَدَهُ الْعَادُ لِأَحْصَاهِ"<sup>(٣)</sup>. وَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ:

وَجَوَامِعُ الْكَلْمَنِ الَّتِي فَتَحَتَ لَهُ خَصْبَتُ لَهَا الْبَلَاغَةُ وَالْحُكْمَاءُ<sup>(٤)</sup>

إِنَّ الإِيْجَازَ مِنْ مَقَامَاتِ الْبَلَاغَةِ الْعُلَيَا، وَهُوَ عُمُودُ الْبَنَاءِ الَّذِي قَامَتْ عَلَيْهِ لِغَةُ الْعَرَبِ، وَهُوَ مُتَنَافِسُهُمْ، وَالْغَايَةُ الَّتِي تَتَبَارِيُ إِلَيْهَا فَصَاحَوْهُمْ، وَقَدْ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى مَدْحِهِ، كَمَا يَقُولُ الْحَافِظَانُ أَبْنُ عَبْدِ الْبَرِ<sup>(٥)</sup> وَابْنُ حَجْرِ رَحْمَهَا اللَّهُ<sup>(٦)</sup>؛ بِيَدِ أَنَّ الإِيْجَازَ الَّذِي جَاءَتْ عَلَيْهِ تَلَكَ الْأَحَادِيثُ هُوَ إِيْجَازُ الْقِصْرِ، وَهَذَا النَّوْعُ لَا يَتَأْتِي إِلَّا لِكَبَارِ الْبَلَاغَةِ، وَلَذَا كَانَ أَعْلَى طَبَقَاتِ الْأَحَادِيثِ هُوَ إِيْجَازُ الْقِصْرِ، وَهَذَا النَّوْعُ لَا يَتَأْتِي إِلَّا لِكَبَارِ الْبَلَاغَةِ، وَلَذَا كَانَ أَعْلَى طَبَقَاتِ الإِيْجَازِ مَكَانًا، وَأَعْوَزُهَا إِمْكَانًا، وَقَدْ أَعْلَى مِنْ شَأنِهِ الْبَلَاغِيُّونَ، قَالَ الْعُلُوِّيُّ: "وَهَذَا الْقَسْمُ مِنَ الْإِيْجَازِ لَهُ فِي الْبَلَاغَةِ مَوْقِعٌ عَظِيمٌ، دَقِيقُ الْمَجْرِيِّ، صَعُوبَ الْمَرْتَقِّيِّ، لَا يَخْتَصُ بِهِ مِنْ أَهْلِ

(١) غَرِيبُ الْحَدِيثِ (٦٤/١).

(٢) الْمَثَلُ السَّائِرُ (٨٠/١).

(٣) الْبَخَارِيُّ (٣٢٧٥) وَمُسْلِمُ (٣٤٩٣).

(٤) الْفَتْوَاهُاتُ الْوَهْبِيَّةُ (٢٨).

(٥) التَّمَهِيدُ (٥/١٧٦).

(٦) فَتْحُ الْبَارِيِّ (١٠/٢٤٨).

الصناعة إلا واحد بعد واحد، ومهما عظم المطلوب قل المساعد<sup>(١)</sup>، والفرق بين إيجاز القصر وإيجاز الحذف أن الكلام القليل إن كان بعضاً من كلام أطول منه فهو إيجاز حذف، وإن كان كلاماً يعطي معنى أطول منه فهو إيجاز قصر<sup>(٢)</sup>.

قلت: إن إيجاز القصر لا يكون في كلام البلاغة إلا قليلاً، بل قال ابن الأثير: إنه لا يوجد في كلامهم إلا شاداً أو نادراً<sup>(٣)</sup>. وأقول: إنه وجد كثيراً في حديث النبي ﷺ، وذلك معلوم مشهور.

ومما جاء على إيجاز القصر قوله ﷺ: ((إذا لم تستح فاصنف ما شئت))<sup>(٤)</sup>، وقوله ﷺ: ((المستشار مؤمن))<sup>(٥)</sup>، وقوله ﷺ: ((دع ما يربيك إلى ما لا يربيك))<sup>(٦)</sup>، وقوله ﷺ: ((الخروج بالضمان))<sup>(٧)</sup>، قوله ﷺ: ((لا ضرر ولا ضرار))<sup>(٨)</sup>، والحديثان الأخيران جعلاً قاعدةً فقهية كبيرة، خرج عليهما من الفروع ما لا يحصى كثرة، ومن هذا القبيل ما خرج مخرج المثل من الحديث، كقوله ﷺ: ((الإيدغ المؤمن من حجر مرتين))<sup>(٩)</sup>، وقد أورد أبو هلال طائفة من هذه الأحاديث الموجزة، ثم قال: "فمعنى هذا الكلام أكثر من الفاظه، وإذا أردت أن تعرف صحة ذلك فحلها، وابنها بناءً آخر، فإنك تجدها في أضعاف هذه الألفاظ"<sup>(١٠)</sup>.  
ومما نمثل به قوله ﷺ: ((الجنة تحت ظلال السيف))<sup>(١١)</sup>، وقد علق عليه القرطبي قائلاً:

(١) الطراز (١١٩ / ٢).

(٢) عروس الأفراح (١٠٣ / ٢).

(٣) المثل السائر (١٠٩ / ٢).

(٤) رواه البخاري (٥٧٦٩) عن أبي مسعود رض.

(٥) رواه أبو داود (٥١٢٨) والترمذى (٢٨٢٢) وحسنه، وابن ماجه (٣٧٤٥) عن أبي هريرة رض، وصححه الألبانى في صحيح أبي داود (٤٢٧٧).

(٦) رواه الترمذى (٢٥١٨) وقال "حسن صحيح" والنمسائى (٥٧١١) والحاكم (١٢ / ٢) عن الحسن بن علي رضي الله عنهم، وصححه الألبانى في صحيح الترمذى (٢٠٤٥).

(٧) رواه الإمام أحمد (٢٤٢٤) و(٢٥٩٩٩) وأبو داود (٣٥٠٨) والترمذى (١٢٨٦) والنمسائى (٤٤٩٠) وابن ماجه (٢٢٤٣) عن عائشة رضي الله عنها، وحسنه الألبانى في إرواء الغليل (١٨٥ / ٥).

(٨) رواه مالك في الموطأ (٧٤٥ / ٢) وابن ماجه (٣٢٤٠) عن أبي سعيد الخدري رض، وقال النووي: "له طرق يقوى بعضها بعضاً" الأربعون النووية مع شرح ابن عثيمين (٣٢٥).

(٩) رواه البخاري (٥٧٨٢) ومسلم (٢٩٩٨) عن أبي هريرة رض.

(١٠) كتاب الصناعتين (١٨٤).

(١١) رواه البخاري (٢٦٦٢) ومسلم (١٧٤٢) عن عبد الله بن أبي أوفى رض.

"هذا من الكلام النفيض البديع، الذي جمع ضروب البلاغة، من جزالة اللفظ، وعذوبته، وحسن استعارته، وشمول المعاني الكثيرة، مع الألفاظ المحسوبة الوجيزة، بحيث يعجز الفصحاءُ اللُّسُنُ الْبَلْغَاءُ عن إيراد مثاله، أو أن يأتوا بنظيره وشكله، فإنه استفيد منه مع وجازته الحضُّ على الجهد، والإخبار بالثواب عليه، والحضرُ على مقاربة العدو، واستعمال السيف، والاعتماد عليها، واجتماع المقاتلين حين الزحف، بعضهم لبعض، حتى تكون سيفوفهم بعضها يقع على العدو، وبعضها يرتفع عنهم؛ حتى كأن السيف أطللت الضاربين بها، ويعني أن الضارب بالسيف في سبيل الله يدخله الله الجنة بذلك".<sup>(١)</sup>

ومما جاء على ذلك أيضاً أكثر أحاديث الدعاء، فإن أدعيته عليه الصلاة والسلام موجزة جامعة، كقوله ﷺ: ((اللهم إني أسألك الهدى والتقوى والغفار والغنى)).<sup>(٢)</sup> فهذا الدعاء شامل لخيري الدنيا والآخرة، وكثير من الناس اليوم يطلبون في أدعيتهم، ويأتون بالغرائب، ولি�تهم أخذوا بالأدعية الواردة في السنة، فإن الدعاء بها أحرى بالإجابة، مع ما هي عليه من الرشاقة والإيجاز، ومن ذلك أيضاً دعاؤه ﷺ: ((اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم، وأعوذ بك من فتنة المحييا والممات، وأعوذ بك من عذاب القبر)).<sup>(٣)</sup> قال ابن القيم رحمه الله: "فجمع هذا الحديث الشريف في استعاذه ﷺ أصول الشر وفروعه، ومباديه وغاياته، وموارده ومصادره، وهو مشتمل على ثمان خطاب كل خصلتين منها قريتان".<sup>(٤)</sup>

ومما تجلى فيه الإيجاز النبوى كتبه ﷺ إلى الملوك والزعماء، التي يدعوهם فيها إلى الإسلام، وهي بحق كتب خالدة، تلوح عليها علائق النبوة، وتوقيعات مجلىة، تبرز على وجازتها. حقيقة الإسلام كما هي، وما يحمله من معانى العظمة والخير للبشر، ومن ذلك كتابه ﷺ إلى ملك الروم هرقل، ونصه: ((بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى مَلِكِ الْرُّومِ هَرْقُلَ))، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم وسلم، يؤتكم الله أجركم مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأربيسين.<sup>(٥)</sup>

(١) المفہم (٣/٥٢٥).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢١) عن عبد الله بن مسعود.

(٣) رواه البخاري (٢٦٦٨) ومسلم (٢٧٠٦) عن أنس، ورواه مسلم أيضاً (٢٧٢٢) عن زيد بن أرقم.

(٤) زاد المعاد (٢/٣٥٦).

(٥) الأربيسيون: أتباع هرقل من أهل مملكته، جمع أربيسى، وهو في الأصل الحراث والفلاح. فتح الباري (١/٥١).

و يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضاً بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأننا مسلمون<sup>(١)</sup>، وانظر إلى قوله عليه الصلاة والسلام: ((أسلموا)، فقد اتفقت كلمة الشرح على أنه "في نهاية من الاختصار، وغاية من الإيجاز والبلاغة، وجمع المعاني، مع ما فيه من بديع التجenis؛ فإن (اتسلما) شامل لسلامته من خزي الدنيا: بالحرب والسب والقتل وأخذ الديار والأموال ومن عذاب الآخرة<sup>(٢)</sup>، وقد أخذوا من الحديث استحباب البلاغة والإيجاز، وتحرري الأفاظ الجزلة في المكاتبة<sup>(٣)</sup>).

ومما جاء على الإيجاز الأحاديث الجموع، قالوا: وهي الأحاديث التي عليها مدار الدين، وأمل في ذلك ابن الصلاح (ت ٦٤٢هـ) ستة وعشرين حديثاً في مجلس سماه: الأحاديث الكلية، وقد أخذ هذه الأحاديث الحافظ النwoي وأتمها أربعين، وهي التي اشتهرت بالأربعين النwoية، ولم تزل محل عنابة العلماء شرحاً واستباطاً، حتى يوم الناس هذا<sup>(٤)</sup>، ومما نذكره منها الآن حديث ((إنما الأعمال بالنيات))<sup>(٥)</sup>، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "قد تواتر النقل عن الأئمة في تعظيم قدر هذا الحديث، قال أبو عبد الله<sup>(٦)</sup>: ليس في أخبار النبي ﷺ شيء أجمع وأغنى وأكثر فائدة من هذا الحديث. واتفق عبد الرحمن بن مهدي والشافعي . فيما نقله البويطي عنه. وأحمد بن حنبل وعلي بن المديني وأبو داود والترمذi والدارقطني وحمزة الكناني على أنه ثلث الإسلام، ومنهم من قال ربعه... وقال الشافعي: يدخل في سبعين باباً، ويحتمل أن يزيد بهذا العدد المبالغة، وقال عبد الرحمن بن مهدي أيضاً: ينبغي أن يجعل هذا الحديث رأس كل باب. ووجه البيهقي كونه ثلث العلم بأن كسب العبد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه، فالنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها"<sup>(٧)</sup>.

(١) البخاري (٧) وفي مواضع أخرى. ومسلم (٤٧٠٧) عن أبي سفيان<sup>رض</sup>.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحاج (١٠٨/١٢) عمدة القاري (١١٢/١) مرقة المفاتيح (٢٤٢/٧)

(٣) ينظر: المراجع السابقة.

(٤) من آخر ماصدر من الدراسات عليها (الفوائد المستنبطة من الأربعين النwoية لشيخنا الكبير عبد الرحمن البراك حفظه الله) وقد نشر عام ١٤٢٠هـ

(٥) تقدم تخرجه، وهو في الصحيحين عن عمر<sup>رض</sup>.

(٦) هذا تحريف، والصواب أبو عبيد، كما في الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (١٥٩/١) لابن الملقن.

(٧) فتح الباري (١٧/١).

ومن ذلك أيضاً حديثُ جبريل المشهور الذي فيه ذكر الإيمان والإسلام والإحسان<sup>(١)</sup>. فهو جامع لأمهات المعاني، قال عنه القرطبي: "هذا الحديث يصلاح أن يقال له أمُّ السنة، لما تضمنه من جمل علم السنة"<sup>(٢)</sup>، وقال القاضي عياض (ت ٤٤٥ھـ): "هذا الحديث اشتمل على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة، من عقود الإيمان، وأعمال الجوارح، وإخلاص السرائر، والتحفظ من آفات الأعمال، حتى إن علوم الشريعة كُلُّها راجعة إليه ومتشعبه منه"<sup>(٣)</sup>.

وذكر الطبيبي (ت ٧٤٣ھـ) أن هذا الحديث لما كان مشتملاً على أمهات أصول الدين استهل به البغوي كتابه شرح السنة والمصابيح، على طريقة براعة الاستهلال، اقتداء بالقرآن في افتتاحه بالفاتحة، لأنها تضمنت علوم القرآن إجمالاً<sup>(٤)</sup>، وكلام الشراح في هذا كثير، ولا يُعرف في الدراسات الأدبية عملٌ أرفعٌ شأنًا من الوعي بما يحتويه الكلام من غزارة المعاني وشمولها<sup>(٥)</sup>.

يقول الأستاذ الزيات: "الإيجاز غالب على أسلوب الرسول ﷺ، لأن الإيجاز قوة في التعبير، وامتلاء في اللفظ، وشدة في التماسك، وهذه صفات تلازم قوة العقل وقوية الروح، وقوة الشعور وقوية الذهن، وهذه القوى كلها على أكمل ماتكون في الرسول ﷺ، ومن هنا شاعت جوامع الكلم في خطبه وأحاديثه، حتى عدت من خصائصه"<sup>(٦)</sup>. ومما يضاف إلى حسنات الإيجاز أن السامعين لا يملون الحديث ولا يدب إليهم سأمة، خلاف ما يقع لهم عند الإطناب والإطالة، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يتحاشى أن يسامر القوم، وكان يتخلوهم بالموعظة مخافة السأمة عليهم، كما يقول ابن مسعود رض<sup>(٧)</sup>، ومن محاسن الإيجاز أنه سبب لحفظ العلم وأدائه كما هو، دون نقص أو زيادة، فإن الكلام إذا طال صعب ضبطه، وأنسى بعضه بعضاً.

(١) رواه مسلم عن عمر رض.

(٢) المفہوم (١٥٣/١).

(٣) إكمال المعلم (٢٠٤/١).

(٤) الكاشف عن حقائق السنن (١١٠/١).

(٥) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري (٢١٤).

(٦) وحي الرسالة (٧٩/٢).

(٧) رواه البخاري (٦٨) ومسلم (٢٨٢١).

إن هذه الشريعة الخاتمة في مبدأ أمرها إنما قامت على الحفظ، وكان النبي ﷺ قد أذن لهم أن يكتبوا القرآن ونهاهم أن يكتبوا الحديث<sup>(١)</sup> خشية أن يختلط شيء منه بالقرآن، فدون القرآن، واستودعت السنة صدور الرجال، حتى أذن لهم النبي ﷺ بتدوينها، وكان من أسباب حفظها في ذلك العصر وفيما بعده من العصور ما كانت عليه من إيجاز العبارات، وسهولة الألفاظ، وتأخي الجمل، وترتيب المعاني.

إن الإيجاز في كلامه ﷺ ظاهرة حرية بالدرس المستقل، لوفرة موجزاته وقوته بنائتها، حتى كأنها في أفرادها البنيان المرصوص، بحيث لا يحسن اختصارها مرة أخرى، ولا إعادةً بنائتها مرة أخرى، وقد سئل أحد البلغاء: ما الاختصار؟ فقال: الذي اختصاره فساد، وقيل لبعضهم: ما البلاغة؟ فقال: الإيجاز، قيل: وما الإيجاز؟ قال: حذف الفضول وتقريب البعيد<sup>(٢)</sup>، وقد عُني بعض المحدثين كالقضاعي في مسنن الشهاب، بجمع مختارات من حكم النبي ﷺ ومأثوراته الرشيقية السائرة<sup>(٣)</sup>، وسار على ذلك طائفة من الكتاب والأدباء<sup>(٤)</sup>، على أنه لم يوجد عند غيره ﷺ من فصحاء الأمم عشر معاشرًا وجده عنده عليه الصلاة والسلام من تلك الموجزات، والحال أن الله جل وعلا قد جمع لنبيه صلى الله عليه وسلم أعظم المعاني في أحسن الأساليب وأوجزها<sup>(٥)</sup>.

وإذ نقول ذلك فلا يعني أن جميع كلامه ﷺ من باب الإيجاز، فإنه قد يسلك طريق الإطناب إذا استدعاه الأمر وكان ثم وجه للإطالة، والبلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحتها، ففي صحيح مسلم عن عمرو بن أخطب رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر، وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصل، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصل، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن فأعلمنا أحفظنا<sup>(٦)</sup>. فحين أراد النبي ﷺ الإخبار بما سيكون من حوادث وفتن في آخر الزمان أفاد في حديثه ليحصل البلاغ المبين

(١) رواه مسلم (٤) عن أبي سعيد الخدري ﷺ. وينظر: السنة قبل التدوين (٣٠٧).

(٢) كتاب الصناعتين (١٧٩).

(٣) مطبوع بتحقيق حمدي السلفي، نشرته مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠٥ هـ.

(٤) ينظر: زهر الآداب (٢٥/١) الإعجاز والإيجاز (١٩).

(٥) بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم (٥١).

(٦) صحيح مسلم (٢٨٩٢).

بذلك، وإن كانت هذه حادثة نادرة لم ينقل أنها تكررت، فيعلم بذلك أن أكثر حديثه جار على أسلوب الإيجاز.

٥. ومن خصائص حديثه صلى الله عليه وسلم، وهي بسيطٌ مما تقدم، ثراءً للأفكار والمعاني وسخاؤها، ومن آثار ذلك أنك ترى الحديث الواحد يتعدد عطاوه على الأيام، وكلما زدته فكرا زادك معنى، وربما كان الحديث وجيز العبارة قليل الجمل، فتراه "وكانه دوائر يتولد بعضها من بعض، وكأنه تجري فيه شرائين تتدفق بالمعنى والإشارات"<sup>(١)</sup>، ومن هنا قال ابن تيمية رحمة الله: "من أصفع إلى كلام الله وكلام رسوله بعقله، وتدبّره بقلبه، وجد فيه من الفهم والحلوة والبركة والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام، لا منظومه ولا منتورة"<sup>(٢)</sup>، فكلام الرسول ﷺ مبارك، أي كثير الخير سخي، لا ينقطع عطاوه، وقد قال أحد البلغاء: "إن من أسباب رفعة طبقة الكلام أن يكون مستعداً لاستنباط كثير من الفروع والوجوه"<sup>(٣)</sup>، وهذا الوصف منطبق على كلام النبي عليه الصلاة والسلام.

ونمثل على ذلك بأحاديث الأحكام<sup>(٤)</sup>، فإنها جاءت على طرق التعبير الثلاثة الإيجاز والإطناب والمساواة، وهذه الأحاديث لم يزل العلماء يستقون منها الدروس والأحكام والحكم، على تعاقب القرون، مما يدل على عظمة هذه الشريعة وسماحتها وسعة أحكامها، حيث تتناول تلك الأحاديث ما لا يتناهى من الواقع، وكل ما يمكن تصوره منحوتات والنوازل المتعددة على تباعد الموطن واختلاف الأجيال، وما جاءت على هذا النحو إلا لأن رسالة المبعوث بها عامة، كما قال تعالى: **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَةً لِلنَّاسِ بَشِّرًا وَكَيْزِرًا** (سبأ).

وكمن حديث جاد بعشرات الفوائد، وقد ذكر ابن حجر أن أحد من كان في عصر شيوخه كتب مجلدين في حديث أبي هريرة في المُجَامِعِ في رمضان<sup>(٥)</sup>، جمع فيهما ألف

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري (٢٦٠).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٧٤٨/٢).

(٣) إشارات الإعجاز للنورسي (١١٨).

(٤) قال ابن القيم في إعلام الموقعين (٥٧١/٢): "أصول الأحكام التي تدور عليها الشريعة نحو خمس مئة حديث وفرضها وتفاصيلها نحو أربعة آلاف حديث".

(٥) رواه البخاري (١٨٣٤) وموضع آخر، ومسلم (١١١١) عن أبي هريرة .

فائدة وفائدة<sup>(١)</sup>، ونقل النووي أن ابن خزيمة وابن جرير صنفا في حديث بريرة<sup>(٢)</sup> تصنيفين كبيرين، وذكر ابن حجر أن بعض المتأخرین بلغ بالفوائد من حديث بريرة أربع مئة فائدة، واستنبط ابن الصباغ من مشايخ القرويین<sup>(٣)</sup> أربع مئة فائدة من حديث ((يا أبا عمير مافعل النّغير!)).

يقول العقاد: ”إن الإبلاغ أقوى الإبلاغ في كلام النبي ﷺ هو اجتماع المعانى الكبار في الكلمات القصار، بل اجتماع العلوم الواقية في بعض كلمات، وقد بسطها الشارحون في مجلدات“<sup>(٤)</sup>، ولم ينقطع الاستنباط، بل بقي حتى هذا العصر، ولله الحمد، فهاهم علماء الإسلام في الأقطار المختلفة يشرحون الأحاديث ويستخرجون منها الأحكام، ويضيفون إلى ما قاله السابقون، كما يرى شاهد ذلك لدى العلامة الشيخ محمد ابن عثيمين (ت ١٤٢١هـ)، أحد كبار علمائنا المعاصرين، وصاحب اليد الطولى في انتزاع الفوائد المبتكرة وال دقائق المعتبرة، كما تشهد له بذلك أسفاره الكثيرة، ومنها شرح صحيح البخاري، وشرح رياض الصالحين وشرح بلوغ المرام في أحاديث الأحكام لابن حجر، فإنه رحمه الله قد استنبط من حديث جابر في صفة حج النبي ﷺ<sup>(٥)</sup> مئة وأربعاً وأربعين فائدة<sup>(٦)</sup>، كما استنبط من حديث ابن مسعود<sup>(٧)</sup> في التشهد<sup>(٨)</sup> تسعاً وأربعين فائدة<sup>(٩)</sup>.

٦. ومن الخصائص في الحديث النبوى الكريم حسن عرض الفكرة الواحدة أو الأفكار واستيعابها للمعاني المقصودة وجودة تسلسلها، بحيث تتساوى المعانى متتابعة وكأنها ماء يطرد في نهر مستقيم القاع، أما قوة الأفكار وصواب المعانى فأمر لا يرتاد فيه إلا الخصوم، وحسب هذا النبي الخاتم ﷺ أنه جاء بكل خير، ودعا إلى الهدى،

(١) فتح الباري (٢٢٩ / ٥).

(٢) بريرة جارية كاتبت أهلها، ولكنهم اشترطوا الولاء لهم، فأنكر عليهم النبي ﷺ ذلك، في خطبة مشهورة، والخبر في البخاري (٤٤) وموضع آخر، ومسلم (١٠٧٥) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) تعايشيب للأستاذ عبد الله كنون (٩٣).

(٤) رواه البخاري (٥٧٧٨) ومسلم (٢١٥٠) عن أنس<sup>رض</sup>، والنّغير طائر، تصغير نغر.

(٥) عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم (١٠١).

(٦) رواه مسلم (١٢١٨).

(٧) وقد طبع في رسالة مستقلة عام ١٤٢٤هـ، نشر دار المحدث بالرياض.

(٨) رواه البخاري (٨٠٠) ومسلم (٤٠٢).

(٩) فتح ذي الجلال والإكرام (٣٥٣ / ٣).

وأخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وترك الناس على البيضاء، لا يزيغ عنها إلا  
هالك.

ونستشهد على هذه الخصيصة بحديث أبي ثعلبة الحُشَنِي رض يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَ فِرْضَ فِرَائِضَ فَلَا تُضِيغُوهَا، وَحَرَمَ أَشْيَاءَ فَلَا تُنْتَهِكُوهَا، وَحدَّ حَدُودًا فَلَا تُعَذِّدُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءِ رَحْمَةِ لَكُمْ غَيْرَ نُسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا))<sup>(١)</sup>، إن هذا الحديث يعرض أصول الشريعة، ويبين ما يحل وما يحرم وما هو مباح، على طريقة التدلي البديع، حيث بدأ بالفرائض فالمحرمات ثم المباحثات، ومع ما فيه من الإيجاز، فإن هذا الحديث أصل في ثبوت الشرع، وجميع نصوص الأوامر والنواهي تفصيل له.

ومن ذلك أيضاً حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رض: ((إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا أَمْرٌ مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشَّبَهَاتِ فَقَدْ اسْتَبَرَ لِدِينِهِ وَعَرَضَهُ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشَّبَهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعِي حَوْلَ الْحَمْى يَوْشِكُ أَنْ يَرْتَعِ فِيهِ، أَلَا وَإِنْ لَكَ مَلْكُ حَمْى، أَلَا وَإِنْ حَمْىَ اللَّهُ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنْ فِي الْجَسَدِ مَضْغَةٌ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ))<sup>(٢)</sup>.

يعرض هذا الحديث لبيان الحال والحرام في الشريعة وأنهما بستان، ثم يتطرق إلى ذكر المشتبهات لأنخذ الحيطة والحذر، ثم شبه المكلف بالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وهذا تصوير محسوس لأمر عقلي يزيد به وضوها وجلاء، أما الحمى المحظور فمحارم الله، وأما القلب فهو مصدر الصلاح إذا بعد عن المحارم، أو الفساد إذا وقع فيها، فما ذا يقول القارئ في هذه المعاني وطريقة عرضها؟ أليس ألموزجاً للبيان النبوى الذي يتسم بعظمة المقصد، وكثرة المعنى، وسداد الأسلوب، ووجاهة العبارة، فلا تزيد ولا فضول.

ولقد نبه عبد القاهر الجرجاني إلى أن الكلام البليغ يدل على نفسه بحسن بادي الرأى، كالمسك المعتق الفواح، كما ينوه بمقام منشئه، يقول: ”ومنه. أي من الكلام. ما أنت ترى الحسن يهجم عليك منه دفعه، ويأتيك منه ما يملأ العين ضربةً حتى تعرف من

(١) رواه الدارقطني في السنن (٤/١٨٤) وحسنه النووي في الأربعين. بشرح ابن عثيمين. (٣٠٩).

(٢) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

البيت الواحد مكان الرجل من الفضل، وموضعه من الحِذْق، وتشهد له بفضل المُنَّة، وطول الْبَاع<sup>(١)</sup>.

وكان العيني قد تكلم على هذا الحديث ويسط معانيه، ومما قال: "أجمع العلماء على عظم موقع هذا الحديث، وأنه أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، قالوا: سبب عظم موقعه أنه عليه السلام نبه فيه على صلاح المطعم والمشرب والملبس والمنكح وغيرها، وأنه ينبغي أن يكون حلالاً، وأرشد إلى معرفة الحلال، وأنه ينبغي ترك المشتبهات، فإنه سبب لحماية دينه وعرضه، وحذر من مواقعة الشبهات، وأوضح ذلك بضرب المثل بالحُمْن، ثم بين أهم الأمور، وهو مراعاة القلب، وقال ابن العربي: يمكن أن يُنتزع من هذا الحديث وحده جميع الأحكام. وقال القرطبي: لأنَّه اشتمل على التفصيل بين الحلال وغيره وعلى تعلق جميع الأعمال بالقلب فمن هنا يمكن أن يرد إليه جميع الأحكام"<sup>(٢)</sup>.

#### ثانياً: الخصائص المتممة للفصاحة في الحديث

وهي خصائص تحف بلغة الحديث ونظمها، وكان لها أثر ظاهر في الحديث النبوى الشريف لأنها وسائل مكملة للفصاحة، ويمكن أن نقول: إن هذا النوع من الخصائص كان في حياته صلى الله عليه وسلم حيث شهدتها الصحابة وسجلوها لنا، وكان لها الأثر الكبير في نفوس المدعويين والمستمعين للنبي عليه الصلاة والسلام والآذنين عنه، فمن ذلك:

- حسن منطقه صلى الله عليه وسلم، فكما صان الله لسان نبيه عن التكلف فقد نزه الله نطقه من عيوب الحروف ومخارجها، وحماه من تعقيد الصوت، ومن التمتمة<sup>(٣)</sup> وال فأفة<sup>(٤)</sup> والرُّتَّة<sup>(٥)</sup> والتنطُّع<sup>(٦)</sup> والتمطُّق<sup>(٧)</sup> والتفيهُق<sup>(٨)</sup>، إلى غير ذلك من العيوب التي

(١) دلائل الإعجاز (٨٨).

(٢) عمدة القاري (٣٤١/١)، وكلام القرطبي منقول بتصرف من المفهم (٤٩٩/٤).

(٣) التمتمة: رد الكلام إلى الثناء والميم.

(٤) الفأفة: ترديد الفاء في الكلام.

(٥) الرُّتَّة: العجمة.

(٦) التنطُّع: التعمق في إخراج الحروف.

(٧) التمطُّق: ضم الشفتين ورفع اللسان إلى الفك الأعلى.

(٨) التفيهُق: الثرثرة وملء الفم بالألفاظ.

يصادب بها الخطيب المفلقون والشعراء المصالق، على ما ذكره الجاحظ من أوصافهم في موضع من البيان والتبيين، وذكر الرافعى أنه لا يعرف بلية قط سلمت له جهات الصنعة في كلامه من اللغة والبيان والحكمة على أنها بحث لم يزغ عن الطريقة<sup>(١)</sup>. أما نبى الله محمد ﷺ فقد منحه الله البیان المبین والصوت الحسن<sup>(٢)</sup>، وجعل منطقه مساوقة لطبيعة اللغة، فتم له إحكام الضبط وإتقان الأداء، فهو صاحب كلام سليم في منطق سليم<sup>(٣)</sup>. قالت عائشة رضي الله عنها: ((الم يكن رسول الله ﷺ يسرد الحديث كسردكم)) وهو في الصحيحين<sup>(٤)</sup>. وجاء في السنن: ((ولكن كان يتكلم بكلام بين فصلٍ، يحفظه من جلس إليه))<sup>(٥)</sup>، ومما جاء في وصف أم معبد قولها فيه ﷺ: "حلو المنطق، فضل لانزرا ولا هذر، لأن منطقه خرارات نظمن يتحدرن"<sup>(٦)</sup>.

إن الفصاحة صفة تجتمع للكلام ولهيئته النطق بالكلام ولموضوع الكلام، فيكون الكلام فصيحاً وهيئة النطق به غير فصيحة، أو يكون الكلام والنطق به فصحيحاً ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية في الأسماع والقلوب<sup>(٧)</sup>، ومن هنا تفاوت البلاغة في أقدارهم وتفاوضلوا في طبقاتهم، أما نبى الله محمد ﷺ فقد تكاملت له الفصاحة بجميع جوانبها في كلامه، وفي هيئة نطقه بكلامه، وفي موضوع كلامه، وإنك لتجد جمال فصاحتة في نطقه كجمال فصاحتة في مقاله، فكان أعراب العرب، عليه الصلة والسلام.

٢. الإلقاء صلى الله عليه وسلم الكلام مفصلاً على التوالى وبصورة هادئة، فلا يتتابع الحديث استعجالاً ببعضه في إثر بعض فيلتبس على السامع أو يعزب عنه شيء منه، أو

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (٤٢٥).

(٢) مختصر الشمائل المحمدية للألباني (١٦٨) وزاد المعاد (١٨٣/١).

(٣) محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل (١٢).

(٤) رواه البخاري (٣٢٧٥) ومسلم (٣٢٩٣).

(٥) الترمذى (٣٦٣٩) وحسنه الألبانى أيضًا في صحيح الترمذى (٢٨٧٨)، ورواه الإمام أحمد (٢٦٢٠٩) بنحوه.

(٦) رواه الحاكم في المستدرك (٩/٣) وصححه وافقه الذهبي، وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢٠٩/٣): "قصة أم معبد مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضاً".

(٧) عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم (٢٩).

يختلط بعضه ببعض، فكلامه **ﷺ** ليس بهذ مسرع لا يحفظ، بل كان يفصل بين الكلمة وأختها، فلا تتدخل الكلمات والحرف، كما أن كلامه ليس متقطعاً تتخلله السكتات بين أفراد الكلام<sup>(١)</sup>، بل كان عليه الصلاة والسلام يتكلم بكلام مفصل، يحدث الحديث ولو أراد العاد أن يعده لأحصاء<sup>(٢)</sup>.

ولاغر في هذا المهل! فإنه عليه الصلاة السلام مأمور بالبلاغ المبين وبإقامة الحجة، وتقىد قريباً قول عائشة رضي الله عنها المتفق عليه: (المر يكن رسول الله **ﷺ** يسرد الحديث كسردكما)، وفي السنن ((ولكن كان يتكلم بكلام بين فصلٍ، يحفظه من جلس إليه)، وعند الإسماعيلي، كما قال الحافظ في الفتح: "إنما كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلاً، فهما تفهمه القلوب"<sup>(٣)</sup>)، قوله: "فصلاً أي بينا ظاهراً يكون بين أجزائه فصل، وليس معنى ذلك أنه عليه الصلاة والسلام بطيء في الكلام، فإن البطء معلول، وهو ضرب من العي، ويبعث على الكسل والرقاد، فتبين من ذلك أن إلقاءه الحديث **ﷺ** ليس بالسريع المخل ولا بالبطيء الم الممل، بل هو بين بين، وخيار الأمور أوساطتها).

٣. ومن ذلك استعانته **ﷺ** في ثبيت المعاني بالإشارة بيده وأصابعه إشارة مناسبة للمعنى، حتى تصل إلى الأذهان سريعاً، وتتأصل في النفوس، ومن هذا ما رواه أبو هريرة أن النبي **ﷺ**قرأ هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء)، فوضع إبهامه على أذنه، والتي تليها على عينه<sup>(٤)</sup>، أي تحققها لصفتي السمع والبصر، لا إثباتاً للتتشبيه بين الخالق والمخلوق، ومنه ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة **ﷺ** أن رسول الله **ﷺ** ذكر يوم الجمعة فقال: ((فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه)) وأشار بيده يقللها<sup>(٥)</sup>، ومنه ما رواه سهل بن سعد **رض** عن النبي **ﷺ** قال:

(١) زاد المعاد (١٨٢/١).

(٢) كما قالت عائشة رضي الله عنها، وخبرها مخرج في الصحيحين، البخاري (٣٢٧٥) ومسلم (٣٤٩٣).

(٣) فتح الباري (٦/٦٦٩).

(٤) سنن أبي داود (٤٧٢٨) وإنستاده صحيح. وقال الحافظ في الفتح (٣٨٥/١٢): "سنده قوي على شرط مسلم".

(٥) البخاري (٨٩٣) ومسلم (٨٥٢).

((بعثت أنا وال الساعة كهذه من هذه، أو كهاتين)) و قرن بين السبابة والوسطى<sup>(١)</sup>. فهذه الإشارات ذات دلالات، ولها بلاعة، ولو قدر أن الألفاظ وقعت موقعها، فإنها لا تعطي عطاءها، ولا تغنى عن نائها.

وقد بوب البخاري في صحيحه في كتاب العلم فقال: "باب من أحباب الفتيا بإشارة اليد والرأس"<sup>(٢)</sup>، وساق فيه حديثين وأثرا.

ويتصل بذلك تغيير هيئة المتكلم إشعاراً بأهمية الكلام، ومنه ما جاء في حديث أبي بكرة رض قال: قال رسول الله ص: ((ألا أبئكم بأكبر الكبائر؟)) ثلثا، قالوا بلى يا رسول الله، قال: ((الإشراك بالله، وعقوق الوالدين)) وكان متكتنا فجلس، فقال: ((ألا وقول الزور)) قال الراوي: فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت<sup>(٣)</sup>. فجلوسه عليه الصلاة والسلام بعد أن كان متكتنا، فيه جمع لقلوب الصحابة وأبصارهم نحوه رض، ليافت أنظارهم إلى شناعة قول الزور، وهو الباطل، وعدم التساهل في أمره، ويلحظ في الحديث وسيلة أخرى من وسائل التوكيد والتبيين هي التكرار، فتعانقت في الحديث الوسائلتان، والتلتقت البلاغتان، بلاغة القول وبلاعة الفعل.

إن استعمال الأيدي والأصابع واختلاف هيئة المتكلم لإيصال المعاني وتبثيتها في النفوس هو طبقة من البلاغة ومرتبة من البيان، كما أثر عن البلغاء الأوائل<sup>(٤)</sup>، حيث توظف الحركات والإشارات لخدمة المعاني، وهو أيضاً ضرب مما يعرف اليوم بوسائل الإيضاح، وهي لدى التربويين من الطرق المهمة في نجاح العملية التعليمية، وعلى ذلك تكون السنة النبوية سابقة في هذا المضمار. وينذكر الجاحظ أن "الإشارة واللفظ شريكان، ونعم العونُ هي له، ونعم الترجمانُ هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغنى عن الخط، وبعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة، على اختلاف في طبقاتها ودلالتها، وفي الإشارة بالطرف والحاجب، وغير ذلك من

(١) البخاري (٤٩٩٥) ومسلم (٢٩٥١) عن أنس رض.

(٢) صحيح البخاري (٤٤/١).

(٣) البخاري (٢٥١١) ومسلم (١٤٣).

(٤) البيان والتبيين (١/١١٦).

الجوارح مِرْفَقٌ كَبِيرٌ<sup>(١)</sup>، ومعونة حاضرة، ولو لا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاصٌ  
الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتة، هذا، ومبَلَغُ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت، وحسن  
الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان<sup>(٢)</sup>.

وما يورد شاهدا في هذا من أخبار البلوغ ما نقله الجاحظ عن أبي شمر أحد أئمة  
المتكلمين أنه كان إذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه، ولم يقلب عينيه، ولم يحرك  
رأسه، حتى كان كلامه إنما يخرج من صدع صخرة، وكان يقضي على صاحب الإشارة  
بالافتقار إلى ذلك، وبالعجز عن بلوغ إرادته، وكان يقول: ليس من المنطق أن تستعين  
عليه بغيره، حتى كلمة إبراهيم بن سيّار النظام عند أيوب<sup>(٣)</sup> بن جعفر، فاضطره بالحجة،  
وبالزيادة في المسألة، حتى حرك يديه، وحل حُبُوطه وحبا إليه، حتى أخذ بيده، ففي ذلك  
اليوم انتقل أيوب من قول أبي شمر إلى قول إبراهيم.

ثم علل الجاحظ أن الذي غرّ أبو شمر أولاً، وموه له هذا الرأي أن أصحابه كانوا  
يستمعون منه، ويسلمون له، ويميلون إليه، ويقبلون كل ما يورده عليهم، ويتبته عندهم،  
فلما طال عليه توقيره لهم، وترك مجاذبتهم إياه، وخفت مؤونة الكلام عليه، نسي حال  
منازعة الأكفاء، ومجاذبة الخصوم، قال أبو عثمان: وكان شيخاً وقوراً، وزَمِيتاً<sup>(٤)</sup> أركينا،  
وكان ذا تصرف في العلم، ومذكوراً بالفهم والحلم<sup>(٥)</sup>.

ويتصل بهذا سُكُوتُه في بعض ما يُسأله عنه، كما إذا لم يكن لديه جواب  
فيискُت انتظاراً للنَّزول الْوَحْيِ، أو يرى أن السائل قد فهمَ الجواب من مجرد السُّكُوتِ، أو  
يكون السؤال في غير محله، ومن ذلك ما ورد في حديث أبي هريرة في الرجل الذي سُأله  
النبي ﷺ وهو يحدث فقال: متى الساعة؟ فلم يجبه، ثم قال: ((أين أراه الرجل الذي سُأله  
عن الساعة؟)) قال: ها أنا يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: ((إذا ضيغت الأمانة  
فانتظر الساعة))<sup>(٦)</sup>، وقد ذكر أرباب البيان أن البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه

(١) المِرْفَق: ما يستعان به.

(٢) السابق /١٧٩٧.

(٣) من رجال الدولة عند العباسيين، ومن أعلم الناس بأنساب قريش، وله ذكر في كتب الجاحظ.

(٤) الزَّمِيت: الحليم الساكن القليل الكلام.

(٥) البيان والتبيين /١٩٤٩.

(٦) رواه مسلم (٢٩٥٢)، وينظر: فتح الباري (٩٢٢).

كثيرة، ومنها ما يكون في السكوت<sup>(١)</sup>.

ومما جاء في وصف ابن القيم للنبي ﷺ قوله: "كان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، وإذا كره الشيء عرف في وجهه"<sup>(٢)</sup>.

إلى غير ذلك من الخصائص البلاغية والظواهر البينية العامة في الحديث النبوى الكريم، وهي التي كانت بإذن الله من أسباب خلوده، وبقائه غضا طريا، وعينا معينا، على مر الأيام، وإن سيبدو لغيري أكثر من ذلك، لأن مادة البحث من القول المبارك الذى سماه الله حكمة في قوله سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَبَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (النساء)، وأحاديث رسول الله ﷺ كالروضة الغناء فيها من كل نبت كريم، وفيها أبلغ الحكم، وأجمع الكلم، وأروع الأساليب، وأعظم الهدایات، وأسمى التشريعات، وكل حديث من أحاديثه عليه الصلاة والسلام حافل بالنکات النظمية والصور البينية، لأنها جاءت مطابقة للحال، وقد روى البخاري عن أبي هريرة مرفوعا: ((أعطيت مفاتيح الكلم))<sup>(٣)</sup>، والمفاتيح جمع مفتاح، وهو ما يتوصل به إلى استخراج المعلمات التي يتذرع الوصول إليها، فأخبر ﷺ أنه أotti مفاتيح الكلم، وهو ما يسر الله له من البلاغة والوصول إلى غوامض المعانى، ومحاسن الكلام التي أغفلت على غيره وتغدرت، ومن كان في يده مفاتيح شيء مخزون سهل عليه الوصول إليه، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن البلاغة المأمور بها في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بِلِمَّا﴾ (النساء) هي المعانى والبيان"<sup>(٤)</sup>، ولهذا تجد في حديثه ﷺ من الفنون البلاغية ضربوا، ومن أنواع المعانى شيئا عجيبا، فتتجدد أساليب التوكيد والتشويق والإجمال والتفصيل كقوله ﷺ: ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان...))<sup>(٥)</sup>، وأساليب القصر والحدف والذكر، كما تجد في الحديث روائع التشبيهات والكنايات والتمثيل والاستعارات التي تثير النفوس، وتؤثر في القلوب، ولذا قال البلاغيون: إن المجاز أبلغ من الحقيقة<sup>(٦)</sup>، ومن التشبيهات النبوية قوله

(١) البيان والتبيين (١١٥/١).

(٢) زاد المعد (١٨٢/١).

(٣) البخاري (٦٥٩٧).

(٤) منهاج السنّة (٥٤/٨).

(٥) رواه البخاري (٦٦) ومسلم (٦٧) عن أنس.

(٦) الإيضاح (٤٦٨).

﴿اتر المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسده بالسهر والحمد﴾<sup>(١)</sup>، قال القاضي عياض: “فتتشبيهه المؤمنين بالجسد الواحد تمثيل صحيح، وفيه تقريب للفهم وإظهار للمعاني في الصور المرئية”<sup>(٢)</sup>، ومن الاستعارات قوله عليه الصلاة والسلام: ((ارفق يا أنجشة . ويحك بالقوارير))<sup>(٣)</sup>، يريد النساء، وهذه استعارة لطيفة، شبهاهن بالقوارير لأمور ثلاثة: لماهن عليه من حفظ الأجنحة، والوعاء كالقارورة تحفظ ما فيها. ولا اختصاصهن بالصفاء والصقالة والحسن والنظارة.

ولما فيهن من الرقة والمسارعة إلى التغير والانثناء، كما يتسارع الانكسار إلى القارورة لرقتها<sup>(٤)</sup>. وتأمل كيف جمعت الاستعارة في الحديث هذه المعاني. كما تجد في البيان النبوى من بدائع البديع كالسجع والأسلوب الحكيم والجنس، كقوله ﷺ: ((إنما الماء من الماء))<sup>(٥)</sup>، إلى غير ذلك من الأنواع البلاغية التي يزخر بها الحديث، بل هي عمد بنيانه، وأسس أركانه، وليس الغرض الاستقصاء، وإنما التمثيل. كما كان عليه الصلاة والسلام يضرب الأمثال، وقد قالت البلغاء: ”إذا جعل الكلام مثلاً، كان ذلك أوضح للمنطق، وأبين في المعنى، وأنق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث“<sup>(٦)</sup>. ومن الشواهد النبوية على ذلك ما جاء في حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً: (أمثالكم كمثل رجل أخذ ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذبحن عنها وأنا آخذ بجزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي) <sup>(٧)</sup>، ويدرك بعض الباحثين أنه اجتماع في أمثال الرسول ﷺ أربعة أمور لم تجتمع في غيره من الكلام، وهي إيجاز اللفظ، وجودة الكناية، وحسن التشبيه، وإصابة المعنى<sup>(٨)</sup>.

(١) البخاري (٥٦٦٥) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٦) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) إكمال المعلم (٨٥٦) وفي المطبوع تحريف، وهو على الصحة في فتح الباري (٤٤٤/١٠).

(٣) رواه البخاري (٦٥٨٥٧.٥٨٥٦) ومسلم (٢٢٢٢)، عن أنس بن مالك، والله تعالى بخاري.

(٤) الطراز (٤٠٧/١).

(٥) رواه مسلم (٣٤٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٦) الأدب الكبير والأدب الصغير (٤).

(٧) رواه البخاري (٦١١٨) ومسلم (٢٢٨٥).

(٨) من روائع الأدب النبوى (٢٠٥).

وقد يستهل النبي عليه الصلاة والسلام حديثه بسؤال يستثير الحضور لجذب اهتمامهم، وتلقي ما يلقى إليهم بوعي. كقوله ﷺ في خطبة حجة الوداع: ((أيُّ يوم هذا؟ أيُّ بلد هذا؟ أيُّ شهر هذا؟))<sup>(١)</sup>. ثم بين لهم أن دماءهم وأموالهم وأعراضهم بينهم حرام كحرمة الثلاثة. قال القرطبي: ”وقوله: ((أيُّ يوم هذا؟)) و((أيُّ بلد هذا؟)) و((أيُّ شهر هذا؟))“ وسكته بعد كل واحد منها، كان ذلك منه استحضاراً لفهمهم، وتبنيها لغفلتهم، وتنويهاً بما يذكره لهم، حتى يقبلوا عليه بكليتهم، ويستشعروا عظمة حرمة ما عنه يخبرهم<sup>(٢)</sup>. وكما تميزت أحاديثه عليه الصلاة والسلام ببراعة الاستهلال، واستعمال أساليب الطلب واستمالة الأذهان، فقد تميزت كذلك ببراعة المقطع وحسن الخاتمة، وقد أشار إلى ذلك أبو موسى الأشعري  يقوله: ”كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم وخواتمه“<sup>(٣)</sup>. قال المناوي: ”خواتم الكلام يعني حسن الوقف، ورعاية الفواصل، فكان يبدأ كلامه بأعزب لفظ وأجزله وأفصحه وأوضحه، وبختمه بما يشوق السامع إلى الإقبال على الاستماع مثله، والحرص عليه“<sup>(٤)</sup>. ومن شواهد ذلك ما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهم عن رسول الله ﷺ فيما روی عن ربه تبارك وتعالى قال: ((إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات، إلى سبعين حسنة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة، ولا يهلك على الله تعالى إلا هالك))<sup>(٥)</sup>.

ففي قوله  : ((ولا يهلك على الله تعالى إلا هالك)) ختام حسن، لما فيه من الحث على العمل، وترك التسويف والتلواني، وفيه طي للمعنى المتقدم، وإصابة للغرض، بأحسن عبارة، وألطف إشارة.

(١) رواه البخاري (٦٧) ومسلم (١٦٧٩) عن أبي بكر رضي الله عنه.

(٢) المفہوم (٥ / ٤٧).

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (٥٣٧٦). قال محققته: ”إسناده صحيح“.

(٤) فيض القدير (١ / ٥٦٥).

(٥) رواه مسلم (١٣١).

وهناك أشياء تلفت النظر في حديثه عليه الصلاة والسلام، كمثل عفة لسانه ﷺ وبعده عن الأفاظ النابية والمكشوفة، والعبارات الخادشة للحياء، مع أنه عليه الصلاة والسلام . لاقتضاء التشريع . تحدث في مسائل خاصة كطهارة العورات، وفي العلاقات الزوجية، والقذف والملاعنة، ودعا إلى لزوم العفة والأدب في الكلام، وقصص من أخبار الأولين والآخرين، ومع ذلك لا تجد لفظا ساقطا، ولا كلمة مستهجنة في حديثه ﷺ . بل كان يستعمل الكنيات اللطيفة، أو الأفاظ الصريحة لكن لا من قرب، وخذ قوله ﷺ في التعبير عن أحد موجبات الغسل: ((إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل))<sup>(١)</sup>، وقصة الثلاثة أصحاب الغار حاكيا عن المرأة: ((اتق الله! ولا تفضض الخاتم إلا بحق))<sup>(٢)</sup>، كنى بالخاتم عن بكارتها، وأنها بمنزلة الشيء المختوم الذي لم ينكسر ختمه، وقوله ﷺ لجابر رضي الله عنه حين سأله من مكة إلى المدينة، وقد سأله عمن نكح، هل بکرا أو ثیبا؟ فقال له: ((إذا قدمت فالكيسَ الكيس))<sup>(٣)</sup>، كنى بذلك عن حسن التأني ولطيف المعاشرة، والحديث على ابتعاد الولد<sup>(٤)</sup>، وقوله ﷺ: ((من يضمن ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة))<sup>(٥)</sup>، إلى غير ذلك من الحديث، وهو امتداد لحسن خلقه قوله قولاً وفعلاً، وهو أيضاً مما يصدق قوله عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: ((لم يكن رسول الله ﷺ فاحشا ولا متفحشا))<sup>(٦)</sup>، الفاحش هو المتكلّم بالقبح، والمتفحش هو المتكلّف لذلك، أي لم يكن له الفحش خلقاً ولا مكتسباً، قاله ابن حجر<sup>(٧)</sup>.

ومن ذلك عناته ﷺ بإصلاح المنطق وتقويم اللسان، كقوله ﷺ: ((لا يقولون أحدكم: خبُثت نفسِي، ولكن ليقل: أَقِسْت نفسي))<sup>(٨)</sup>، ومعناهما واحد، أي غَنَت نفسِي، وسأء

(١) رواه الإمام أحمد (٢٦٠٢٥) وابن ماجه (٦٠٨) عن عائشة رضي الله عنها. وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٤٩٢)، وأصله في مسلم (٣٤٩).

(٢) رواه البخاري (٢١٠٢) ومسلم (٢٧٤٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري (١٩٩١) ومسلم (٧١٥) عن جابر رضي الله عنهما.

(٤) عameda القاري (٤٢٦/١٦).

(٥) رواه البخاري (٦١٠٩) عن سهل بن سعد رضي الله عنهما.

(٦) رواه البخاري (٣٢٦٦) ومسلم (٦١٧٧).

(٧) فتح الباري (٦/١٦٥).

(٨) رواه البخاري (٥٨٢٥) ومسلم (٢٢٥٠) عن عائشة رضي الله عنها.

خلقها، فكره لهم لفظ الغبّت لما فيه من القبح والشّناعة، وأرشدهم إلى استعمال الحسن، وهجران القبيح، وإبدال اللفظ المكروه بأحسن منه<sup>(١)</sup>، وغيره<sup>(٢)</sup> اسم حزن إلى سهل<sup>(٣)</sup>، كما غير اسم عاصية إلى جميلة<sup>(٤)</sup>، لما للاسم من تأثير على المسمى، وتفاؤلاً بالاسم الحسن، وكان<sup>(٥)</sup> يعجبه الفأل الحسن<sup>(٦)</sup>.

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام للخطيب الذي قال: من بطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال رسول الله ﷺ: ((بئس الخطيب أنت! قل: ومن يعص الله ورسوله))<sup>(٧)</sup>، فأنكر عليه تشريكه في الضمير المقتضي للتسوية، وأمره بالاعطف، تعظيمًا لله تعالى، وقيل: لأنه أوجر في مقام الإطناب، والله أعلم<sup>(٨)</sup>، وأحاديث هذا الباب كثيرة<sup>(٩)</sup>.

ومن أهم ما يلفت النظر ويستوقف الباحث مبتكرات الحديث<sup>(١٠)</sup>، وهي الأساليب الجديدة التي لم يسمع بها في كلام أحد قبل النبي ﷺ، وهي جديرة بالدرس والتحليل، وقد عنى بجمعها جماعة منهم الجاحظ في بيانه، حيث صدرها بقوله: "وستذكر من كلام رسول الله ﷺ مما لم يسبق إليه عربي، ولم يشاركه فيه أعمجي، ولم يدع لأحد، ولا ادعاء أحد، مما صار مستعملاً ومثلاً سائراً")<sup>(١١)</sup>، وابن دريد في المجننى، قال: "باب ما سمع من النبي ﷺ ولم يسمع من غيره من قبل")<sup>(١٢)</sup>، والقاضي عياض في الشفا، وقال: "وقد جمعتُ من كلماته التي لم يسبق إليها، ولا قدر أحد أن يفرغ في قالبه عليها")<sup>(١٣)</sup>.

(١) زاد المعاد (٣٥٦/٢).

(٢) رواه البخاري (٥٨٤٠) عن المسيب بن حزن رضي الله عنهم.

(٣) رواه مسلم (٢٣٩) عن ابن عمر رضي الله عنهم.

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٢٤٧٩).

(٥) رواه مسلم (٨٧٠) من حديث عدي بن حاتم رض.

(٦) نيل الأوطار (٦/٣٧).

(٧) من أوسع من جمعها الشيخ بكر أبو زيد في معجم المناهي اللغطية.

(٨) أطلقنا عليها هذا المصطلح مشابعة لابن عاشور في استعماله مصطلح مبتكرات القرآن، ينظر: تفسير التحرير والتنوير (١/١٢٠).

(٩) البيان والتبيين (٢/١٥).

(١٠) المحتن (٨).

(١١) الشفا (١/١٠٤).

وغيرهم.

ومن هذه الأحاديث قوله ﷺ: ((حمي الوطيس))<sup>(١)</sup>، وقوله ﷺ: ((اليلدغ المؤمن من حمر مرتين))<sup>(٢)</sup>، وفي المسلم والكافر: ((الاتراعى ناراهم))<sup>(٣)</sup>، ومن العلماء وشرح الحديث من ينبه إلى هذه المبتكرات، فيضيف إلى ما ذكره السابقون، كابن الأثير الذي قال عند قوله ﷺ: ((وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو على مناخرهم، إلا حصائدُ ألسنتهم))<sup>(٤)</sup>، قال: "شبه الألسنة وما تمضي فيه من الأحاديث التي يؤاخذ بها، بالمناجل التي تحصد النبات من الأرض، وهذا تشبيه بلغ عجيب لم يسمع إلا من النبي ﷺ"<sup>(٥)</sup>، وكابن عاشور، الذي يقول عند حديث أبي موسى رضي الله عنه: ((قطعتم ظهر الرجل))<sup>(٦)</sup>: "هذا من بلغ الكلام النبوى، ولم أعرف له سابقا في كلام العرب، فهو مما انفرد به الرسول ﷺ وهو تمثيل بديع"<sup>(٧)</sup>، ثم شرع في شرحه وتحليله. وإن هذه المبتكرات في الحديث بحاجة إلى درس وتحليل بعد جمعها، وإثبات الصحيح منها.

ومما يستوقف المتأمل أن الرسول ﷺ على كونه تبواً من الفصاحة ذروتها، واقتعد من البلاغة مكان صهوتها، إلا أنه لا يفخر بذلك، ولا يفاخر، ولا يطأول به الخطباء، أو يتحدى به الشعراء، كما هي العادة عند البلوغ المتصرفين في فنون القول، كيف وقد أُوتى ﷺ ما هو أعظم من ذلك فلم يفخر به، وهو السيادة الإنسانية المطلقة، قال عليه الصلاة والسلام: ((أنا سيد ولد آدم، ولا فخر))<sup>(٨)</sup>، فأما قوله عليه الصلاة والسلام: ((أعطيت جوامع

(١) رواه مسلم (١٧٧٥) عن العباس بن عبد المطلب ﷺ.

(٢) رواه البخاري (٥٧٨٢) ومسلم (٢٩٩٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه أبو داود (٢٦٤٥) والترمذى (١٦٠٤) عن جرير رضي الله عنه، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبي داود (٢٣٠٤).  
وينظر: غريب الحديث للخطابي (٦٤).

(٤) رواه الإمام أحمد (٢٢٠١٦) و(٢٢٠٦٢) والترمذى (٢٦١٦) وقال: "حسن صحيح"، وابن ماجه (٢٩٧٢) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى (٢٢١٠) وصحح ابن ماجه (٣٢٠٩).

(٥) المثل السائىر (٢٤١) (طبعة بولاق سنة ١٢٨٢هـ) وقد سقطت هذا النص من النسخة التي اعتمدتها في البحث، من قوله: "وهذا تشبيه" إلخ.

(٦) رواه البخاري (٢٥٢٠) ومسلم (٣٠٠١).

(٧) النظر الفسيح (٣٠٨).

(٨) رواه ابن حبان في صحيحه (٦٤٧٥ و ٦٤٧٦) عن وائلة بن الأصفع رضي الله عنه، قال محققته: "إسناده صحيح على شرط الصحيح، وجاء عند مسلم (٢٢٧٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه: ((أنا سيد ولد آدم يوم القيمة))."

الكلم)<sup>١٠</sup> فهو من قبيل فائدة الخبر، كما يقول البلاغيون، أي مجرد الإخبار، وليس الغرض الفخر قطعا.

#### عناية البلاغيين بالحديث النبوى:

لقد كان تأثير النبي ﷺ في اللغة العربية بينا لا يجهل، وذلك بما أمدتها من هذه الثروة الحديثية الضخمة، المشتملة على أفعص الألفاظ، وأبلغ الأساليب، وقد كان الحديث النبوى رافداً مهماً في إثبات لغة العرب، ولقد جعل ابن منظور كتاب النهاية في غريب الحديث ابن الأثير أحد المصادر الخمسة التي اعتمدتها في إثبات اللغة في سفره العظيم لسان العرب، ويمكن إجمال أثر الحديث النبوى في اللغة في جهات ثلاث: الأولى: أنه كان أحد المصادر الكبرى في تدوين اللغة، كما يرى في كل المعجمات، حيث يستدل اللغويين بالحديث، كما يستدلون بالقرآن وبكلام العرب الخلص شعره ونثره.

الثانية: أن الحديث كان أحد عوامل تطور اللغة وتراثها، وذلك بإكساب الألفاظ دلالات جديدة أوسع من دلالاتها الأصلية، وباحتتمال الحديث على الأفاظ مبتكرة وجمل لم تسمع من قبل، والعلماء ينبهون على ذلك في محله<sup>١١</sup>.

الثالثة: أن البحث في لغة الحديث وغريبه بخاصة صار ميداناً خصباً من ميادين البحث اللغوي لعلماء العربية وغيرهم، ووضع علماء مصطلح الحديث من ضمن علومه علم الغريب، وقد أثمرت جهود العلماء في دراسة غريب الحديث ثمرات عظيمة، ومن ذلك ظهور المصنفات الكثيرة التي تحمل اسم غريب الحديث، لأئمة أعلام منهم ابن قتيبة وإبراهيم الحربي والخطابي وابن الأثير، وكلها مطبوعة، وقد عالجوا فيها قضايا نحوية ولغوية وصرفية، ومسائل أخرى من علم أصول اللغة.

وأما البلاغيون فقد عنوا قدماً وحديثاً بالحديث النبوى واحتفوا به، وما فتئوا يوصون الكتاب والشureau وسائل البلوغ بالاستكثار من حفظ الأحاديث إلى جانب حفظ القرآن لقوى أساليبهم ولينفقوا منها عن سعة، وجعلوا ذلك من أسباب الإبداع في

(١) متفق عليه وهذا الفظ مسلم، وتقدم تحريره.

(٢) نقل ابن الأثير عن ابن الأثير قوله: "وكذلك أشياء كثيرة لم تسمع إلا في الحديث" النهاية (٥/٢٥٨) وينظر أيضاً: (٢/٤٣)

الكتابة، كما جعلوه في مقدم ما يحتاج إليه من الآلات في صناعة الإنشاء، قال شهاب الدين الحلبـي: ”أول ما يبدأ به من ذلك . أي طالب صناعة الكتابة والإنشاء . حفظ كتاب الله وإدامة قراءته، ويتنـلـ ذلك الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية طـلـوات اللـه عـلـى قـاتـلـها وسلامـهـ، وخصوصـاـ في السـيـرـ والمـغـازـيـ والأـحـكـامـ، والنـظرـ في معـانـيـهاـ وغـرـيـبـهاـ وفصـيـحـهاـ“<sup>(١)</sup>.

وقـالـ ابنـ الأـثـيرـ الحـلـبـيـ: ”ولـيـسـ لـهـ وـصـوـلـ . أـيـ المـنـشـئـ وـالـبـلـيـغـ . إـلـىـ بـلـوغـ مـقـاصـدـهـ مـخـاطـبـةـ كـلـ أـحـدـ بـمـاـ يـلـيقـ بـهـ وـالـتـمـكـنـ فـيـ صـنـاعـتـهـ إـلـاـ إـذـاـ اـسـتـعـدـ لـذـكـ بـتـحـصـيلـ أـصـوـلـ يـرـجـعـ إـلـيـهـ، فـمـنـهـ: أـنـ يـحـفـظـ كـتـابـ اللـهـ تـعـالـىـ، وـمـنـهـ أـنـ يـحـفـظـ جـمـلـةـ مـنـ الـأـحـادـيثـ الـنـبـوـيـةـ، لـفـائـدـتـيـنـ، إـحـدـاهـمـاـ تـبـرـكـاـ بـالـحـدـيـثـ، وـالـثـانـيـةـ: السـلـوـكـ بـهـ مـسـلـكـ كـتـابـ اللـهـ العـزـيزـ باـسـتـعـماـلـهـ فـيـ مـطـاـوـيـ كـلـامـهـ مـكـانـ الـاستـشـهـادـ بـهـ“<sup>(٢)</sup>.

وقـالـ الطـوـفـيـ (تـ ٧٦٦ـ): ”الـنـوـعـ السـادـسـ وـالـسـابـعـ: حـفـظـ الـكـتـابـ وـجـمـلـةـ صـالـحةـ مـنـ السـنـةـ لـيـسـتـعـمـلـ لـذـكـ فـيـ غـضـونـ كـلـامـهـ تـضـمـنـاـ وـتـلـمـيـحاـ وـاسـتـشـهـادـاـ، كـمـاـ فـعـلـ اـبـنـ نـبـاتـهـ فـيـ خـطـبـهـ، فـإـنـ لـذـكـ رـوـنـقاـ عـظـيـمـاـ عـلـىـ الـكـلـامـ، وـيـتـسـلـطـ إـلـيـهـ الـإـنـشـاءـ بـالـنـظـرـ فـيـ عـجـائبـ مـاـ اـشـتـملـاـ عـلـيـهـ مـنـ الفـصـاحـةـ عـلـىـ اـسـتـخـرـاجـ فـوـاـدـ جـمـةـ“<sup>(٣)</sup>.

وـحـينـ ذـكـرـ ضـيـاءـ الـدـيـنـ اـبـنـ الـأـثـيرـ حـاجـةـ الـبـلـيـغـ وـالـبـلـاغـيـ إـلـىـ حـفـظـ الـحـدـيـثـ الـنـبـوـيـ وـاسـتـظـهـارـهـ ذـكـرـ تـجـرـيـةـ لـهـ عـنـ نـفـسـهـ، وـكـانـ مـنـ الـكـتـابـ الـمـتـرـسـلـيـنـ، وـقـدـ وـلـيـ الـوـزـارـةـ وـالـكـتـابـةـ لـلـمـلـكـ الـأـفـضـلـ اـبـنـ صـلـاحـ الـدـيـنـ، ثـمـ صـارـ كـاتـبـ الـإـنـشـاءـ لـصـاحـبـ الـمـوـصـلـ مـحـمـودـ بـنـ عـزـ الدـيـنـ مـسـعـودـ<sup>(٤)</sup>، يـقـولـ اـبـنـ الـأـثـيرـ: ”وـكـنـتـ جـرـدتـ مـنـ الـأـخـبـارـ الـنـبـوـيـةـ كـتـابـاـ يـشـتمـلـ عـلـىـ ثـلـاثـةـ آـلـافـ خـبـرـ، كـلـهـاـ تـدـخـلـ فـيـ اـسـتـعـماـلـ، وـمـاـ زـلـتـ أـوـاـظـبـ عـلـىـ مـطـالـعـتـهـ مـدـةـ تـرـيدـ عـلـىـ عـشـرـ سـنـيـنـ، فـكـنـتـ أـنـهـيـ مـطـالـعـتـهـ فـيـ كـلـ أـسـبـوـعـ مـرـةـ، حـتـىـ دـارـ عـلـىـ نـاظـريـ وـخـاطـرـيـ مـاـ يـزـيدـ عـلـىـ خـمـسـ مـئـةـ مـرـةـ، وـصـارـ مـحـفـوظـاـ لـيـشـذـ عـنـيـ مـنـهـ شـيـءـ، وـهـذـاـ الـذـيـ

(١) حـسـنـ التـوـسـلـ (٧٨.٧٢ـ)، وـنـقلـهـ عـنـهـ الـقـالـقـشـنـدـيـ فـيـ صـبـحـ الـأـعـشـىـ (٢٠١/١ـ).

(٢) جـوـهـرـ الـكـنـزـ (٢٩ـ).

(٣) الـإـكـسـيـرـ (٥٦ـ)، وـهـوـ تـلـخـيـصـ وـتـهـذـيـبـ لـكـلـامـ اـبـنـ الـأـثـيرـ فـيـ الـمـثـلـ السـاـئـرـ (٤٠/١ـ).

(٤) الـأـعـلـامـ (١٢٥/٧ـ).

أوردته هنا في حل معاني الأخبار هو من هناك<sup>(١)</sup>.

ومن دلائل حفاظة البلاغيين بالحديث أنهم يستشهدون به على إثبات القواعد البلاغية في علوم البلاغة الثلاثة المعاني والبيان والبديع، كما يرى ذلك في جمهرة كتب هذا الفن وأصولها، كالصناعتين للعسكري (ت ٣٩٥هـ) والدلائل والأسرار لعبد القاهر (ت ٧٤٤هـ) والإيضاح للخطيب القرزيوني (ت ٧٢٩هـ) والتبيان للطبي (ت ٦٢٨هـ) في المثل السائر، والعلوي (ت ٧٤٩هـ) في الطراز، حيث استشهدوا بعشرات الأحاديث، وكان منهج العلوي أنه يورد على كل قاعدة شواهد من القرآن ثم من الحديث ثم من كلام العرب نثره وشعره، وإن كان يؤخذ عليهم شيء فهو تساهل كثير منهم في إيرادهم للأحاديث الضعيفة، وذلك ظاهر بجلاء عند العلوي، ولعل سبب ذلك - والله أعلم - أنه ليس من المستغلين بعلم الحديث<sup>(٢)</sup>.

وكذا صنع كثيراً من كتب في البلاغة اليوم في الاستشهاد بالحديث، وأجل من رأيت في ذلك الدكتور فضل حسن عباس وفقه الله، في كتابه البلاغة فنونها وأفاناتها، ومنهجه قريب من العلوي صاحب الطراز.

ومهما يكن فإن موقف البلاغيين بعامة من الحديث خير من النحويين فإن كثيراً من هؤلاء لا يستشهدون بالحديث عند إثبات الأحكام النحوية وتدوين القواعد العربية، أو تشددوا في قبوله، لزعمهم أن الحديث ليس عين كلام النبي ﷺ، وإنما هو مروي بالمumen، وأن الرواية كثير منهم أعمى، فيحتمل أنهم تصرفوا في النقل.

وهذا الكلام لا يسلم على إطلاقه، بل لامهم عليه جماعة من علماء الإسلام الكبار، ومنهم أبو إسحاق الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) في شرحه لألفية ابن مالك، حيث ذكر أن النحاة يستشهدون بكلام أجلاف العرب وسفهائهم، وبأشعارهم التي فيها ذكر الخنا والفحش، ويتركون الأحاديث الصحيحة لأنها تنقل بالمعنى<sup>(٣)</sup>، ونقول أيضاً: إن

(١) المثل السائر (١٥٠ / ١).

(٢) ينظر: مقدمة الطراز (٥٠ / ١) للباحث عبد المحسن العسكري رسالة دكتوراه غير منشورة في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام.

(٣) المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية (٤٠٢ / ٢).

الأشعار يقع فيها التغيير والاختلاف، وكم من بيت مستشهد به تعددت روایاته! وكثير من رواة الأشعار أصولهم أعممية، هذا، وقد استشهد بالحديث طائفة من أكابر النحاة بتوسيع واعتمدوه، كجمال الدين ابن مالك (ت ٦٧٢ هـ) وابن هشام الأنطاري (ت ٧٦١ هـ) والدماميني شارح المغني والتسهيل (ت ٨٢٧ هـ). وقد وقف هذا الأخير في وجه أبي حيان الذي أنكر على ابن مالك كثرة استشهاده بالحديث، ويعجبني أن أسوق كلامه على طوله لما فيه من الإفادة والتحقيق: قال الدماميني رحمه الله: *قد أكثر المصنف*. أي ابن مالك . من الاستدلال بالأحاديث النبوية على إثبات الأحكام النحوية، وشنع أبو حيان عليه<sup>١)</sup>، وقال: إن ما استند إليه من ذلك لا يتم له، لطرق احتمال الرواية بالمعنى إلى ما يستدل به من تلك الأحاديث، فلا يوثق بأن ذلك المحتاج به لفظه عليه الصلاة والسلام حتى تقوم به الحجة، وقد أجريت ذلك لبعض شيوخنا، فصوب رأي ابن مالك فيما فعله من ذلك، بناء على أن اليقين ليس بمطلوب في هذا الباب، وإنما المطلوب غلبة الظن الذي هو مناط الأحكام الشرعية، وكذلك ما يتوقف عليه من نقل مفردات الألفاظ وقوانيين الإعراب، فالظن في ذلك كله كاف، ولا يخفى أنه يغلب على الظن أن ذلك المنقول المحتاج به لم يبدل، لأن الأصل عدم التبديل، لاسيما والتشديد في الضبط والتحرى في نقل الأحاديث شائع بين النقلة والمحدثين، ومن يقول منهم بجواز النقل بالمعنى إنما هو عنده بمعنى التجويز العقلي، الذي لا ينافي وقوع نقبيضه<sup>٢)</sup>، فلذلك تراهم يتحررون في الضبط، ويتشددون، مع قولهم بجواز النقل بالمعنى، فيغلب على الظن من هذا كله أنها لم تبدل، ويكون احتمال التبديل فيها مرجحاً فيلاً، ولا يقبح في صحة الاستدلال بها، ثم إن الخلاف في جواز النقل بالمعنى إنما هو فيما لم يدون في الكتب، وأما ما دون

(١) في شرحه للتسهيل المسمى التذليل والتكميل (مخطوط) (ج ٥ ورقة ١٦٩/١).

(٢) جاء عند البغدادي - الذي نقل النص - في الخزانة (١٤/١) *"لا ينافي وقوع نقبيضه"*. ولعل الصواب: *"ينافي وقوع نقبيضه"*. وهذا الوجوب والامتناع، فالجائز هو الممكن وجوده وعدمه، وما كان كذلك فلا يكون واجباً ولا ممتنعاً. هذا على تقدير أن الضمير المجرور يعود إلى التجويز العقلي. وإن قدر أن الضمير يعود إلى جواز أي إمكان - الرواية بالمعنى، فنقبيضه جواز الرواية باللفظ. وهذا الاحتمال هو الائق بالمقام، ويكون الصواب (نقبيضه) بالإفراط. كما جاء عند البغدادي، فالقول بجواز الرواية بالمعنى لا ينافي وقوع نقبيض الرواية بالمعنى. اهـ. قال ذلك كله شيخنا عبد الرحمن البراك حفظه الله.

وجعل في بطون الكتب، فلا يجوز تبديل ألفاظه من غير خلاف بينهم في ذلك<sup>(١)</sup>. ثم أورد الدماميني قول ابن الصلاح في مقدمته. بعد أن ذكر اختلافهم في نقل الحديث بالمعنى : "إن هذا الخلاف لا نراه جاريا، ولا أجراه الناس فيما نعلم فيما تضمنته بطون الكتب، فليس لأحد أن يغير لفظ شيء من كتاب مصنف، ويثبت فيه بدله لفظا آخر معناه، بل الرواية بالمعنى رخص فيها من رخص، لما كان عليهم في ضبط الألفاظ والجمود عليها من الحرج والنصب، وذلك غير موجود فيما اشتملت عليه بطون الأوراق والكتب"<sup>(٢)</sup>.

ثم قال الدماميني: "وتدون الأحاديث والأخبار، بل وكثير [من] المرويات وقع في الصدر الأول قبل فساد اللغة العربية، حين كان كلام أولئك المبدلين . على تقدير تبديلهـ . يسوغ الاحتجاج به، وغايتها يومئذ تبديل لفظ يصح الاحتجاج به بلفظ يصح الاحتجاج به، فلا فرق بين الجميع في صحة الاستدلال، ثم دون ذلك المبدل على تقدير التبديل، ومنع من تغييره ونقله بالمعنى، كما قال ابن الصلاح، فبقي حجة في بابه صحيحة، ولا يضر توهם ذلك الاحتمال السابق في شيء من استدلالهم المتأخر، والله أعلم بالصواب"<sup>(٣)</sup>.

إن كلام الدماميني هذا فيه تحرير وإنصاف، ولذا تناقله من جاء بعده من عرض للمسألة، وخلصوا إلى أن الحديث إذا ثبت عن النبي ﷺ بنقل الآثار، باللفظ أو بالمعنى، برواية العرب أو العجم، فإنه يجب الاحتجاج به، وسلك هذا المسلك كثير من المتأخرین، وذكر ابن الطيب الفاسي أن هذه هي طريقة ابن مالك، وأنه قد وافقه عليهـ جل المتأخرین أو كلامـ<sup>(٤)</sup>.

ومما يجدر قوله أن رواية الحديث بالمعنى وإن كانت جائزة بشروطها المعروفة عند علماء السنة<sup>(٥)</sup>، إلا أن هناك جمهرة كبيرة جدا من الأحاديث نقطع يقينا أنها نقلت إلينا بألفاظها التي صدرت من فمه الشريف ﷺ دون تغيير، فهذه لا ينبغي أن تكون موضع

(١) تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد (٤/٤٢٤).

(٢) مقدمة ابن الصلاح (٦٩٣).

(٣) تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد (٤/٢٤٢.٢٤٣).

(٤) فيض نشر الانشراح (١/٤٢)، وينظر: ارتکاز الفكر النحوی على الحديث والأثر (٨٤).

(٥) مقدمة ابن الصلاح (٦٩٣)، تدريب الراوي (٢/٩٨).

خلاف، بل يجب الاحتجاج بها، لأنه قد عرف اعتناء ناقلها بلفظها المقصود خاص، وقد نبه إليها الشاطبي في إشارة ذكية منه<sup>(١)</sup>، ولخصها الشيخ محمد الخضر حسين في صور ست<sup>(٢)</sup>، ويكن صوغها في أنحاء أربع، ها أنا أذكرها مستدلاً لها، وأشفعها بالشاهد، فإن الشيخ رحمة الله ساقها غفلاً من الاستدلال والاستشهاد:

الأول: ما يروى من الحديث بقصد الاستدلال على كمال فصاحته ، وبلوغه أعلى ما يمكن لبشر أن يبلغه من حكمة البيان، فإن من المعلوم أن الرواة سينقلون ألفاظ الحديث كما هي لثلا تفوت بлагاته، كقوله : ((جمي الوطيس))<sup>(٣)</sup>، وقوله عليه الصلاة والسلام: ((الظلم ظلمات يوم القيمة))<sup>(٤)</sup>، ومن هذا القبيل الأمثال النبوية، والكلمات الحكيمية السائرة، كقوله : ((أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب))<sup>(٥)</sup>، وقوله : ((الناس كإبل مائة، لا يجد الرجل فيها راحلة))<sup>(٦)</sup>

الثاني: الأحاديث التي يتبعده بألفاظها، كأحاديث الدعاء والأذكار، وأدعية الصلاة، قال ابن مسعود: ((علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم التشهد كفي بين كفيه كما يعلمني السورة من القرآن))<sup>(٧)</sup>، ولما علم النبي عليه الصلاة والسلام البراء رضي الله عنه دعاء النوم وفيه: ((آمنت بنبيك الذي أرسلت)) قال البراء حين جعل يعيدها لاستذكرة: ورسولك، فقال له النبي : ((لا، ونبيك الذي أرسلت))<sup>(٨)</sup>. فهذا النوع لا يقع فيه تغيير أبداً، لأنه مقصود متبعده بلفظه<sup>(٩)</sup>.

الثالث: الأحاديث المتواترة، وهي التي رواها عن النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة، وروها عنهم جماعة من التابعين، وهكذا من بعدهم عنهم، فتعدد طرق

(١) المقاصد الشافية (٤٠٣/٣).

(٢) دراسات في العربية وتاريخها (١٧٧).

(٣) تقدم تخریجه، وهو في صحيح مسلم.

(٤) رواه البخاري (٢٣١٥) ومسلم (٢٥٧٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) رواه البخاري (٢٧٠٩) ومسلم (١٧٧٦) عن البراء بن عازب .

(٦) رواه مسلم (٢٥٤٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٧) رواه البخاري (٨٠٠) ومسلم (٤٠٢) واللفظ له.

(٨) رواه البخاري (٢٤٤) ومسلم (٢٧١).

(٩) قال ابن حجر في فتح الباري (١٥٥/٨): "الأقوال المنصوصة إذا تُعبد بلفظها لا يجوز تغييرها ولو وافق المعنى".

الرواية مع اتحاد ألفاظ الحديث يفيد الجزم بأن هذا المروي هو كلام النبي ﷺ نفسه، كحديث ((من كذب علي متعتمداً فليتبواً مقعده من النار))<sup>(١)</sup>، فقد رواه عن النبي ﷺ واحد وستون رجلاً من الصحابة<sup>(٢)</sup>، ورواه عنهم خلائقه. وللكثاني (ت ١٤٥ هـ) نظم المتناثر من الحديث المتواتر، وهو مطبوع.

الرابع: الأحاديث التي جاءت مسلسلة بالرواة من العرب الفصحاء لأحاديث المدنيين والمكيين واليمانيين، وهناك طرق رواتها مشهورون بالفصاحة، ومتانة الدين، وشدة التحري والضبط، كما في طريق سهيل بن صالح عن همام بن منبه عن أبي هريرة، وطريق مالك عن سالم عن ابن عمر، وكثيرٌ من أحاديث الموطأ على هذه الجادة، ومالك رحمه الله لم يخرج من المدينة للرواية، فشيوخه مدنيون، وفصاحة الرواة وكونهم من العرب هو مما يصح به الحديث عند النقاد وعلماء العلل، وتعتبر بذلك أفالظه، قال أبو عبد الله الحاكم (صاحب المستدرك) عن حديث ساقه: "رواة هذا الحديث كلهم عربيون غير أبي حازم، فإنه سلمة بن دينار، ودينار عبد"<sup>(٣)</sup>، وقال ابن عبد البر حافظ المغرب في الحديث: "رواته، أي الحديث المذكور، عرب فصحاء"<sup>(٤)</sup>، قال ذلك ردًا على من شك في لفظة في الحديث.

فهذه الأنواع الأربع يجب الاحتجاج بها مطلقاً، وأن تجعل في إثبات القواعد الكلية كالقرآن<sup>(٥)</sup>، ولا ريب أنه يندرج في هذه الأنواع جمهرة كبيرة من الحديث، تمنح الثقة بالجملة والجمل في الحديث، وتفرض على النحوى الأخذ به، وتعزز جانب الفائلين بوجوب الاستشهاد بالأحاديث.

وإنما أطلت الوقوف في هذه المسألة لما لها من الأهمية البالغة في البيان النبوى، ورفع الارتياب في أفالظه.

وإلى هنا ينتهي القول فيما أردت، وأسأل الله أن يغفر لي ما فيه قصرت، والحمد لله كفاء نعمته، والصلوة والسلام على نبيه المبعوث بهداه ورحمته.

(١) رواه البخاري (١٢٢٩، ١٠٧) عن الزبير والمغيرة رضي الله عنهما، ومسلم (٣٠٠٤) عن أبي سعيد رض، وينظر: منهاج السنة (٣٨٦/٧).

(٢) قال ذلك ابن الجوزي في مقدمة الموضوعات (١/١٥)، وينظر: مقدمة ابن الصلاح (٤٤).

(٣) معرفة علوم الحديث (٥٥٤).

(٤) الاستذكار (٤/٣٨٩).

(٥) فيض نشر الانشراح (١/٤٥٦).

## مراجع معالم البيان في الحديث النبوى<sup>(١)</sup>:

- ١- إحكام صنعة الكلام: أبو القاسم الكلاعي، تحقيق محمد رضوان الديا، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
- ٢- الإحکام في أصول الأحكام: ابن حزم الظاهري، تصحيح أحمد شاکر، مطبعة مصر، مصر.
- ٣- الأدب الكبير والأدب الصغير: ابن المقفع، دار صادر، بيروت.
- ٤- ارتکاز الفكر النحوی على الحديث والأثر في كتاب سیبويه: د. محمود فجال، مطابع شرقان الغامدي، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.
- ٥- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: الشوکاني، تحقيق محمد صبحي حلاق، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ٦- إرواء الغليل في تحریج أحادیث منار السبیل: الألبانی، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
- ٧- أساس البلاغة: الزمخشري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، الطبعة الثالثة.
- ٨- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز: بديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، نسخة حاسوبية، المكتبة الشاملة (٢).
- ٩- الاستذکار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار: ابن عبد البر، تحقيق عبد المعطي قلعي، دار قتبة، دمشق، دار الوعي، حلب، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- ١٠- أصول الحديث علومه مصطلحه: محمد عجاج الخطيب، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ.
- ١١- أصول الفقه: محمد أبو زهرة، دار المعارف، مصر.
- ١٢- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعی، مطبعة المقتطف والمقطمر، مصر، الطبعة الثالثة، ١٣٤٦هـ.
- ١٣- إعجاز والإيجاز: الثعالبي، تحقيق د.محمد التونجي، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

(١) ما ذكر دون تاريخ فهو هكذا في الأصل.

- ١٤- إعلام الموقعين عن رب العالمين: ابن القيم، تحقيق مشهور آل سلمان، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى. ١٤٢٣هـ.
- ١٥- الأعلام: الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.
- ١٦- الاقتباس أنواعه وأحكامه: د. عبد المحسن العسكري، دار المنهاج، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
- ١٧- اقتضاء الصراط المستقيم: شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق ناصر العقل، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ.
- ١٨- الإكسير في علم التفسير: الطوفي، تحقيق د. عبد القادر حسين، المطبعة النموذجية، مصر.
- ١٩- إكمال المعلم بفوائد مسلم: القاضي عياض، تحقيق د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- ٢٠- الإيضاح في علوم البلاغة: القزويني، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٠٥هـ.
- ٢١- البداية والنهاية: ابن كثير، تحقيق د. عبد الله التركي، هجر للطباعة والنشر، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ٢٢- بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم: علي العماري، دار الأنطارات، القاهرة.
- ٢٣- البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ٢٤- تاج العروس: الزبيدي، المطبعة الخيرية، مصر، ١٣٠٦هـ.
- ٢٥- ترثي الراوي في شرح تقريب النواوي، الجلال السيوطي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة الرياض الحديثة.
- ٢٦- التذليل والتكميل في شرح التسهيل: أبو حيان، مخطوط في دار الكتب المصرية برقم ٦٢ نحو (ومنه مصورة في مكتبة جامعة الإمام) (برقم ف ٧٣٢٤ و ٧٣٢٥ و ٧٣٢٧ و ٧٣٢٦).
- ٢٧- الترغيب والترهيب: المنذري، ضبطه مصطفى محمد عمارة، دار الفكر، لبنان، ١٤٠١هـ.
- ٢٨- تعاشيب: عبد الله كنون (دون معلومات).
- ٢٩- تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد: الدمامي، تحقيق د. محمد المفدي، الطبعة الأولى.

- ٣٠- تفسير التحرير والتنوير: ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- ٣١- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ضبطه حسين زهران، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ.
- ٣٢- التفسير الكبير: فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت.
- ٣٣- تفسير المنار: محمد رشيد رضا، تصوير دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٢٩٣هـ.
- ٣٤- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: ابن عبد البر، تحقيق مصطفى العلوي وجماعة، نشر وزارة الأوقاف المغربية، بدءاً من سنة ١٣٨٧هـ.
- ٣٥- تهذيب اللغة: الأزهري، تحقيق عبد السلام هارون وجماعة، المؤسسة المصرية العامة، ١٣٨٠هـ.
- ٣٦- جامع الترمذى: تحقيق أحمد شاكر، مطبعة مصطفى البابى الحلبي، الطبعة الثانية، مصر ١٣٩٦هـ.
- ٣٧- الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، تحقيق د. عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- ٣٨- الجامع لشعب الإيمان: البيهقي، تحقيق عبد العلي حامد، إدارة الشؤون الإسلامية، ١٤٢٩هـ، قطر.
- ٣٩- الجرح والتعديل: ابن أبي حاتم، تصوير دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٤٠- الجليس الصالح الكافي: المعاون الجرجيري، تحقيق د. أحسان عباس، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- ٤١- جوهر الكنز: ابن الأثير الحلبي، تحقيق محمد زغلول، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- ٤٢- جوهر الكنز: ابن الأثير، تحقيق د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- ٤٣- حاشية السندي على سنن ابن ماجه: المطبعة العلمية، الطبعة الأولى، مصر ١٣١٣هـ.
- ٤٤- حاشية السندي على مسنن الإمام أحمد: اعنى به نور الدين طالب، إصدار وزارة الأوقاف بقطر، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.
- ٤٥- حسن التوسل إلى صناعة الترسل: شهاب الدين الحلبي، تحقيق د. أكرم عثمان يوسف، دار الحرية، بغداد، ١٩٨٠م.
- ٤٦- دراسات في العربية وتاريخها: محمد الخضر حسين، المكتب الإسلامي، دمشق.

الطبعة الثانية، ١٤٨٠هـ.

- ٤٧- ديوان المتنبي (مع شرحه التبيان المنسوب للعكברי)<sup>(١)</sup>: تصحيح مصطفى الزرقا وزميله، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٥٥هـ.
- ٤٨- الرسالة: الإمام الشافعي: تحقيق أحمد شاكر، دار التراث، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.
- ٤٩- رعاية حال المخاطب في الصحيحين (رسالة دكتوراه غير منشورة): يوسف العليوي، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام، العام الجامعي، ١٤٢٨، ١٤٢٩هـ.
- ٥٠- الروض الأنف في شرح السيرة: السهيلي، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤١٠هـ.
- ٥١- زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن القيم، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة عشرة، ١٤٠٧هـ.
- ٥٢- زهر الآداب وثمر الآداب: الحصري، تحقيق إبراهيم الجاجاوي، دار إحياء الكتب العربية، مصر، الطبعة الثانية.
- ٥٣- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: الصالحي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وزميله، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٤هـ.
- ٥٤- سلسلة الأحاديث الصحيحة: ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- ٥٥- السنة قبل التدوين: د. محمد عجاج الخطيب، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.
- ٥٦- سنن ابن ماجه: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مصر.
- ٥٧- سنن أبي داود: تعليق عزت الدعاس وزميله، دار الحديث، حمص، الطبعة الأولى، ١٣٩٤هـ.
- ٥٨- سنن الدارقطني: تصحيح عبد الله هاشم، دار المحاسن، القاهرة.
- ٥٩- سنن النسائي: اعتنى به عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب،

(١) راجع الدكتور مصطفى جواد أن هذا الشرح لأبي الحسن عفيف الدين بن عدлан. ينظر: مجلة مجمع اللغة بدمشق (م٢٢، ج١٢).

- الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.
- ٦٠- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: د. مهدى رزق الله أَحمد، دار إمام الدعوة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ.
- ٦١- السيرة النبوية: ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وزميله، مطبعة مصطفى البابي الحلبى، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ.
- ٦٢- شرح أحاديث من صحيح البخارى: د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ٦٣- شرح أصول اعتقاد أهل السنة: الالكائى، تحقيق أَحمد الغامدي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٢٥هـ.
- ٦٤- شرح الأربعين النووية: الشيخ محمد بن عثيمين، دار الثريا للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٣٢٤هـ.
- ٦٥- شرح صحيح البخارى: ابن بطال، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- ٦٦- شرح الموطأ: الزرقانى، المطبعة الخيرية، مصر، ١٣١٠هـ.
- ٦٧- الشعر والشعراء: ابن قتيبة، تحقيق أَحمد شاكر، دار المعارف، مصر.
- ٦٨- الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ: القاضي عياض، تحقيق علي محمد البجاوى، مطبعة عيسى البابى الحلبى، مصر.
- ٦٩- صبح الأعشى في صناعة الإنسنا: القلقشندي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر.
- ٧٠- صبح الأعشى في صناعة الإنسنا: القلقشندي، مصورة الطبعة الأميرية، مصر.
- ٧١- صحيح ابن حبان: تحقيق شعيب الأنزاوى، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
- ٧٢- صحيح الترغيب والترهيب: الألبانى، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.
- ٧٣- صحيح سنن ابن ماجه: الألبانى، المكتب الإسلامى، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ٧٤- صحيح سنن أبي داود: ناصر الدين الألبانى، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

- ٧٥- صحيح سنن الترمذى: ناصر الدين الألبانى، المكتب الإسلامى، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ٧٦- ضوء الصباح على ترجيز المصباح (مخطوط): محمد بن عبد الرحمن المراكشى الضرير، موجود بمكتبة الأسكندرية برقم (٢١٩) وعنه مصورة في مركز جمعة الماجد برقم (٥٠٦).
- ٧٧- ضوابط الترجيح عند وقوع التعارض لدى الأصوليين: بنيونس الولي، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
- ٧٨- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: العلوى، مطبعة المقتطف، مصر، ١٣٢٢هـ.
- ٧٩- الطراز: العلوى، تحقيق عبد المحسن العسكر (رسالة دكتوراه غير منشورة)، كلية اللغة العربية، الرياض، ١٤٢٠هـ.
- ٨٠- طرح التثريب في شرح التقرب: الحافظ العراقي، تصوير مكتبة نزار الباز، مكة.
- ٨١- عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى: ابن العربي، دار إحياء التراث العربى، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ٨٢- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: السبكي، تحقيق د. خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ٨٣- عمدة القاري شرح صحيح البخاري: العيني، مطبعة مصطفى البابى الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٩٢هـ.
- ٨٤- عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم: العقاد، المكتبة العصرية، لبنان.
- ٨٥- الفائق في غريب الحديث: الزمخشري، تحقيق علي البحاوي وزميله، مطبعة البابى الحلبي، مصر.
- ٨٦- فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، مصر، الثالثة، ١٤٠٧هـ.
- ٨٧- فتح المغيث بشرح ألفية الحديث: السخاوى، تحقيق الشيخ عبد الكريم الخضرى

(١) هذه هي الطبعة المعتمدة في البحث، وإذا أردت النسخة الأخرى نصصت عليها.

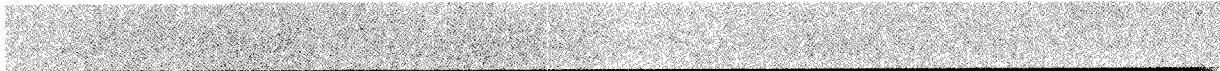
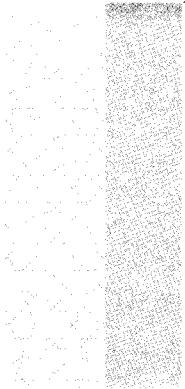
- وزميله مكتبة دار المنهاج، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
- ٨٨ - فتح ذي الجلال والإكرام: ابن عثيمين، مدار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
- ٨٩ - محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل: محمد أحمد جاد المولى، مطبعة الاستقامة، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٣٥٦هـ.
- ٩٠ - الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين النووية: إبراهيم الشبرخيتي المالكي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٧٤هـ.
- ٩١ - الفصل في الملل والأهواء والنحل: ابن حزم الظاهري، تصوير دار الفكر، بيروت.
- ٩٢ - فقه اللغة: أحمد بن فارس، تحقيق السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.
- ٩٣ - فقه بيان النبوة منهجاً وحركة: د. محمد توفيق سعد، مطبعة الأمانة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- ٩٤ - الفقيه والفقير: الخطيب البغدادي، تحقيق عادل العزاوي، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ٩٥ - فيض القدير شرح الجامع الصغير: المناوي، دار إحياء السنة النبوية، مصر.
- ٩٦ - فيض نشر الانشراح من روض طي الاقتراح: ابن الطيب الفاسي، تحقيق محمود فجال، دار البحوث والدراسات الإسلامية، دبي، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ٩٧ - الكاشف عن حقائق السنن: الطبيبي، تحقيق المفتى عبد الغفار وزملائه، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، باكستان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- ٩٨ - كتاب الصناعتين: أبوهلال العسكري، تحقيق علي البعاوي وزميله، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، مصر.
- ٩٩ - الكفاية في علم الرواية: الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٩هـ.
- ١٠٠ - المثل السائر: ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق أحمد الحوفي وزميله، دار نهضة مصر.
- ١٠١ - مجالس ثعلب: شرح وتحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة.

- ١٠٢- المجتبى: ابن دريد، تحقيق محمد أحمد الدالي، الجفان والجابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ١٠٣- المجتنى: ابن دريد، تحقيق د.محمد أحمد الدالي، الجفان والجابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ١٠٤- مجمع الزوائد: الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.
- ١٠٥- مجموع فتاوى الشيخ عبد الرحمن البراك (مخطوط): مصورة بحوزة الباحث.
- ١٠٦- محمد رسول الله وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم: محمد الخضر حسين، إعداد علي الرضا الحسيني، الدار الحسينية للكتاب.
- ١٠٧- مختصر الشمائل المحمدية: ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤١٢هـ.
- ١٠٨- مختصر الصواعق المرسلة: الموصلي، تحقيق الحسن العلوى، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
- ١٠٩- مراجعات في أصول الدرس البلاغي: د.محمد أبوemosى، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
- ١١٠- المراسيل: أبوداود، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ١١١- مرقة المفاتيح شرح مشاة المصاييف: علي القاري، تصوير دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- ١١٢- الفزهر في علوم اللغة وأنواعها: السيوطي، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وأخرين، تصوير دار التراث، مصر.
- ١١٣- المسترك على الصحيحين: الحكم، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر أباد.
- ١١٤- مسند الإمام أحمد: طبع بإشراف الدكتور عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
- ١١٥- المصنف في الأحاديث والآثار: ابن أبي شيبة، تحقيق عبد الهادي الأفغاني، الدار السلفية، الهند، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.
- ١١٦- معالم السنن (شرح سنن أبي داود): الخطابي، (بها ملخص سنن أبي داود).

- ١١٧ - معرفة علوم الحديث: الحاكم، تحقيق أحمد السلوان، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- ١١٨ - المفہم لما أشکل من تلخیص کتاب مسلم: أبو العباس القرطبی، تحقيق محبی الدین مستو وزملائے، دار ابن کثیر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ١١٩ - المقاصد الشافیة في شرح الخلاصة الکافیة: أبو إسحاق الشاطبی، تحقيق د. عیاد الشبیتی وزملائے، نشر جامعة أم القری، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.
- ١٢٠ - المقترن في أجوبة بعض أسئلة المصطلح: مقبل الوادعی، مکتبة دار القدس، الیمن، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ١٢١ - مقدمة ابن الصلاح: تحقيق عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، مصر.
- ١٢٢ - من روائع الأدب النبوی: کامل سلامة القدس، دار الشروق، جدة، الطبعة الثانية، ١٣٩٦هـ.
- ١٢٣ - مناهل الصفا في تخريج أحادیث الشفا: السیوطی، تحقيق سمير القاضی، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ١٢٤ - منهاج السنة: ابن تیمیة، تحقيق د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- ١٢٥ - منهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: النووی، دار الريان، مصر.
- ١٢٦ - منهاج في شعب الإيمان: الحلیمی، دار الفکر، بيروت، ١٣٩٩هـ.
- ١٢٧ - الموهاب اللدنیة بالمنج المحمدیة، القسطلاني، تحقيق أحمد الشامی، المکتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ١٢٨ - الموضوعات: ابن الجوزی، تحقيق عبد الرحمن عثمان، مکتبة ابن تیمیة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
- ١٢٩ - الموطأ: الإمام مالک، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مصر.
- ١٣٠ - نثر الورود شرح مراقي السعود: محمد الأمین الشنقطی، تحقيق علي العمran، دار عالم الفوائد، مكة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
- ١٣١ - النظر الفسیح عند مضایق الأنظار في الجامع الصحيح: محمد الطاهر بن عاشور، الدار العربية للكتاب، لیبیا، تونس، ١٣٩٩هـ.

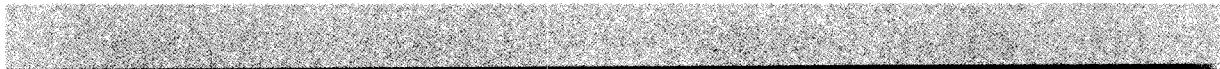
- ١٣٢ - النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير الجزري، تحقيق طاهر الزاوي وزميله، المكتبة الإسلامية.
- ١٣٣ - نيل الأوطار، الشوكاني، تحقيق محمد صبحي حلاق، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- ١٣٤ - وحي الرسالة: الزيات، دار الثقافة، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٩٧٢هـ.
- ١٣٥ - وحي القلم: الرافعي.

\* \* \*



# **بلاغة الجملة الخبرية في سورة يوسف (عليه السلام)**

د. عبدالله بن أحمد بن محمد العماري  
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي - كلية اللغة العربية  
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



## **بلاغة الجملة الخبرية**

**في سورة يوسف (عليه السلام)**

**د. عبدالله بن أحمد بن محمد العمرى**

**قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي**

**كلية اللغة العربية**

**جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية**

### **ملخص البحث:**

تعد الجملة الخبرية أحد شقي التركيب اللغوي في لغتنا الجملية، حيث تمثل مع الشق الآخر الجملة الإنسانية بناء التركيب في اللغة العربية ، والجملة الخبرية بما لها من نقل في التركيب اللغوي تنطلق من قضية الإسناد إنطلاقاً بлагياً يحكمه التلون في إدعاهما، من جملة خبرية خالية من المؤكّدات ، إلى جملة خبرية مؤكّدة بمؤكّد واحد ، أو أكثر من مؤكّد حسب مقتضى الحال . وقد حفلت سورة يوسف عليه السلام بكم كبير من تلك الجملة مما استدعي دراستها بлагياً حيث صفت تلك الجمل بحسب أبرز موضوعات السورة إلى : أخبار منامية ، وأخبار اعتذارية ، وأخبار وعدية ، وأخبار احتجاجية ، وذلك لتسهيل الدراسة البلاغية وابرازها بشكل واضح وقسمت تلك الأخبار في البحث إلى مباحث ، كل مبحث ينطوي تحته واحد من الموضوعات المذكورة .



## مقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين . أما بعد :  
فإن أشرف ما شخصت إليه الأنظار، وجالت فيه الأفكار - كتاب الله تعالى، ناهيك عن  
الغوص في بلاغته . والبحث عن مكنوناته . فلا غرو أن يكب عليه الباحثون، وينهل منه  
الناهلون، ومما يولى بالاهتمام في بلاغة القرآن - التركيب اللغوي ، وأشهره ما يسمى في  
اللغة العربية بالجملة .

فإن الجملة في التركيب اللغوي العربي لا تخرج عن قسمين اثنين :  
الأول - الخبر .      الثاني - الإنشاء .

ولكل منهما حظه من التقسيم . والتفرع . والأثر البلاغي . والقرآن الكريم لا يخرج في  
نظمه عن هذين القسمين . وسورة يوسف سورة تكاد تحتويها قصة يوسف عليه  
السلام من أولها إلى آخرها . والقصة عادة تتناول في أداتها وشخصياتها وزمانها  
ومكانها أخباراً شتى . تبرز من خلالها حقائق القصة . وتظهر إطارها العام . وخصائصها  
الدفينة .

ولما كانت سورة يوسف كذلك ، آثرت أن أبحث بلاغة الجملة الخبرية في تلك  
السورة . سائلًا الله تعالى أن أكون قد أسهمت ولو بشيء يسير من إظهار بلاغة القرآن  
في جانب من جوانب الجملة العربية .

أما خطة هذا البحث ، فهي مكونة من : تمهد يعرض للجملة الخبرية ، من حيث  
تعريفها . وأقسامها وأراء البلاغيين فيها .

يلي التمهيد مباحث أربعة هي عناصر البحث . حيث وجدت الأخبار في سورة يوسف  
عليه السلام لا تكاد تخرج عن أربعة أنواع من الأخبار . وقد أسميت تلك الأخبار تبعاً  
لتلك الأنواع وهي كالتالي :

المبحث الأول : الأخبار المنامية في سورة يوسف عليه السلام  
المبحث الثاني : الأخبار الوعدية .

المبحث الثالث : الأخبار الاعتذارية .  
المبحث الرابع : الأخبار الاحتجاجية .

ثم يلي هذه المباحث خاتمة البحث ، ففهرس المصادر والمراجع .

وسوف يكون البحث قائماً على استقراء بلاغة الجملة الخبرية في ظل سياقها الدلالي، مستعيناً على ذلك بما توافر لي من أقوال بعض علماء البلاغة، وعلماء التفسير في هذا السياق، معتمداً على المقايسة حسب ما وفقني الله تعالى إليه.

\* \* \*

## توطئة :

لماذا الجملة الخبرية؟ ولماذا سورة يوسف؟

سورة يوسف من السور القلائل التي انتظمت في طياتها ومن خلال آياتها قصة نبي شملت مجمل حياته ، وما جرى فيها من أحداث وأخبار وتقلبات . بين حدث مفجع ، وخبر موجع ، ومواقف ذات ألوان متعددة . ومن خلال ذلك كله كانت هناك أخبار متنوعة ، بين الجديد الذي لم يتلقه السامع من قبل ، وبين ما يتوقع أن يكون للمتلقي موقف من قبوله . بين القبول والرفض والتrepid ، ومن هنا كان اختيار الموضوع لعله يظهر بعض البلاغة في تلك الأخبار .

## التمهيد

-الجملة الخبرية في سورة يوسف عليه السلام .

الجملة في اللغة العربية لا تخرج عن نوعين : الجملة الخبرية ، والجملة الإنسانية . و " الحذاق من النحاة وغيرهم من أهل البيان قاطبة على انحصار الكلام فيهما . وأنه ليس له قسم ثالث " <sup>(١)</sup> .

ويعرف الخبر عند البلاغيين بأنه : " هو الكلام المحتمل للصدق والكذب ، أو التصديق والتكذيب ... " <sup>(٢)</sup> .

أو هو " ما صح أن يوصف بالصدق أو الكذب .

وقد " اختلف الناس في انحصر الخبر في الصادق والكاذب : فذهب الجمھور إلى أنه منحصر فيهما . ثم اختلفوا فقال الأكثر منهم : صدقه مطابقة حكمه للواقع . وكذبه عدم مطابقة حكمه له . هذا هو المشهور . وعليه التعويل .

وقال بعض الناس : صدقه مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر صواباً كان أو خطأ . وكذبه عدم مطابقة حكمه له ..... " <sup>(٣)</sup> .

" وخلاصة ذلك أن الجملة الخبرية يكونقصد منها إفاده أن محتواها سواء أكان إثباتاً أو نفياً له واقع خارج العبارة يطابق هذا المحتوى . فنصف الكلام بالصدق أو الكذب

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطى ج ١ ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢) مفتاح العلوم للسكاكى ص ١٦٦ .

(٣) الإيضاح للفزوي ص ١٨ .

أولاً يطابقه فنصف الكلام بالكذب . فقولك جاء زيد يراد به أن هذه النسبة الكلامية لها

نسبة في الخارج أي أنه وقع مجيء من زيد ، وكذلك قوله لم يجيء زيد ”<sup>(١)</sup> .

وأنكر الجاحظ انحصار الخبر في القسمين ، وزعم أنه ثلاثة أقسام : صادق ، وكاذب ، وغير صادق ولا كاذب ، لأن الحكم إما مطابق للواقع مع اعتقاد المخبر له أو عدمه . وإنما غير مطابق مع الاعتقاد أو عدمه ، فال الأول – أي المطابق الاعتقاد – هو الصادق ، والثالث أي غير المطابق مع الاعتقاد – هو الكاذب ، والثاني والرابع أي المطابق مع عدم الاعتقاد وغير المطابق مع عدم الاعتقاد – كل منهما ليس بصادق ولا كاذب .

فالصدق عنده : مطابقة الحكم للواقع مع اعتقاده ، والكذب : عدم مطابقته مع اعتقاده ، وغيرهما ضربان : مطابقته مع عدم اعتقاده ، وعدم مطابقته مع عدم اعتقاده ”<sup>(٢)</sup> .

أما السبب في كون الخبر محتملاً للصدق والكذب ، فهو إمكان تحقق ذلك الحكم مع كل واحد منهما ، من حيث أنه حكم مخبر ، ومرجع كون الخبر مفيداً للمخاطب إلى استفادة المخاطب منه ذلك الحكم ، ويسمى هذا : فائدة الخبر ، كقولك زيد عالم لمن ليس واقفاً على ذلك ، أو استفادته منه أنك تعلم ذلك كقولك لمن حفظ التوراة : قد حفظت التوراة . ويسمى هذا لازم فائدة الخبر . والأولى بدون هذه تمنع . وهذه بدون الأولى لا تمنع ، كما هو حكم اللازم ومطابقة ذلك الحكم للواقع ، أو غير مطابقته له . وهو المتعارف بين الجمهور وعليه التعويل ”<sup>(٣)</sup> .

هذا غرضان رئيسان للخبر عند إلقائه إلى المخاطب : فائدة الخبر إذا كان يخاطب جاهلاً يود إخباره بشيء لم يعرفه ، ولازم الفائدة : إذا كان المتكلم يريد أن يخبر المخاطب بأنه عارف بهذه الخبر ، ليس خافياً عليه ”<sup>(٤)</sup> .

المقياس الدقيق إذاً هو أن الخبر إذا ألقى إلى من يجهل مضمونه سمي : ”فائدة الخبر“ وإذا ألقى إلى من يعلم مضمونه دعي : ”لازم الفائدة“ ولكل مقام ومكان ”<sup>(٥)</sup> .

(١) دلالات التراكيب دراسة بلاغية . د محمد محمد أبو موسى ص ١٨٥

(٢) الإيضاح للفزويini ص ١٩

(٣) افتتاح العلوم للسيكافي ص ١١١

(٤) البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعانـي – ص ١٠٩

(٥) البلاغة العربية في ثوبها الجديد . ج ١ – علم المعانـي – ص ٦٠

" وقد يخرج الخبر عن هذين الغرضين الأساسيين .  
 فيأتي لإظهار التحسير مثل قوله تعالى : " رب إني وضعتها أنت "  
 والضعف مثل قوله تعالى : " رب إني وهن العظم مني "  
 والمدح كقول النابغة :

فإنك شمس والملوك كواكب      إذا طاعت لم يد منهن كوكب  
 والذم كقول المتنبي يهجو كافورا :  
 رأيتك ذانعل إذا كنت حافيا      وتعجبني رجالك في النعل إنني  
 والفحرك قول عمرو بن كلثوم :  
 إذا بلغ الطعام لناصبي      تخر له الجبار ساجدينا  
 إلى غير ذلك من الأغراض التي تتضمن سياق الكلام "(١)"

وهناك من يرى أن الخبر لا يخرج عن غرضيه الأساسيين : "فائدة الخبر " و " لازم الفائدة " حيث يقول : " ليس للخبر إلا غرضان اثنان أساسيان : فائدة الخبر ، لازم الفائدة . وهذا الغرضان يحملان في الوقت ذاته معانٍ شتى ، قد يكون منها إظهار الضعف ، أو الاسترحام ، أو الاستعطاف ، أو التحسير ، أو المدح ، أو الفخر ، أو غير ذلك "(٢)" .  
 وهذا الرأي لا يتعارض مع آراء البلاغيين فالغرضان الأساسيان متفق عليهما من الجميع ثم ما عداهما ، فإن قبل خروجا عنهما أو تفرع عنهما فلا مشاحة في التسمية .  
 ثم إن الخبر يكون له أضرب ثلاثة بحسب حال المخاطب : فإذاً أن يكون المخاطب خالي الذهن فلا علم له بشيء مما يلقى عليه من خبر . وإنما أن يكون متربدا في قبول الخبر من المخبر بين قبول الخبر وعدم قبوله . وإنما أن يكون منكرا للخبر الملقي عليه .  
 وعنده يرد الخبر متفقا مع حال المخاطب . مراعياً لموقفه من قبول الخبر فيتردد الخبر بين الخلو من المؤكّدات لخالي الذهن ، وبين اقترانه بالمؤكّدات حسب حاله بين التردد والإنكار .

(١) فن البلاغة . د عبد القادر حسين ص ٨٢ .

(٢) البلاعة العربية في ثوبها الجديد . ج ١ - علم المعاني ص ٦٠ .

”فَإِنْ كَانَ مُقْتَضِي الْحَالِ إِطْلَاقُ الْحَكْمِ ، فَحَسْنُ الْكَلَامِ تَجْرِيدٌ عَنْ مُؤْكِدَاتِ الْحَكْمِ ، وَإِنْ كَانَ مُقْتَضِي الْحَالِ بِخَلْفِ ذَلِكِ ، فَحَسْنُ الْكَلَامِ تَحْلِيلٌ بِشَيْءٍ مِّنْ ذَلِكِ بِحَسْبِ الْمُقْتَضِي ضَعْفًا وَقُوَّةً“<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا يقال إن الخبر ثلاثة أضرب بحسب حال المخاطب التي يراعيها المتكلم عند إلقاء الخبر :

”فَإِذَا أَلْقَى الْجَمْلَةَ الْخَبَرِيَّةَ إِلَى مَنْ هُوَ خَالِيُ الْذَّهَنِ عَمَّا يَلْقَى إِلَيْهِ ، لِيَحْضُرْ طَرْفَاهَا عَنْهُ ، وَيَنْتَقِشُ فِي ذَهْنِهِ إِسْنَادَ أَحَدِهِمَا إِلَى الْآخَرِ ثَبَوتًا أَوْ انتِفَاءَ كُفَى فِي ذَلِكِ الْأَنْتِقَاشِ حَكْمَهُ ، وَيُتَمَكَّنُ لِمَصَادِفَتِهِ إِيَّاهُ خَالِيَا :“

أَتَانِي هُواهَا قَبْلَ أَعْرَفُ الْهُوَيِّ فَصَادِفُ قَلْبِي خَالِيَا فَتَمَكَّنَا

فَتَسْتَغْنُي الْجَمْلَةُ عَنْ مُؤْكِدَاتِ الْحَكْمِ ، وَسُمِيَّ هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْخَبَرِ ابْتِدَائِيًّا.

وَإِذَا أَلْقَاهَا إِلَى طَالِبٍ لَهَا مُتَحِيرٌ طَرْفَاهَا عَنْهُ دُونَ الْإِسْنَادِ ، فَهُوَ بَيْنَ بَيْنِ ، لِيَنْقَذُهُ عَنْ وَرْطَةِ الْحِيرَةِ . اسْتَحْسَنَ تَقوِيَّةَ الْمُنْقَذِ بِإِدْخَالِ الْأَمْرِ فِي الْجَمْلَةِ ، أَوْ إِنْ كَنْحُو لَزِيدٌ عَارِفٌ أَوْ إِنْ زِيدًا عَارِفٌ . وَسُمِيَّ هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْخَبَرِ : طَلْبِيًّا .

وَإِذَا أَلْقَاهَا إِلَى حَاكِمٍ فِيهَا بِخَلْافِهِ ، لِيَرْدِهِ إِلَى حَكْمِ نَفْسِهِ . اسْتَوْجِبْ حَكْمَهُ لِيَتَرَجَّعْ تَأْكِيدًا بِحَسْبِ مَا أَشْرَبَ الْمُخَالِفُ لِإِنْكَارِ فِي اعْتِقَادِهِ . كَنْحُو : صَادِقٌ إِنِّي ، لِمَنْ يُنْكِرْ صَدْقَكِ إِنْكَارًا ، وَانِّي لِصَادِقٍ لِمَنْ يَبَالُغُ فِي إِنْكَارِ صَدْقَكِ ، وَوَاللَّهُ إِنِّي لِصَادِقٍ . عَلَى هَذَا“<sup>(٢)</sup> .

وَإِذَا وَرَدَ التَّعْبِيرُ الْلُّغُوِيُّ عَلَى الصِّيغِ السَّابِقَةِ مِنْ عَدْمِ التَّوْكِيدِ لِخَالِيِ الْذَّهَنِ . وَالتَّوْكِيدُ اسْتَحْسَانًا لِلْمُتَرَدِّدِ وَالشَّاكِرِ ، وَالتَّوْكِيدُ وَجُوبًا لِلْمُنْكَرِ عَلَى حَسْبِ إِنْكَارِهِ قُوَّةً وَضَعْفًا كَانَ الْكَلَامُ مُتَنَاسِبًا مَعَ مَا يَقْتَضِيهِ ظَاهِرُ الْحَالِ .

وَقَدْ يَخْرُجُ الْكَلَامُ عَلَى مُقْتَضِي الظَّاهِرِ إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ مُقْتَضِيَاتٍ بِلَاغِيَةٍ مُعِينَةٍ تَسْتَدِعُ مِنَ الْمُتَكَلِّمِ مِرَاعَاتَهَا . وَتَتَطَلَّبُ مِنْهُ تَعْدِيلُ أَسْلَوْبِهِ الْأَدْبِيِّ بِنَاءً عَلَى دَوَاعِ فَهْمِهَا مِنْ حَالِ الْمُخَاطِبِ ، وَلَا حَظَّهَا بِمَعْنَوَةِ الْقَرَائِنِ فَيَكُونُ الْخَرُوجُ عَلَى مُقْتَضِي الظَّاهِرِ أَبْلَغٌ فِي الدَّالَّةِ وَأَقْوَى فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْمَعْنَى الْمَقصُودِ“<sup>(٣)</sup> .

(١) مفتاح العلوم للسكاكيني ص ١٦٩.

(٢) السابق ص ١٧١.

(٣) دراسات في المعاني والبدائع . د عبد الفتاح عثمان.

## الجملة الخبرية في سورة يوسف :

هذه السورة الكريمة كغيرها من سور القرآن الكريم تزخر بفنون البلاغة المتعددة من علم معانٍ، وعلم بيانٍ، وعلم بديعٍ.

وتنتظم هذه السورة الكريمة قصة نبي من الأنبياء وقع فيها من الإثارة . . وتعدد الأطوار ما حشد فيها من الأخبار المختلفة كما هائلًا مغرياً بدراسته بلاغياً، فتعدد الشخصيات والحوادث والأخبار في القصة يجعلها ثرية في البحث البلاغي على اختلاف أنواعه، ولاسيما الجانب الخبري أو الإخباري الذي استحوذ على حيز كبير من القصة، وتعدد الخبر بتنوع المواقف ، وبتنوع مقتضيات الأحوال . . وسوف أتعرض لدراسة بلاغة الجملة الخبرية في هذه السورة الكريمة . . معتمداً على تقسيم الأخبار الواردة في السورة إلى عدة أقسام . . تقوم عليها مباحث هذا البحث هي كالتالي :

- ٢- الأخبار الفنامية .
- ٤- الأخبار الاحتاجية .
- ٣- الأخبار الاعتزارية .

ولايعني هذا التقسيم أنه لا يوجد في السورة أخبار أو جمل خبرية تخرج عنه، ولكن هذه الأقسام الأربع هي السواد الغالب في مجريات أحداث السورة . . ولايكاد يخرج عنها إلا نذر يسير من الأخبار، أو الجمل الخبرية تدخل بلاغياً في تفاصيل ما سينذكر في هذه الأقسام . .

\* \* \*

## المبحث الأول – الأخبار المنامية :

والمقصود بها الأخبار عن الرؤى والأحلام ، التي تعرض للنائم في منامه ، وقد بلغت الأخبار المنامية في هذه السورة أربعة أخبار منامية . هي :

١- قال الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام في مستهل قصة يوسف : ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَتَبَّأْتَ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكِبًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجِدِينَ﴾ آية ٤ .

٢- وقال تعالى على لسان أحد الفتية اللذين دخلوا مع يوسف عليه السلام السجن : ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ الْسِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَيْتُ أَعْصَرَ حَمْرًا﴾ الآية .

٣- وقال تعالى على لسان الفتى الآخر : ﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَيْتُ أَحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الظَّيْرُ وَمِنْهُ نَتَّعْنَا يَتَأْوِيلُهُ إِنَّا نَرَلَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ آية ٢٦ .

٤- وقال تعالى على لسان الملك : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سَمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُبْلَتٍ خُضْرٌ وَأَخْرَى يَأْسِتُ يَتَأْيَمُهَا الْمَلَأُ فَتُوْنِي فِي رُءُوبِي إِنْ كُنْتُمْ لِلرِّزْقِ يَا تَعْبُرُونَ﴾ آية ٤٣ .

إن المتأمل في الإخبار عن الرؤى في هذه الآيات ليرى أن الجملة الخبرية فيها يتقدمها حرف تأكيد واحد هو "إن" وكما سبق فإن الخبر يؤكد بمؤكد واحد ، حينما يكون السامع مشككا ، أو متربدا في قبول الخبر ، أو حينما ينزله المتكلم منزلة المشكك أو المتردد ، فهل هنا ما يدل على ذلك ؟

أقول – والله أعلم – إنه لما كانت الرؤى والأحلام مظنة الشك من السامع ، والتردد في قبولها ، فكثيراً ما ينسى النائم بعض ما رأى ، أو كل ما رأى ، ثم إن الرؤى عادة يكون الخبر فيها غريباً . ومخالفاً لما اعتاده الناس في يقظتهم ، فإن الرأي ينزل المخاطب منزلة من يشك في قبول الخبر ، أو يتردد في تصديقه . فعليه ترد الجملة الخبرية المنامية مؤكدة بمؤكد واحد . هو "إن" التي تعد أمراً بابها في حروف النسخ والتوكيد . لما لها من حضور لفظي ، وأثر معنوي .

وبالنظر في تلك الأخبار المنامية يظهر مدى ما تحيوه من صور ومعانٍ مخالفلة للواقع المعتمد في حال يقظة الناس ومعاشرهم .

ففي رؤيا يوسف عليه السلام أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأها تسجد له . وواقع الأمر أننا لا نعلم كيف يكون سجود الشمس والقمر والكوكب . فهذا أمر لا يتفق مع الواقع ما نعلمه من هذه المخلوقات . نحن نعلم أنها تسجد لخالقها جل وعلا . ولكننا لا نعلم كنه هذا السجود ولا ندرك كيفية .

وفي رؤيا صاحبي سجن يوسف ، من الغرابة ما فيهما ، فأحدهما يرى نفسه يعصر خمرا ، والآخر يرى نفسه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه . ولنست الغرابة هنا في إمكان حدوثهما في الواقع ، ولكن الغرابة في علاقتهما بالسجينين . فعصر الخمر لا يكون إلا في بحيرة من العيش وزيادة رفاهية . وفيضان نعمة ، وهذا الواقع أبعد ما يكون عن سجين لا يعلم عن مصيره شيئا . وحمل الخبز فوق الرأس وأكل الطير منه يقدم صورة لخير ونعمة وأمن وبعد عن كل مثير . حتى أن الطير يأكل من هذا الخبز دون خوف ولا حذر .

وأما رؤيا الملك فهي خليط من العجائب . فسبعين بقرت سمان يأكلهن سبع عجاف ، وليس في الواقع الناس أن البقر يأكل بعضها بعضاً مهما بلغ بها العجاف ، وأدركته المجاعة القاتلة . قد يحدث ذلك في عالم الحيوانات المفترسة المتوجحة ، أما في عالم البقر الحيوان المسالم فلا يحدث ذلك أبدا ، والسبعين السبنلات الخضر والسبعين اليابسات لا يستغرب أن ترى في الواقع الناس بعمومها ، ولكن الغرابة في العدد في كل منها . وكذا ربما في اجتماع الخضر واليابسات في مكان واحد نوع من الغرابة ، إذ واقع الحرج التقارب بين نباتاته خصبة وبياسا .

إن ما ذكر من الغرابة ومخالفتها الواقع في تلك الأخبار المنامية ليدعو إلى التساؤل من المخاطب نحو صحة الخبر مما يجعل المتكلم ينزله منزلة المشكك والمتردد ، ومن هنا جاء تأكيد الخبر بمؤكد واحد يزيل للبس . ويدفع الشك والتردد .

ومنحي بلاغي آخر يظهر من خلال هذه الأخبار الأربع : فالخبر الذي على لسان يوسف عليه السلام جاء التعبير عنه بالفعل الماضي "إني رأيت" بينما جاء التعبير على لسان الفتىين وعلى لسان الملك بالفعل المضارع "إني أراني" "إني أرى" وهذا الأمر مما يتطلب التوقف والسؤال . وأقول -والله أعلم - لعل في خبر يوسف عليه السلام ما يدل على أنه علم تأويل رؤياه قبل أن يقصها على أبيه . وإنما قصصها على أبيه من باب التحدث بالنعمة .

ولذا لم يفسرها له أبوه وإنما حذره أن يقصها على إخوته الذين سوف يعلمون تأويلاً لها غالباً مما يجعلهم يكيدون ليوسف كيداً ، دافعه الحسد والغيرة . بالإضافة إلى احتمال أن يكون يوسف عليه السلام لم يبادر بقص الرؤيا على والده : إما لما ذكر، وإما لعدم تمكنه من الاختلاء بأبيه بعيداً عن إخوته وغيرهم .

أما في رؤيا الفتين والملك فهناك مبادرة بقصها . وكان الرائي ما زال متلبساً بها عائشاً أحداً ثناها . وكذلك لرغبتة في معرفة تفسيرها وطالعه إلى فهمها . فلا علم لهم بالتأويل وللرؤى والأحلام عندهم شأن عظيم : ولذا قال جلساء الملك "أضغاث أحلام" وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين "فقولهم أضغاث أحلام تسريمة للملك . وتهوين من شأن الرؤيا التي يحسب لها الملك حسابها . وقولهم وما نحن بتأويل الأحلام تنصل من معرفتهم بما أهم الملك وحرك شجونه .

\* \* \*

## المبحث الثاني: الأخبار الوعدية :

يقوم الأخبار الوعدي عادة على إعلام المخاطب بوعد إما ينكر المخاطب وقوعه، وإما يحرض على إنجازه . فاما ما ينكر وقوعه فبناء على موقف أو موقف سابقة جعلت المخاطب ينظر إلى ما يأتيه من خبر من المتكلم نظر المنكر الممانيع، وأما ما يحرض على إنجازه فذلك لأهميته عنده مما يجعله يقف من قبوله موقف المشك في صحته، المترد في قوله ، مما يجعل المتكلم يؤكّد خبره بما يزيل الشك ، ويبعد التردد . وذاك ما يسمى الضرب الطليبي من أضرب الخبر الثلاثة .

وقد وردت الأخبار الوعدية في سورة يوسف في عدة مواضع، منها ما كان على لسان إخوة يوسف عند محاورتهم لأبيهم ليرسل يوسف معهم لتذير مكيدتهم ، وكذلك محاورتهم ليوسف عندما طلب منهم إحضار أخيهم إليه ، وقد وردت تلك الأخبار في الآيات التالية :

قال تعالى : «**قَالُوا يَأْبَا اٰنَا مَا لَكَ لَا تَأْمِنَا عَلٰى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ** ﴿١﴾ **أَرِزْلَهُ مَعَنَا غَدَّا يَرَّتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**» آية ١٢-١١.

وقال تعالى : «**قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الْذِئْبُ وَتَخَنَّ عُصَبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ**» آية ١٤.

وقال تعالى : «**قَالُوا سَنُرُودُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ**» آية ٦١.

ما يلحظ من هذه الأخبار الوعدية التي وردت على لسان إخوة يوسف - عليه السلام - أنها أكدت بأعلى أدوات التوكيد . فالجمل التي وردت كلها جمل اسمية . والجمل الاسمية تدل على ثبات الأمر ولزومه . وعدم تغيره . وهذا مما يعد تأكيداً للخبر . بالإضافة إلى وجود مؤكدين آخرين في كل جملة من هذه الجمل مما : حرف التوكيد "إن" ولام الابتداء الواقعية في خبر الجملة - إنما له لناصحون - إنما له لحافظون - إنما إذا لخاسرون - إنما لفاعلون - وهذا التوكيد الخبري ينطلق من تنزيل المخاطب منزلة المنكر: لما بدر منه من زيادة عنانية بيوسف . وحب له . وخوف عليه : لما ظهر له من علامات تشعر بأنه سيكون له شأن عظيم . وقد مهدوا لهذا بقولهم : "ليوسف وأخوه أحب إلى أبيينا منا ونحن عصبة" والمخاطب هنا خالي الذهن مما سياقون عليه من خبر النصح . وخبر الحفظ . ولكن لما قالوا : "مالك لا تأمننا على يوسف" كان هذا إشعاراً منهم أن أباهم ينكر نصحهم ليوسف وحفظهم له . فأكدوا الخبر بناء على ذلك .

وإنزالاً لحال الذهن منزلة المنكر من أجل إقناعه بمضمون الخبر الملقى عليه، ومن أجل إظهار براءة المتكلم مما يظنه السامع أو يعتقده.

والآيات الوعدية لا تكون من المتكلم خبراً يوعد به، أو يتوعد به فحسب، وإنما يدخل في ذلك الإخبار بما سيؤول إليه الأمر المخبر عنه في المستقبل. من ذلك قوله تعالى على لسان يعقوب يخبر ابنه يوسف بما سوف تكون عليه حاله بعد الرؤيا التي رأها، وعرف يعقوب تأويلها.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَّالِكَ يَحْتَبِلُكَ رَبُّكَ وَيُعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أَهْلٍ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبْوَيْكَ مِنْ قَبْلٍ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ آية ٦.

وقوله جل ذكره -على لسان إخوة يوسف: ﴿ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّهُ لَمُحَفِّظُونَ ﴾ آية ١٢.

وقوله سبحانه على لسان يعقوب: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذَهَّبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الْذَّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ آية ١٣.

ففي الآيات الثلاث أخبار عن أمور مستقبلية. وهذه الأخبار يكون السامع فيها حالياً الذهن فهي غيب من المغيب لا يعلمها إلا الله تعالى، ولذا فإن مجئها لا يتطلب أي مؤكّدات، ولا يستدعي أن ينزل المخاطب منزلة غير منزلته في قبول الخبر وتلقيه ﴿ وَكَذَّلِكَ يَحْتَبِلُكَ رَبُّكَ وَيُعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ ﴾.

﴿ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ ﴾.

﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الْذَّئْبُ ﴾.

كل هذه أخبار خالية من أي مؤكّدات باعتبارها إخبار عن المستقبل المبني على ركائز، إما تنبئ عن نتائجها أو على توقعات مبنية على حقائق إنسانية جرى العرف بوقوعها تبعاً للمسبيات.

ونجد أخباراً أخرى عن المستقبل ولكنها مؤكّدة، وذلك لارتباطها بحال المخاطب التي ينم عنها السياق. فهي أي: حال المخاطب متارجحة بين التردد في قبول الخبر، أو منكرة له، فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿ قَالُوا لِئِنْ أَكَلَهُ الْذَّئْبُ وَنَحْنُ عُصَبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ آية ١٤ فالخبر في الآية مؤكّد ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ الْذَّئْبُ وَنَحْنُ عَصَبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ فاللام موطة للقسم، ثم جواب القسم أكد بـ"إن" ثم اللام في "لخاسرون" وفي هذا

تنزيل لحال المخاطب منزلة المنكر لإشعاره باهتمامهم بالأمر ، وأنهم سيحفظون أخاهم من الذئب الذي يخافه أبوهم . ولthen حدث أمر من ذلك فإنهم لخاسرون . فمراءاة حال المخاطب هنا من أجل تطمئنـه ، ومن أجل إقناعـه بقبولـ الأمر .

وقال تعالى : ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ تَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبَتِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُتَبَيَّنُهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ آية ١٥ .

والخبر هنا في قوله جل ذكره : "لتبيئـهم بأمرـهم هذا " وهذا الخبر من الله تعالى إيحـاء أو حـاجـة الله تعالى إلى يوسف عليه السلام – وهو خـبر مـؤـكـد بالـلام ، وـنـون التـوكـيد . وفي هذا ما يجعلـ يوسف يتـقبلـ كـيـدهـمـ بـصـدرـ رـحبـ ، وـصـبـرـ وـأـمـلـ . فـسـوفـ يـخـبـرـهـمـ بـهـذاـ الـأـمـرـ فيـ يـوـمـ ماـ . وـهـذـاـ الـوـعـدـ الـمـوـحـىـ بـهـ مـمـنـ لاـ يـتـبـادـرـ إـلـىـ ذـهـنـ مـخـلـوقـ أـيـ شـكـ فيـ صـدـقـهـ الـأـمـرـ وـتـحـقـقـهـ . وـنـفـاذـ أـمـرـهـ . وـلـكـنـهاـ الرـحـمـةـ الـرـبـانـيـةـ . فـمـوـقـفـ يـوـسـفـ الـطـفـلـ الصـغـيرـ أـمـامـ هـذـاـ الـهـوـلـ الـمـزـعـجـ يـتـطـلـبـ ثـبـاتـ قـلـبـ . وـانـشـرـاحـ صـدـرـ . وـلـذـاـ نـزـلـ مـنـزـلـةـ الـمـنـكـرـ لـلـخـبـرـ لـتـطـمـيـنـهـ . وـانـشـرـاحـ صـدـرـهـ لـقـبـولـ مـاـ يـحـاكـ بـهـ .

وقال تعالى ﴿قَالَتْ فَدَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَأَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصَمُ وَلَيْنَ لَمْ يَفْعُلْ مَا أَمْرُهُ لَيُسْجَنَ وَلَيُكُوَّنَ مِنَ الْصَّاغِرِينَ﴾ وهذا خـبر مستـقـبـليـ هوـ توـعدـ اـمـرـأـ الـعـزـيزـ لـيـوـسـفـ إـنـ لمـ يـفـعـلـ مـاـ تـأـمـرـهـ بـهـ وـذـلـكـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ : "ولـئـنـ لمـ يـفـعـلـ مـاـ أـمـرـهـ لـيـسـجـنـ وـلـيـكـنـاـ مـنـ الصـاغـرـينـ " فـجـملـةـ الـقـسـمـ هـنـاـ مـبـدوـءـ بـوـاـقـسـمـ . ثـمـ بـالـلامـ يـلـيـ ذـلـكـ الـلـامـ الـوـاقـعـةـ فـيـ جـوـابـ الـقـسـمـ . بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ نـونـ التـوكـيدـ . وـهـذـاـ الـخـبـرـ جاءـ عـلـىـ مـقـتضـىـ الـظـاهـرـ : فـيـوـسـفـ عـلـيـهـ السـلـامـ يـنـكـرـ الـخـبـرـ بـلـسـانـ حـالـهـ . وـالـمـؤـكـدـاتـ هـنـاـ تـتـعـدـىـ كـوـنـ الـمـتـكـلـمـ يـتـهـدـدـ وـيـتـوـعدـ يـوـسـفـ عـلـيـهـ السـلـامـ . وـإـنـماـ تـشـمـلـ الـمـخـاطـبـاتـ مـنـ النـسـوـةـ . فـالـخـبـرـ معـهـنـ عـلـىـ خـلـافـ مـقـتضـىـ الـظـاهـرـ . فـمـاـ دـامـ اللـومـ حـصـلـ مـنـهـنـ لـهـاـ لـمـحاـولةـ التـحرـشـ بـيـوـسـفـ فـهـنـ هـنـاـ خـالـيـاتـ الـذـهـنـ . فـقـدـ يـكـوـنـ الـمـقـامـ مـنـ اـمـرـأـ الـعـزـيزـ الـاعـذـارـ لـتـلـكـ النـسـوـةـ . وـأـنـ مـاـ حـصـلـ إـنـماـ كـانـ نـزـوةـ عـجـلـ كـمـاـ حـصـلـ مـنـ أـوـلـئـكـ النـسـوـةـ عـنـ تـقـطـيـعـ أـيـهـنـ . وـلـكـنـهاـ فـاجـأـهـنـ بـذـلـكـ الـخـبـرـ الـمـنـبـىـ عنـ التـهـدـىـ وـالـوعـيدـ بـالـمـعاـوـدةـ الـمـلـحـةـ . مـنـ دـوـنـ حـيـاءـ أـوـ خـجلـ مـنـ أـلـثـكـ النـسـوـةـ . وـلـذـاـ نـزـلـتـ الـمـخـاطـبـاتـ مـنـزـلـةـ الـمـنـكـرـ لـلـخـبـرـ تـأـكـيدـاـ الـمـاعـزـمـتـ عـلـيـهـ وـأـرـمـعـتـ أـمـرـهـاـ أـنـ يـبـؤـلـ إـلـيـهـ .

وقال تعالى : ﴿فَالَّرَّبُّ الْسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفُ عَنِي كَيْدُهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ آية ٣٢ وهذا أـيـضاـ خـبرـ مـسـتـقـبـليـ فيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ

﴿ وَلَا تُصْرِفْ عَنِّي كِيدَهْنَ أَصْبَحَ إِلَيْهِنَ وَأَكْنَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ فَالْخَبَرُ هُنَا خَالٌ مِنَ الْمُؤْكَدَاتِ بِاعْتِبَارِهِ مَوْجَهًا إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَهُوَ الْعَالَمُ بِالسَّرَّائِرِ ، فَإِنِّي لَخَبَرُ أَنْ يَخْفِي عَلَيْهِ وَبِالْتَّالِي فَقَدْ جَاءَ الْخَبَرُ خَالِيَا مِنَ الْمُؤْكَدَاتِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ حِرْصٍ الْمُتَكَلِّمُ عَلَى وَقْوَى الْخَبَرِ مَوْقِعًا مَبَارِكًا مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

وَقَالَ تَعَالَى : « قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَىٰ حَزَابِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » وَهُنَا خَبَرٌ مُسْتَقْبَلِي « إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » وَقَدْ أَكَدَ بِمُؤْكَدٍ وَاحِدٍ بِالإِضَافَةِ إِلَى اسْمِيَّةِ الْجَمْلَةِ مَا يَجْعَلُ الْمُخَاطِبَ فِي حَالَةِ تَرْدُدٍ أَوْ شُكٍّ مِنْ قَبْوِ الْخَبَرِ ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِطَلْبِ الْقِيَامِ عَلَىٰ حَزَابِ الْأَرْضِ الَّتِي تَعْلُقُ بِمَعِيشَةِ النَّاسِ وَتَموِيلِ غَذَائِهِمْ ، وَهُوَ أَهْمَ شَيْءٍ فِي حَيَاتِهِمْ ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْطَّلْبُ مِنَ الْأَمْوَالِ الْعَزِيزَةِ نَزَلَ الْمُتَكَلِّمُ مُخَاطِبَهُ مِنْ زَلَةِ الْمُتَرَدِّدِ ، فَأَكَدَ الْخَبَرُ بِمُؤْكَدٍ وَاحِدٍ وَهُوَ « إِنْ » .

وَقَالَ تَعَالَى : « سَرُورُدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ » آيَةٌ ٦١ جَمْلَتَانِ خَبْرِيَّتَانِ ، الْأُولَى مُؤْكَدَةٌ بِمُؤْكَدٍ وَاحِدٍ لِتَأْكِيدِ الْخَبَرِ ، الَّذِي يَتَمَثَّلُ فِي وَعْدٍ بِعَمَلٍ مُسْتَقْبَلِي ، وَقَدْ نَزَلَ الْمُخَاطِبُ خَالِيَ الْذَّهَنِ مِنْ زَلَةِ الْمُتَرَدِّدِ ، أَوْ الْمُشَكِّكِ فَالسَّيْنِ هُنَّا تُؤْكِدُ الْجَمْلَةُ الْخَبَرِيَّةُ ، ثُمَّ أَعْقَبَهَا الْجَمْلَةُ الْخَبَرِيَّةُ الْآخِرَى الْمُعَطَوْفَةُ عَلَىِ الْجَمْلَةِ الْأُولَى « وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ » وَهُنَّا الْجَمْلَةُ أَكَدَتْ بِمُؤْكَدَيْنِ « إِنْ » وَ« الَّامْ » وَفِيهَا أَيْضًا تَنْزِيلٌ لِلْمُخَاطِبِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ زَلَةِ الْمُتَرَدِّدِ فِي سَابِقَتِهَا - مِنْ زَلَةِ الْمُنْكَرِ تَأْكِيدًا لِلْخَبَرِ وَإِطْمَاعًا لِلْمُخَاطِبِ فِي قَبْوِهِ ، وَالْمَرْوَنةُ فِي التَّعَامِلِ مَعَ الْمُتَكَلِّمِ ، لِكَسْبِ الثَّقَةِ وَالْأَطْمَئْنَانِ .

وَقَالَ تَعَالَى « ..... هَذِهِ بِضَعَتُنَا رُدْتُ إِلَيْنَا وَتَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزَدَ أَدْ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ » آيَةٌ ٦٥ .

وَتَمِيرُ أَهْلَنَا ، وَنَحْفَظُ أَخَانَا ، وَنَزَدَ أَدْ كَيْلَ بَعِيرٍ ، أَخْبَارُ ثَلَاثَةِ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ وَقَعَتْ فِي جَمْلَةٍ خَبَرِيَّةٍ مُجْرَدَةٍ مِنَ أَيِّ مُؤْكَدَاتٍ ، حِيثُ نَزَلَ الْمُخَاطِبُ الْمُنْكَرُ مِنْ زَلَةِ خَالِيَ الْذَّهَنِ ، فَيَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُنَّا يَنْكِرُ أَنْ يَحْصُلُوا عَلَى أَيِّ شَيْءٍ مَا مَأْلُوا ، وَلَا سِيمَا حَفْظُ الْأَخِ فَقَدْ فَرَطُوا فِي يُوسُفَ مِنْ قَبْلِ بَخْدَعَةٍ قَدْ تَكُونُ هَذِهِ أَقْوَى مِنْهَا عِنْدِ يَعْقُوبَ ، وَلَكِنَّهُ نَزَلَ مِنْ زَلَةِ خَالِيَ الْذَّهَنِ ، فَالْخَبَرُ لَدِيهِمْ مِنَ الصَّدْقِ وَالْتَّمْكِنِ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَسَاوِرُ الْمُخَاطِبَ مَعَهُ أَيِّ شَكٍّ ، بَلْهُ أَنْ يَنْكِرَهُ ، فَكَانَ الْخَبَرُ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ ، بِالإِضَافَةِ إِلَى أَمْرٍ آخَرٍ يَتَعَلَّقُ بِالْمُتَكَلِّمِينَ فَهُمْ يَرْغَبُونَ إِغْرَاءَ الْمُخَاطِبِ وَإِلْحَاجَ عَلَيْهِ فِي تَقْبِيلِ الْخَبَرِ مِنْ دُونِ أَيِّ اعْتِرَاضٍ أَوْ تَرْدُدٍ

### المبحث الثالث : الأخبار الاعتذارية :

وهي تلك الأخبار التي يسوقها المتكلم اعتذاراً للمخاطب . ويكون ذلك العذر أو الاعتذار بحسب حال المتكلم ، أو بحسب حال المخاطب كما هي . أو كما نزله المتكلم . أو بحسب العذر الذي ساقه المعترض المتكلم . من حيث أهميته لدى المتكلم أولى المخاطب ، أو بحسب العرف والعادة .

لقد وردت في سورة يوسف عدة أخبار اعتذارية . فمنها قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذَهَّبُوا بِهِ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الْذَّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَفِلُونَ ﴾ ففي قوله إني ليحزنني أن تذهبوا به - خبر إنكارى باعتبار مؤكّدات الخبر حيث أكد بحرف التأكيد "إن" " وباللام في "ليحزنني" وهذا الخبر ألقى على مخاطب خالي الذهن . والمخاطب هنا هم أبناء يعقوب الذين عرضوا على أبيهم أن يرسل يوسف معهم من الغد ، وهم لا يعلمون ماذا سيكون رد أبيهم على طلبهم هذا وإن كان في كلامهم ما يوحى بعدم قبوله له ، ولكن ذلك الإيحاء لا يتتجاوز عادة أن يؤكّد الخبر بمؤكّد واحد .

ولكنه نزل لهم منزلة المنكر لبيان أهمية الخبر عنده هو ، ويلاحظ هنا أنه تحول من كلامهم عن يوسف ليتكلّم عن نفسه . ثم أتى بهذا الخبر المؤكّد بمؤكّدين زيادة ، والمتكلم هنا عندما يعتذر عن قبوله لذهاب يوسف مع إخوته إنما يتوجه بالخبر إلى الناحية العاطفية في الأبناء وهي مشاركته في حزنه على يوسف وبالتالي التخلّي عن طلبهم ، وفي تنزيل المخاطب منزلة المنكر ما فيه من هذه الناحية العاطفية .

ثم عطف على ذلك الخبر المؤكّد خبراً آخر خالياً من المؤكّدات : " وأخاف أن يأكله الذئب " فإذا اعتبرت الواو استثنافية فالجملة هنا خالية من المؤكّدات باعتبار السامع لا يدور في خلده شيء من أن يوسف سيتعرض لخطر الذئب ، فعادة الذئب لا يهاجم العصبة المجتمعية ، ولا يجرؤ على الاقتراب منهم فتناسب أن يخلو الخبر من المؤكّدات ، وكان على مقتضى الظاهر .

وأنا أميل هنا إلى أن هذه الواو استثنافية . لبعد الجمع بين الحزن والخوف من أكل الذئب ليوسف .

ومن الأخبار الاعتزارية قوله تعالى على لسان إخوة يوسف : «**فَالْأُولَاءِ يَتَابُونَ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَدِيقِينَ**» **(إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ)** الخبر هنا ملقي على خالي الذهن وهو يعقوب عليه السلام . وهو مؤكّد بمؤكّد واحد "إن" وذلك لما يعلمونه من يعقوب عليه السلام أنه يعلم سلفاً أنهم سيفرطون في يوسف بل سيتخلصون منه بأي وسيلة : فنزلوه منزلاً المتعدد في قبول الخبر بينما هو الذي ذكرهم بخوفه على يوسف من الذئب . وقد يكون بذلك قدم لهم عذراً قبل أن يدبوا مكيدتهم - ما كان ذلك العذر يطرأ على بال أحد منهم .

وحالهم هنا يتطلب منهم ألا يتجاوزوا ذلك ، فلو أكدوا الخبر بأكثر من مؤكد لدل ذلك على أن في أمرهم ريبة فالمتلقي أبوهم والضحية أخيه فلا بد من مراعاة ذلك ولو تصنعا ، ويلاحظ قولهم "نستيق" فلم يقولوا نتسابق على سبيل المفاعة وإنما قالوا نستيق وكأنهم يسعون إلى غير نهاية ليدلوا أنهم ابتعدوا عن يوسف ، مما أتاح للذئب أكله بالكلية فلا أمل في عودته ولا جزء منه وذلك لتبيين أبيهم من الحديث عنه . كما يلحظ قولهم "عند متاعنا" فهم بهذا كالذى يقول إنما تركناه مع متاعنا حتى لا يظن بهم إنما كان استباقيهم تجاه متاعهم ، وأن يوسف تأخر عنهم لعدم قدرته فتمكن الذئب من أكله . وفي هذا حيلة منهم لتعريض يوسف للخطر ، كما أن في تركه عند المتاع دلالة على عنايتهم به وعدم تفريطهم فيه .

فقوله "معاذ الله" أي : أعوذ بالله . ولما كانت الجملة الفعلية تدل على التجدد والحدث اختار الجملة الاسمية المؤدية للمعنى نفسه لأنها تدل على الثبات والدوام فهو هنا يقطع عليها خطوط الأمل فيما طلبت حتى لا تعاود مرة أخرى .

والجملة هنا جاءت ابتدائية متناسبة مع حال المخاطب. فذهن المخاطب خال من فحوى الخبر ومضمونه.

ومنه قوله تعالى على لسان امرأة العزيز بعد أن حضر إليها النسوة وذهلن من جمال يوسف : ﴿ قَالَتْ فَدَلِكُنَ الَّذِي لُمْتَنِي فِيهِ ﴾ جملة خبرية خالية من المؤكّدات لاعتبار حال المخاطب فهو خالي الذهن ، فلا تعلم النسوة مادا ستنقول امرأة العزيز عن يوسف . ويلاحظ إشارتها إليه بالبعيد تعظيمًا لمنزلته في نفسها . وإنماها منها إلى لومهن إياها بقولهن : ﴿ أَمْرَاتُ الْعَزِيزِ تُرِوْدُ فَتَهَا عَنْ نَفْسِهِ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَنَاهَا فِي صَلَلٍ مُّبِينٍ ﴾ فهو مجرد فتى في نظرهن لا يؤبه به ، ولا يتطلع إلى مثله من أمثال امرأة العزيز . ومن ذلك قوله تعالى على السنة إخوة يوسف : ﴿ قَالُوا يَأْتِيُهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَيْرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ، إِنَّا لَنَرَنَاهُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ إن له أبا شيخاً كبيراً . جملة خبرية مؤكّدة بمؤكّد واحد ، وذلك مراعاة لمقام يوسف عليه السلام منأخذ أخيه . فهم يعلمون من يوسف دقة التنفيذ في الحكم . وعدم التهاون مع المخطئ . وعدم تحويل أحد وزر غيره : فأكّد الخبر بممؤكّد واحد مع خلو ذهن المخاطب من مضمون الخبر ولكن لما كان الخبر مما يهم إخوة يوسف الاستجابة له أكّد بمؤكّد واحد . فنزل خالي الذهن منزلة المشكّ أو المتردد في قبول الخبر . ويوسف أعلم منهم بمضمون الخبر ، وبما سيؤول إليه حال أبيه عند سماعه احتجاز ولده الذي كان حريصاً لا يذهبوا به معهم حتى أتوا موتقاً من الله يأتنه به إلا أن يحاط بهم ، وهذا الخبر الاعتذاري لم يكن منهم اعتذاراً لأخيهم الذي وقع في نهمة أخذ صواع الملك . وإنما هو اعتذار من أجل أبيهم . ولذا وصفوه بأنه شيخ كبير . ويلاحظ في قولهم "إن له أبا شيخاً كبيراً" وتقدير الخبر الجار والمجرور "له" لإرادة حصر أبوته في هذا الفتى وكان ليس له من البنين غيره . حتى يكون ذلك الخبر استعطافاً للمخاطب لعل قلبه يرقق فيتفاعل مع طلبهم فيأخذ أحدهم مكانه .

ومن الأخبار الاعتذارية قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَظَلَمْمُوْنَ ﴾ وهذا الخبر الاعتذاري جاء على ظاهره . فالمخاطب خالي الذهن والخبر خال من المؤكّدات ولكن كلمة "معاذ الله" فيها من الإيحاء ما يجعل المخاطب يشعر بأهمية ما يتلو هذا التركيب الدال على حرص المتكلم . واجتهاده في عدم قبول ما طلب منه .

ويلاحظ في تعليل هذا الخبر أنه ورد جملة خبرية مؤكّدة بمؤكّدين هما "إن" واللام بالإضافة إلى اسمية الجملة وفي هذا إغلاق لباب الحوار في هذا الموضوع .

ومن الأخبار الاعتزارية قوله تعالى : ﴿ أَرْجُعُوا إِلَيْأِنِّي كُمْ فَقُولُوا يَأْبَاكَ إِنَّ أَبَنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهَدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَفِظِينَ ﴾ .

﴿ إن ابنك سرق ﴾ جملة طلبية مؤكدة بمؤكد واحد وقد القى الخبر فيها على خالي الذهن، فهم قادمون من سفرهم لا يعلم أبوهم ماذا فعلوا، وماذا فعل بهم ، وكان من حقه أن يلقى عليه الخبر خاليا من المؤكّدات، ولكن لعلّهم أن أباهم في نفسه شيء من ذهاب أخيهـم معهم فقد نزلوه منزلة المشكـك في خبرـهم . وكذا رأعوا حالـه من حيث ثقته في ابنـه أنه لن يقدم على سرقة فهو من بيت نبوة وما كان له أن يقدم على مثل ذلك الذنب . ويذكرـ هنا التعبير الدقيق في عبارـات إخـوة يوسف حيث قالـوا "ابنـك" ليشعـروا أباـهم بـريءـون مما عملـ أخـاهـم حتىـ أنـهم لا يـرونـ أنـ يـنـعـتوـهـ بـأنـهـ أخـوهـمـ . وفيـ هـذـاـ مـاـ يـجـعـلـ رـدـةـ الـفـعـلـ عـنـ أـبـيهـمـ أـحـفـ كـمـاـ يـتـصـورـونـ ،ـ فـقـدـ وـعـدـوـهـ مـنـ قـبـلـ بـقـولـهـمـ :ـ "ـ وـنـحـفـظـ أـخـانـاـ"ـ .ـ

ثم قالـوا بعد سرد الدلـائل على صدقـهمـ :ـ "ـ وـاـنـاـ لـصـادـقـوـنـ"ـ فـأـكـدـ الـخـبـرـ هـنـاـ بـثـلـاثـةـ مـؤـكـدـاتـ هـيـ :ـ الـوـاـوـ الـمـوـطـئـةـ لـلـقـسـمـ وـ"ـإـنـ"ـ وـالـلامـ وـهـذـاـ غـايـةـ التـأـكـيدـ ،ـ فـالـمـخـاطـبـ هـنـاـ بـعـدـ تـلـكـ الدـلـائـلـ قـدـ يـكـونـ مـتـرـدـداـ فـيـ قـبـولـ الـخـبـرـ ،ـ أـوـ مـشـكـكـاـ فـيـ صـحـتـهـ [ـ وـاعـلـمـ أـنـهـمـ لـمـ كـانـوـ مـتـهـمـيـنـ بـسـبـبـ وـاقـعـةـ يـوـسـفـ عـلـيـهـ السـلـامـ بـالـغـوـاـ فـيـ إـزـالـةـ التـهـمـةـ عـنـ أـنـفـسـهـمـ فـقـالـواـ "ـوـاسـأـلـ الـقـرـيـةـ الـتـيـ كـانـاـ فـيـهـاـ"ـ وـالـأـكـثـرـوـنـ اـنـفـقـواـ عـلـىـ أـنـ الـمـرـادـ مـنـ هـذـهـ الـقـرـيـةـ مـصـرـ .ـ وـقـالـ قـوـمـ :ـ بـلـ الـمـرـادـ مـنـهـاـ قـرـيـةـ كـانـتـ عـلـىـ بـاـبـ مـصـرـ جـرـيـ فـيـهـاـ حـدـيـثـ السـرـقةـ وـالـتـفـتـيـشـ [ـ¹ـ]ـ فـقـدـ اـسـتـشـهـدـوـاـ بـالـقـرـيـةـ الـتـيـ كـانـوـ فـيـهـاـ .ـ وـاسـتـشـهـدـوـاـ بـالـعـيـرـ الـتـيـ أـقـبـلـوـاـ .ـ فـيـهـاـ وـالـاستـشـهـادـ بـكـلـ مـنـ الـقـرـيـةـ وـالـعـيـرـ فـيـهـ دـلـيلـ عـلـىـ أـنـ الـحـادـثـةـ وـقـعـتـ ،ـ وـأـنـ أيـ إـنـسـانـ مـنـ أـهـلـ الـقـرـيـةـ ،ـ أـوـ مـنـ أـهـلـ الـعـيـرـ يـعـلـمـ بـمـاـ حـصـلـ فـلاـ يـقـنـعـ بـعـدـ ذـلـكـ رـيبـ لـدـيـ الـمـخـاطـبـ .ـ وـلـكـنـهـمـ نـزـلـوـهـ مـنـزـلـةـ الـمـنـكـرـ فـنـاسـبـ أـنـ يـخـاطـبـوـهـ بـعـبـرـ مـؤـكـدـ بـأـكـثـرـ مـنـ مـؤـكـدـ يـنـ إـظـهـارـاـ لـحـجـتـهـمـ ،ـ وـمـحاـولةـ مـنـهـمـ لـإـزـالـةـ كـلـ مـاـ قـدـ يـعـتـمـلـ فـيـ صـدـرـ أـبـيهـمـ مـنـ أـوهـامـ وـشـكـوكـ .ـ وـمـنـ ذـلـكـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ عـلـىـ لـسـانـ إـخـوةـ يـوـسـفـ عـلـيـهـ السـلـامـ :ـ "ـ قـالـوـاـ تـاـلـلـهـ لـقـدـ ءـاـثـرـكـ اللـهـ عـلـيـنـاـ وـإـنـ كـنـاـ لـخـاطـئـيـنـ"ـ .ـ ﴿ تـالـلـهـ لـقـدـ آثـرـكـ اللـهـ عـلـيـنـاـ ﴾ـ جـمـلـةـ مـؤـكـدـةـ بـثـلـاثـةـ

(¹) التفسير الكبير للفارخر الرازي ج ١٨ ص ١٩٠.

مؤكّدات : القسم . واللام . وقد . وفي هذا إلماح إلى غبّطتهم له . وسرورهم بما هو فيه ، واعترافهم بخطئهم بل بخطيئتهم . والمماحا لصنيعهم غير المسوّغ معه وهو أخوهم الذي لم يحدث منه ما يسوّؤهم . ولكنّه الحسد الذي يعمي القلوب . ويذهب بموازين العقول . وفي ابتداء الخبر بهذا القسم الموحي بغلظته من خلال اختيار حرف القسم التاء الموحي بالقوّة ما يظهر قوّة ردة الفعل لديهم عند المفاجأة التي ما كانوا يتوقّعونها ولا يحسبون حسابها وقد بدأوا بهذه الجملة الاعتذار منه ليخبروه بموقفهم منه في عزّه وتمكّنه الذي هو فيه . ليعلم أن تلك العصبة المتمثّلة عليه في زمان طفولته قد أصبحت في موقف ضعف أمامه . واعتراف بفضلـه عليهم . ولعل في اختيار فعل الإيثار هنا وإسناده إلى الله جل وعلا ما يشي بما في نفوسهم من خوف الانتقام . ففي ذلك ما يجعل يوسف عليه السلام يتذكّر المنعم المتفصل الذي مكّنه وأكرمه وفضله عليهم ، بعد أن كان في قبضتهم كالعصفور مهیض الجناح في زمان ما .

ثم قالوا معذّرين عن خطئهم : " وإن كنا لخاطئين " ويلحظ أن الجملة هنا معطوفة على سابقتها ، فهي تأخذ حكمها من حيث مؤكّدات الخبر . وفي هذا تنزل للمخاطب خالي الذهن منزلة المنكر ، وذلك إمعان في تقوية الخبر رغبة في قبوله . وعدم التردد أو الشك فيه فضلاً عن الإنكار . ومن بلاغة الجملة هنا : أنها جاءت بشكل فيه سرعة في الأداء واختصار في اللفظ حباً في إيصال عذرـهم بل اعتذارـهم عما بدرـ منهم . واعترافاً بما وقعوا فيه من خطأ يظهر ذلك من خلال تحفيف " إن " الثقلة وحذف اسمها . ثم إدخال كان واسمها للدلالة على أن خطئـهم كان – أما الآن فهم على حال مختلفة إذ أعلّنا سعادتهم بما وفق إليه يوسف . وبما مكّنه الله منه وهذه الجملة الاعتذارـية هي اعتراف بالذنب والخطيئة ، وهذا من أسباب استجلاب العفو وعدم المؤاخذة .

ومن ذلك قوله تعالى على لسان أبناء يعقوب لأبيـهم : « إنـا كـنا خـاطئـين » وفي هذه الجملة الخبرية الاعتذارـية يرد مؤكـد واحد هو " إنـ المؤكـدة وذـلك مراعـاة لحال المخاطـب الذي تقدـم في مخاطـبـته ما يثير تساؤـلاً يتطلب إزالـة لبسـ ذلك التسـاؤل بـمؤكـد واحد ، ذلك في قوله تعالى قبل هذه الجملة على ألسـنة المتكلـمين " يا أباـنا استـغـفـرـ لنا ذـنوبـنا " فـطلب الاستـغـفار مـدعاـة لـتسـاؤلـ المـخـاطـبـ عن سـبـبـ الاستـغـفارـ ، فـكان توـكـيدـ الخبرـ بـمؤـكـدـ واحدـ هوـ الملـائمـ لـحالـ المـخـاطـبـ .

## المبحث الرابع : الأخبار الاحتجاجية :

هي تلك الأخبار في السورة الواردة على سبيل إقامة الحجة على خبر يريد المتكلم أن يثبت صدقه فيه ، أو يريد أن يفند خبراً أو دعوى صدرت من غيره، ليثبت خلافها ، أو عكسها ونقضها ، فتكون الأخبار الاحتجاجية إما احتجاجاً للمتكلم ، أو لمن يدافع عنه المتكلم ، أو احتجاجاً على المخاطب أو غير المخاطب .

والخبر الاحتجاجي يكون عادة مما تقوى فيه الحجة ، ويراد من المخاطب أن يستوعبه وينتبه إليه ، ليقبل الحجة . وبصدق المتكلم .

فمن تلك الأخبار الاحتجاجية الواردة في سورة يوسف قوله تعالى على لسان إخوة يوسف عليه السلام : «إِذْ قَالُوا يُوسُفُ وَأَخْوَهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصَبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» آية ٨ .

﴿ليوسف وأخوه أحب إلى أبيينا منا﴾ الام للابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة أرادوا أن زيادة محبتهم لهما أمر ثابت لا شبّه فيه<sup>(١)</sup> .

” وإنما قالوا أخوه . وهم جمِيعاً إخوة لأنَّ أحَمَّهُمَا كَانَتْ وَاحِدَةً ”<sup>(٢)</sup> .

” وإنما لم يذكر باسمه تلوينًا بأنَّ مدار المحبة أخيته يوسف من الطرفين ألا يرى إلى أنَّهُمْ كَيْفَ اكْتَفَوْا بِإِخْرَاجِ يُوسُفَ مِنَ الْبَيْنِ مِنْ غَيْرِ تَعْرُضٍ لَهُ حِيثَ قَالُوا اقْتَلُوْا يُوسُفَ ”<sup>(٣)</sup> .

فالجملة هنا خبرية . المراد منها الاحتجاج على محبة يعقوب عليه السلام ليوسف وأخيه محبة خاصة . وإخراج أولئك الإخوة العصبة من تلك المحبة . والخبر هنا ملقي على من لا ينكره ولا يشك فييه ولا يتردد في قبوله ، حيث ألقى بلسان الجميع على الجميع ، والواقع أنَّ الملقي واحد منهم ولكن لما كان هو رأي الجميع أُسند الفعل إلى ضمير الجمع وآتى الجماعة . وكأنَّهم اشتركون في القول بعبارة واحدة ، ومادام الأمر كذلك فلم أَكُدُ الخبر بمُؤْكَدٍ واحدٍ ؟ لقد نزل القائل إخوته منزلة المشكك في الخبر . وما ذلك إلا تأكيداً منهم على صحة الخبر وأنه لا ليس فيه ولا شك ولا تردد في قبوله .

(١) الكشاف ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ج ١٨ ص ٩٢ .

(٣) تفسير أبي السعود ج ٢ ص ١١٢ .

ثم جاءت الجملة الخبرية الأخرى المبنية على الجملة الأولى : ﴿ إِنْ أَبَا نَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ وهي تابعة لسابقتها في المتكلم بها . وفي المخاطب بها أيضاً، ولكنها خالفتها في دخول أكثر من مؤكّد عليها . وما ذلك إلا أن الخبر الأول قد كان من عالم به إلى غير منكر له ، أما الخبر الثاني فقد كان تعليلًا لسابقه ، وكان المتكلم به والمخاطبون به لا ينكرونه ولا يشكّون فيه . ولكن تحريضاً لأنفسهم ودفعاً لها من أجل قبول الخبر الأول ، وكان معتراضاً اعترض على ما قالوا في الخبر الأول ، لأن الأصل في علاقة الآباء بأبناءه علاقة ود وعدالة ، ولأنه لا يقدح فيها أن يفضل بعض الأبناء على بعض في ميل القلب ولغة المشاعر لاعتبارات منها الصغر . فما بالك إذا خالط الصغر نجابة وذكاء . وعلامات تنبئ عن فضل في النجابة والذكاء . بل توحّي بما هو فوق ذلك كله وهو النبوة . كما هو الحال مع يوسف .

لقد نزل المخاطب هنا منزلة المنكر لا إنكاراً ولكن استنكاراً ، وكأنّهم هنا يقولون لأنفسهم إياكم أن تحيدوا عما أزمعتم عليه . إنه خبر يحفّز النفس على قبوله وعدم التردد في ذلك .

ومن ذلك قوله تعالى على السنة إخوة يوسف أيضًا : ﴿ قَالُوا إِنَّ أَكَلَهُ الَّذِئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَيْهُ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَا ﴾ آية ١٤ .

فالجملة هنا احتجاج ومحاجة على قول أبيهم : ﴿ وَأَحَادُثُ أَنْ يَأْكُلَهُ الَّذِئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَيْفُلُونَ ﴾ ويلحظ هنا أن الجملة مملوقة بالمؤكّدات . فاللام الموظنة للقسم "لئن" ثم إن واللام في "إنا إذن لخاسرون" بالإضافة إلى زيادة "إذن" في الجملة معمكان الاستغناء عنها . وتمام المعنى بدونها في السياق ، وهذا الحشد من المؤكّدات لتنزيل المخاطب المتردد منزلة المنكر . وذلك ترغيباً له في قبول الخبر . وإنّسا له حتى لا يبقى لديه ما يخشى مما أثار شكه وتردده . فقد كان الأمر لديه مجرد حزن وخوف وليسقطعاً بالمعنى .

ومع هذا نزلوه منزلة المنكر للخبر . وهذا يدل على حرصهم الشديد على قبول أبيهم الخبر وعدم الاعتراض على ما طلبوا . وهو رفقـة يوسف عليه السلام لهم إلى المرعى بعيداً عن والده .

ومن الأخبار الاحتجاجية قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام : ﴿ قَالَ بَلْ سَوْلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبَرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ آية ١٨ .

” بل سولت لكم أنفسكم أمرا ” جملة خبرية خالية من المؤكدات . لاعتبارين : الأول إضراب المتكلم عما أخبروه به ، وهذا الإضراب سينقل الخبر الوارد عن طريقهم إلى مسار آخر ” قوله (بل) رد لقولهم : (أكله الذئب ) كأنه قال : ليس كما تقولون (بل سولت لكم أنفسكم ) في شأنه (أمرا) أي زينت لكم أنفسكم أمرا غير ما تصفون ”<sup>(١)</sup> .

الثاني أن المخاطب خالي الذهن من فحوى الخبر الذي أخبر به الأب ، ومن هنا كان سر مجيء الخبر خال من المؤكدات .

وهنا أمر آخر وهو التراكم المعرفي عن القضية ، فالاب يعلم أن إخوة يوسف سيكيدون له كيدا ، والأبناء يعلمون من أبيهم عدم ثقته فيهم . ومن هنا كان الخبر لتنزيل المنكر منزلة خالي الذهن باعتبار الخبر مما لا يماري فيه ولا يشك في صحته .

وقد تتابعت الآية بخبرين آخرين معطوفين على هذا الخبر وعلى نسقه . من عدم المؤكدات الخبرية ، ومسايرة لموقف الطرفين المتكلم والمخاطبين ” صبر جميل والله المستعان على ما تصفون ” فالصبر الجميل هنا ، والاستعانة بالله تعالى على ما يصفون كلها مما ذو صلة بواقع الأمر الذي وقعت فيه الجملة الاعتزارية ، وينطبق عليها ما انطبق عليها .

وهنا موضع ” من مواضع الحذف في المسند إليه ، حيث يؤدي الحذف إلى زيادة الاحتمالات والتقدير . وفي هذا ما فيه من تأثير على المعنى ... إذ يمكن القول : أمري صبر جميل ويمكن القول : صبر جميل أجدر بي وأجمل ”<sup>(٢)</sup> .

ومن ذلك قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام عند مراودة زوجة العزيز له ، وطلبتها إياه : ﴿ قَالَ معاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مُثَوِّي ﴾ آية ٢٣ .

” قال معاذ الله ” أي أعود بالله معاذًا مما دعوتهني إليه ، فهو مصدر منتصب بفعل محذوف مضار إلى اسم الله سبحانه ، وجملة ” إنه ربى أحسن مثواي ” تعليل لامتناع الكائن منه ببعض الأسباب التي هي أقرب إلى فهم امرأة العزيز . والضمير للشأن أي : إن

(١) التفسير الكبير للفارخر الرازي ج ١٨ ص ١٠٢ .

(٢) بلاغة التراكيب دراسة في علم المعاني ص ٥٩ .

الشأن ربي ، يعني : العزيز أي سيدى الذى رباني ، وأحسن مثواي حيث أمرك بقوله ”أكرمى مثواه ”فكيف أخونه في أهله . وأجيبك إلى ما تريدين من ذلك ؟ وقال الزجاج : إن الضمير لله سبحانه أي إن الله ربى تولاني بلطفه فلا أركب ما حرمك . وجملة ”إنه لا يفلح الظالمون ”تعليق آخر للامتناع منه عن إجابتها<sup>(١)</sup> .

وبالنظر في الآية تبرز الجملة الاحتجاجية ”إنه ربى أحسن مثواي ”جملة خبرية مؤكدة بمؤكد واحد تنزيلاً للمخاطب خالي الذهن منزلة المتردد المشكك في قبول الخبر . وذلك لقطع الطريق على وهمها . وكذلك لموقفها في قبول رفضه (معاذ الله) فقد كانت لا تتصور أن يألف أو يعتذر عن قبول ما أرادت منه فلما قال : معاذ الله دخلها تساؤل لمعرفة السر في ذلك فتطلب الخبر التعزيز بمؤكد واحد هو حرف التوكيد ”إن” . ثم ثنى بجملة أخرى متطابقة مع سابقتها في الحجة . وفي البناء من حيث التوكيد (إنه لا يفلح الظالمون ) وهي تقوى معنى سابقتها وتبينه .

ومنه قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام : ( هي راودتني عن نفسي ) وموقف يوسف هنا موقف الدافع عن نفسه تهمة الخيانة المركبة ، خيانة من أكرمه وأحسن مثواه ، وخيانة الزنى بزوجة من يعيش في كنفه ويستظل بكرمه . وقد وجهت إليه التهمة من سيدة القصر . وأولى سيدات عصرها ، وفي مواجهة مع زوجها . إنه موقف صعب . وتهمة مهولة تتطلب عند دفعها والمحاجة من شأنها إلى أغلال الأيمان . ووسائل التوكيد لإثبات عكسها وتقرير بطلانها ولكنها الثقة في النفس والصدق في الدعوى ” هي راودتني عن نفسي ” خبر خال من أي مؤكد حيث نزل المخاطب منزلة خالي الذهن تماماً . مع أن دعوى المرأة قابلة للتصديق ، فالعادة أنها أبعد عن طلب المراودة لما جبت عليه النساء من الحياة ، وأن الرجال عادة هم المبادرون في هذا الشأن . ثم إن الأمر تجاوز المحاولات المغربية والإيماءات المعتبرة إلى مطاردات لم يسعها قصر العزيز على ما فيه من كثرة الأبواب ” وغلقت الأبواب ” بل بلغت تلك المطاردات باب القصر الرئيس الذي ينفذ إلى خارج القصر . وهذه دلائل تجعل الخبر كله لصالح امرأة العزيز . وضد يوسف عليه السلام . ومع هذا كله كان الخبر الذي احتج به يوسف خالياً من المؤكّدات

(١)فتح الcedirج ٢ ص ٤٠٩.

إنزالاً للمخاطب المنكر منزلة خالي الذهن ، اعتماداً على الواقع الحال من حيث علمهم بخلقه وسلوكه السوي ، ثم من حيث ثقة المتكلم في صدق خبره ، وبراءة موقفه حتى كأنه يظهر عليه بارزاً عيناً مما لا يحتاج معه إلى تأكيد خبر ولا إقامة دليل .

ويلاحظ هنا تعبيره عنها بضمير الغائب استبعاداً لها حساً ومعنى ، فاستبعادها في الحس يعطي المتكلم مساحة أكبر في حرية التعبير عنها ، واستبعادها معنى يعني عدم الاعتداد بها ومراعاة أمرها عند الحديث في القضية . وكأن الحديث هنا جاء من المخاطب أي العزيز لا منها وهذا غاية الدقة في التعبير عن دفع التهمة الموجهة إليه ظلماً وزوراً .

ومنه قوله تعالى على لسان الشاهد : (إنه من كيدهن إن كيدهن عظيم) .  
" أي من جنس حيلتهن ومكرهن أيتها النساء لا من غيرهن عن الإفادة وتدبر العقوبة وإن لم يمكن تجريده عن الإضافة إليها إلا أنها لما صورته بصورة الحق أفاد الحكم بكونه من كيدهن إفادة ظاهرة فتأمل . وتعظيم الخطاب التنبيه على أن ذلك خلق لهن عريق :

ولا تحسبا هنالها الغدر وحدها سجية نفس كل غانية هند<sup>(١)</sup>

إن المخاطب هنا يعد خالي الذهن باعتباره يتربص بما سينطق به ذلك الحكم - على اختلاف هل هو الشاهد من أهل زوجة العزيز ، أم هل هو العزيز نفسه - فلا يعلم المخاطب ماذا سيقول ذلك الحكم ؟ ومن سيخاطب ؟ ولكن الحكم هنا نزل المخاطب منزلة المشكك أو المتردد . والمخاطب هنا هو امرأة العزيز وهي من حيث موقفها من قبول الخبر تعلم في قراره نفسها أنه صحيح فلا شك لديها ولا تردد ، ولكن المتكلم نزلها منزلة المتردد في قبول صحة الخبر نظراً لسابق دعواها التي تنزلها منزلة المنكر . فقد ادعت على يوسف أنه من أراد بها سوءاً فناسب أن تنزل هنا منزلة المتردد في تصديق الخبر ، وذلك عزاء لها وإيناساً لتقبلها الخبر . ويلاحظ هنا أنه قال من كيدهن فأسند المصدر إلى ضمير المخاطبات ، وبغض النظر عما ذكر آنفاً من أن المقصود أن هذا من خلق عامة النساء إلا أنني أرى - والله أعلم - أن هنا مغزى بلاغياً أبعد من ذلك ، وهو

(١) تفسير أبي السعود ج ٢ ص ١٣٤ .

إنما أراد من ذلك أن تتقبل ما نطق به بناء على صحة الدلائل التي ذكرها الشاهد من قد العميق من الدبر، فقد افتضحك أمرها، ومن الصعوبة بمكان أن تجاهه بالحكم هكذا وفي مكان الاتهام ، فهو عليها الأمر يجعل ذلك عادة من عادات النساء سلوكا من سلوكهن، وهذا ليس كذلك وإنما أراد أن يهدى من روعها ويخفف وقع الحكم عليها، فأشرك معها النساء لتقبل الخبر بعد إن أصبح على العكس مما ادعته تماما، وكونه من طبيعة النساء كما ذكر في الحكم فلن يضريرها أن تتقبله ولو على مضض ، فكان التوكيد بمؤكد واحد . ثم قال بعد ذلك زيادة في إيناسها " إن ڪيڊڪن عظيم " وهو للمغزى البلاغي نفسه.

ومن ذلك قوله تعالى على لسان النسوة اللاتي في المدينة : « وَقَالَتْ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ أَمْرَاتُ الْعَزِيزِ تُرْوِدُ فَتَنَّهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » آية ٢٠ .  
 « إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » [ مقررة لمضمون ما قبلها . والمعنى : إنا لنراها أي : نعلمها في فعلها هذا ، وهو المراودة لفتتها في ضلال عن طريق الرشد والصواب ، مبين واضح لا يتبين على من نظر فيه ] <sup>(١)</sup> .

" وإنما لم يقلن إنها لفي ضلال مبين إشعارا بأن ذلك الحكم غير صادر عنهن مجازفة بل عن علم ورأي مع التلويع بأنهن متنزهات عن أمثال ما هي عليه " <sup>(٢)</sup> .  
 وهذه الجملة الخبرية مؤكدة بمؤكدتين "إن" ، واللام ، حيث نزل خالي الذهن منزلة المنكر وذلك من أجل تقبل الخبر وقبوله ، وهذا الخبر جاء على هذه الصورة لأن المخاطب قد يتلمس لها عذرا بما أصابها من شغف الحب ، فالأمر عند ذلك يصبح فوق تحملها وارغاما لإرادتها فنزل من هذا حاله منزلة المنكر تقوية للخبر ، وإزالة للوهم واللبس الذي قد يحدث للمخاطب من جراء ما ذكر ، كما أن في الخبر تزكية للمتكلم وتزييه له عمما خاص فيه .

ومن ذلك قوله تعالى على لسان امرأة العزيز احتجاجا على لوم النسوة لها بعد أن رأين يوسف ، وأثنين على جماله ، وانبهرن به ، وقطعن أيديهن : « قَالَتْ فَدَلِيلُكَ الَّذِي

(١)فتح الcedirج ٢ ص ٤١٣ .

(٢)تفسير أبي السعود ٢ ص ١٣٦ .

لُمْتَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَأَوْدَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصَمْ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمْرُهُ لَيُسْجَنَ  
وَلَيَكُونَا مِنَ الْاصْفَرِينَ»

﴿فَذلِكَ الَّذِي لَمْتَنِي فِيهِ﴾ جملة خبرية احتجاجية خالية من أي مؤكّدات ، ويلاحظ هنا صرف النظر عن توكيـد الخبر إلى توكيـد المخبر عنه إذا صـح التعبير . فقد استعمل اسم الإشارة هنا للبعـيد مع قرب المشارـ إليه إجلالـ له . وتعظـيمـاً لمـكانـته ، وإـكـبارـ الجـمالـه وحسـنه .

قال الزمخـشـري : ( ولم تقل فـهـذا وهو حـاضـر رـفعـاً لـمنـزـلـتـهـ فيـالـحـسـنـ وـاسـتـحـقـاقـ أـنـ يـحـبـ وـيفـتـنـ بـهـ وـرـبـأـ بـحـالـهـ وـاسـتـبـعـادـاـ لـمـحلـهـ وـيجـزـ أنـ يـكـونـ إـشـارـةـ إـلـىـ الـمعـنـيـ بـقـولـهـنـ عـشـقـتـ عـبـدـهـاـ الـكـنـعـانـيـ تـقـولـ هـوـ ذـلـكـ الـعـبـدـ الـكـنـعـانـيـ الـذـيـ صـورـتـنـ فـيـ أـنـفـسـكـنـ ثـمـ لـمـتـنـيـ فـيـهـ تـعـنيـ أـنـكـنـ لـمـ تـصـورـنـ بـحـقـ صـورـتـهـ وـلـوـ صـورـتـهـ بـمـاـ عـاـيـتـنـ لـعـذـرـتـنـيـ فـيـ الـافـتـانـ بـهـ ) (١) إـنـ النـسـوـةـ لـمـ يـكـنـ يـعـلـمـنـ مـاـ سـتـقـولـ لـهـنـ . وـلـذـلـكـ لـاـ يـلـازـمـ أـنـ يـؤـكـدـ الـخـبـرـ الـمـلـقـ عـلـيـهـنـ بـأـيـ مـؤـكـدـ . وـلـكـنـ لـمـ كـانـ النـسـوـةـ يـعـلـمـنـ اـفـتـانـهـاـ بـذـلـكـ الـفـتـ . وـلـمـ سـمعـتـ مـنـهـنـ الثـنـاءـ عـلـيـهـ . وـتـرـكـيـةـ جـمـالـهـ لـمـ تـحـتـاجـ إـلـىـ أـيـ مـؤـكـدـاتـ لـلـخـبـرـ فـالـأـمـرـ وـاضـعـ فـيـ غـايـةـ الـوـضـوـحـ بـيـنـ فـيـ غـايـةـ الـبـيـانـ . لـاـ يـتـطـلـبـ مـؤـكـدـاتـ ، وـلـاـ يـتـطـلـبـ مـعـهـ الـمـخـاطـبـ أـنـ يـنـزـلـ إـلـىـ مـنـزـلـةـ غـيرـ مـنـزـلـةـ خـالـيـ الـذـهـنـ .

ثـمـ قـالـتـ " وـلـقـدـ رـاوـدـتـهـ عـنـ نـفـسـهـ فـاسـتـعـصـمـ " وـهـذـاـ الـخـبـرـ مـؤـكـدـ بـعـدـ مـؤـكـدـاتـ : الـلـوـاـوـ الدـالـلـةـ عـلـىـ الـقـسـمـ ، وـالـلـامـ ، وـقـدـ . وـهـذـاـ غـايـةـ التـاكـيـدـ وـلـاـ يـكـونـ إـلـاـ مـعـ الـمـخـاطـبـ الـمـنـكـرـ لـلـخـبـرـ . أـوـ الـمـنـزـلـ مـنـزـلـةـ الـمـنـكـرـ لـلـخـبـرـ . وـالـمـخـاطـبـ هـنـاـ وـهـوـ النـسـوـةـ لـاـ يـنـكـرـ الـخـبـرـ وـلـكـنـ لـمـ كـانـ الـأـمـرـ كـمـاـ عـلـمـنـ وـرـأـيـنـ فـقـدـ نـزـلـ الـمـخـاطـبـ غـيرـ الـمـنـكـرـ مـنـزـلـةـ الـمـنـكـرـ نـظـراـ لـأـهـمـيـةـ الـخـبـرـ . وـلـتـحرـكـ لـوـاعـجـ الشـوـقـ فـيـ قـلـبـ الـمـتـكـلـمـةـ بـعـدـمـاـ عـلـمـتـ مـنـ النـسـوـةـ الـوـقـوعـ فـيـمـاـ وـقـعـتـ فـيـهـ مـنـ الـافـتـانـ بـيـوسـفـ . وـكـأـيـ بـهـاـ تـرـيدـ تـحـرـيـكـ مـشـاعـرـهـنـ ، وـدـغـدـغـةـ عـواـطـفـهـنـ . نـكـاـيـةـ بـهـنـ إـذـ قـلـنـ عـنـهـ : ﴿إـنـاـ لـنـرـاهـاـ فـيـ ضـلـالـ مـبـيـنـ﴾ فـقـدـ أـصـبـحـنـ بـعـدـ مـاـ رـأـيـنـ يـوـسـفـ يـقـفـنـ مـنـهـاـ مـوـقـفـ الـحـاسـدـ بـعـدـ أـنـ كـنـاـ يـقـفـنـ مـنـهـاـ مـوـقـفـ الشـامـتـ . وـقـدـ عـلـمـتـ ذـلـكـ مـنـهـنـ فـقـالـتـ مـاـ قـالـتـ .

(١) الكـشـافـ جـ ٢ـ صـ ٢٥٤ـ .

ومن ذلك قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَىٰ حَرَابِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ لما كان يوسف عليه السلام في السجن كان ذلك مما يقلل من مكانته حسب عرف الناس، فلما كلمه الملك ومكنته وقربه. وهو أعرف الناس ببراءته مما نسب إليه أراد يوسف أن يختار لنفسه ما يجعله أكثر ظهوراً في أمانته وصدقه، وعدم تطرق الخيانة إليه فطلب أهم وزارة في تلك الحقبة. فمصر مقبلة على سبع سنين مملوءة بالخير والنعمـة، ثم تعقبها سبع سنين آخر مملوءة بالجفاف وعدم الأمطار، مما يتسبب في ذهاب كل خير بقي من تلك السنين الخيرة، وذلك يتطلب وزيراً يراعي أمر ذلك الخطر القادر يتصف بالأمانة والعلم وتلك فرصة يوسف عليه السلام (إني حفيظ عـلـيم) وهذا خبر أقـي على خالي الذهن ولكن لما كان الطلب مما لا يناله إلا الندرة من الناس، وبعد معرفة وتمحیص ومن دون سابق خطاً يجول دون ذلك، ولما كان الأمر بهذه الأهمية فقد أكد الخبر بمـؤـكـد واحد هو "إن" مع اسمـة الجملـة بالإضافة إلى اختيار صيغـة المـبالغـة من اسـمي الفـاعـل: حـفـيـظـ وـعـلـيمـ.

ومع أن الملك قد قال له "إنك اليوم لدينا مكـيـنـ أمـيـنـ" ومع ثقة يوسف في موافقة الملك على طلبه سلفاً إلا أنه نزل منزلة المتردد أو المشـكـ في صحة الخبر وذلك تطمـيـناً له وإزالة لما قد يجـولـ في نفسه من خواطـرـ أو هـواجـسـ. ولاسيـماـ أنه يطلب مطلـباـ نـفـيـساـ وـمـنـصـباـ كـبـيراـ.

ومن ذلك قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ أُوفِيَ الْكَيْلَ وَأَنَّا حَيْرُ الْمُنْزَلِينَ﴾ إنه يحتاج لنفسـهـ بما يـرـغـبـ إـخـوـتـهـ في قـبـولـ ما طـلـبـ منـهـ منـ المـجيـءـ بـأـخـيـهـمـ وـإـقـنـاعـ أـبـيـهـمـ بـذـلـكـ، وـهـذـهـ الجـمـلـةـ الـخـبـرـيـةـ تـتـضـمـنـ حـرـفـ التـحـضـيـضـ "أـلـاـ" وـهـوـ مـؤـكـدـاتـ الـخـبـرـ كـمـاـ تـتـضـمـنـ "أـنـ"ـ الـمـؤـكـدـةـ وـذـلـكـ لـتـزـيلـ الـمـخـاطـبـ خـالـيـ الـذـهـنـ مـنـزـلـةـ الـمـنـكـرـ نـظـراـ لـأـهـمـيـةـ مـاـ طـلـبـ، وـصـعـوبـتـهـ عـنـدـ إـخـوـتـهـ، وـقـدـ أـرـادـ أـنـ يـغـرـيـهـمـ يـضـمـنـ عـودـتـهـمـ إـلـيـهـ مـصـحـوـبـيـنـ بـطـلـبـهـ الـعـزـيزـ، أـخـيـهـ لـأـمـهـ.

ويـلـحظـ هـنـاـ استـعـمالـ الـفـعـلـ مـعـ الـوـفـاءـ دـلـالـةـ عـلـىـ التـجـددـ وـالـحـدـوثـ، وـاستـعـمالـ الـاسـمـ مـعـ الإـنـزالـ لـلـدـالـلـةـ عـلـىـ الثـبـوتـ وـالـدـوـامـ، فـالـإـنـزالـ أـعـظـمـ مـنـ الـكـيـلـ حـيـثـ لـاـ مـقـابـلـ فـيـهـ، أـمـاـ الـكـيـلـ فـهـوـ بـمـقـابـلـ مـنـ ثـمـنـ أـوـ شـبـهـ.

ومنه قوله تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿ قَالُوا تَأَلِّهَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ آية ٧٣

إن الجملة الخبرية هنا مؤكدة بأعظم المؤكّدات : القسم بحرفه القوي . التاء . إيهاء بقوّة القسم وغلظته وكذا . اللام وقد . وهذه المؤكّدات باعتبار المخاطب منكراً لدعواهم فقد قال لهم " أيتها العير إنكم لسارقون " فلا يكفي معه إلا ما يتلاعمر مع حاله المنكرا للخبر . وهنا الخبر جاء على مقتضى الظاهر ، ويلحظ هنا أيضاً أن القسم منهم وتأكيد الخبر بهذه المؤكّدات لم يكن لدفع التهمة عنهم ، وإنما لإعلام المخاطبين بعلمهم بحال هؤلاء ، وأنهم لم يأتوا إلى تلك المدينة لشيء مما اتهموا به ، ثم عطفوا على تلك الجملة جملة أخرى " وما كنا سارقين " فنفوا عن أنفسهم أنهم لم يكونوا سارقين بنفي الماضي دلالة على سلامتهم من تلك التهمة فليست السرقة مما تعودوا أو تخلقاً به .

ومنه قوله تعالى على لسان إخوة يوسف محتاجين على أخذه لأخيهم : ﴿ قَالُوا يَأْتِيهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَيْرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَثُكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ آية ٧٨ .

الجملة هنا ملقة على خالي الذهن ، فالمحاطب لا يعلم ماذا سيقولون ، فنزلوه منزلة المتردد طمعاً منهم في تفهمه لما يرغبون أن يفعل معهم .

ويلاحظ هنا تقديم المسند في الجملة الاسمية ، لتشويق السامع إلى معرفة المسند إليه ، وفي هذا شد انتباه وحرص على إيصال الخبر إلى ذهن السامع بدقة متناهية . ثم جاء المسند إليه اسماء نكرة " أبا " ولك أن تخيل ماذا سيجول في خاطر المحاطب من تساؤلات عن صفة ذلك الأب ، ثم وصف بأنه "شيخاً" وفي هذا مداعاة لقبول الخبر والقناعة بالمطلوب ، ولكنهم حرصاً منهم في استعطاف المحاطب ، وترقيق قلبه أضافوا إليه وصفاً آخر " كبيراً" ومع أن كلمة شيخ قد تغنى عن كلمة كبير لإيحائهما بمعناها إلا أنها قد توحى بمعنى آخر ، فقووا مرادهم بكلمة كبير .

وهناك جمل إخبارية أخرى في هذا الموضوع وفي غيره مما سبقه من موضوعات أخرى ، ولكنها بعمومها لا تخرج بلاغياً عمما ذكر ، ولعل فيه ما يفي بالغرض المراد وبالله تعالى التوفيق .

## الخاتمة :

لقد حفلت سورة يوسف بقصة النبي كريم جعل الله له جمالا في خلقه وجمالا في خلقة، وحفظه سبحانه بعلم تأويل الأحلام، وقد ولد ذلك النبي الكريم في بيت نبوة، وفي كنف أبوين عطوفين، ووجد نفسه يتقاسم أبوة والده مع أحد عشر أخاً أغبلهم يكبره، مما جعلهم يرون في حفاظه والدهم به، واهتمامه بشأنه لما علم من مخايل النجابة فيه، ودلائل النبوة عليه. يكيدون له المكائد ويصنعون من أجله ما يرون فيه إبعاداً ليوسف عن أبيهم فكانت ، تلك القصة العجيبة متعددة الأطوار التي انتظمت حياة يوسف ، وما حدث له من طفولته إلى أن تولى وزارة خزينة مصر في عهده

وهذه القصة العجيبة تولالت فيها الشخصيات ، وتنوعت في الزمان والمكان والقرب والبعد والمكانة الاجتماعية ، مما جعلها مكتظة بالجمل الخبرية على تعدد أضرب الخبر في تلك الجمل، وهذا مما يغري بدراستها بلاغيا . وقد رأيت أن من استيفاء الدراسة البلاغية في هذا الشأن أن أقسم السورة إلى أربعة أقسام حسب موضوعاتها على سبيل العموم لا على سبيل الاستقصاء باعتبار دخول بقية آيات السورة موضوعاتها في ذلك ، وهذه الموضوعات العامة هي التي وردت الجمل الخبرية في السورة تباعاً لها ، فهناك أخبار منامية تتعلق بالرؤى والأحلام وهناك أخبار وعدية فحواها وعد أو وعد تتعلق بأمر مستقبلي لم يتم منه شيء بعد ، وهناك أخبار اعتذارية مضمونها الاعتذار تقوم على اعتذار يعتذر المتكلم ، وهناك أخبار احتجاجية يخبر بها المتكلم لبيان حجته، أو لرد ما قال غيره بحجية يقولها المتكلم ، وهناك أخبار أخرى متفرقة ولكنها لا ترقى إلى حجم هذه الأنواع الأربع ، وكذا لا تخرج بلاغياً عمما درس في هذه الأربعة ولذا اقتصرت على ما ذكر.

إن المتبع لبلاغة القرآن الكريم في أي فرع من فروع البلاغة وعلومها – ليجد بحراً زاخراً لاساحل له، كيف لا وهو معجزة النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام .

لقد ظهر من خلال البحث أن التعنيد البلاغي لا يجدي شيئاً ما لم يتکن على تطبيق تحليلي ، يظهر روعته ، ويبين جماله ، وإنني أهيب بطلبة العلم من يحسنون التحليل البلاغي أن يعمقوا في إبرازه من خلال بحوث يقومون بها ، أو يكلفون بها من تحت أيديهم من الطلاب الجامعيين ، ولاسيما طلاب الدراسات العليا ، وإن كل سورة مستقلة

في حجم سورة يوسف عليه السلام كافية أن تكون موضوع رسالة ماجستير أو دكتوراه ، لتحليلها تحليلًا بلاغيًا ، بعيداً عن التقعيد والتقطيعات الجافة التي يذهب بها بعثة البحث البلاغي .

أمل أن أكون قد أسلحت بهذه الدراسة المتواضعة في بيان بعض بلاغة القرآن الكريم التي هي بحر لا يبلغ الغائصون أعمقها . ومحيط عباب لا يصل السباحون المهرة ساحلها .

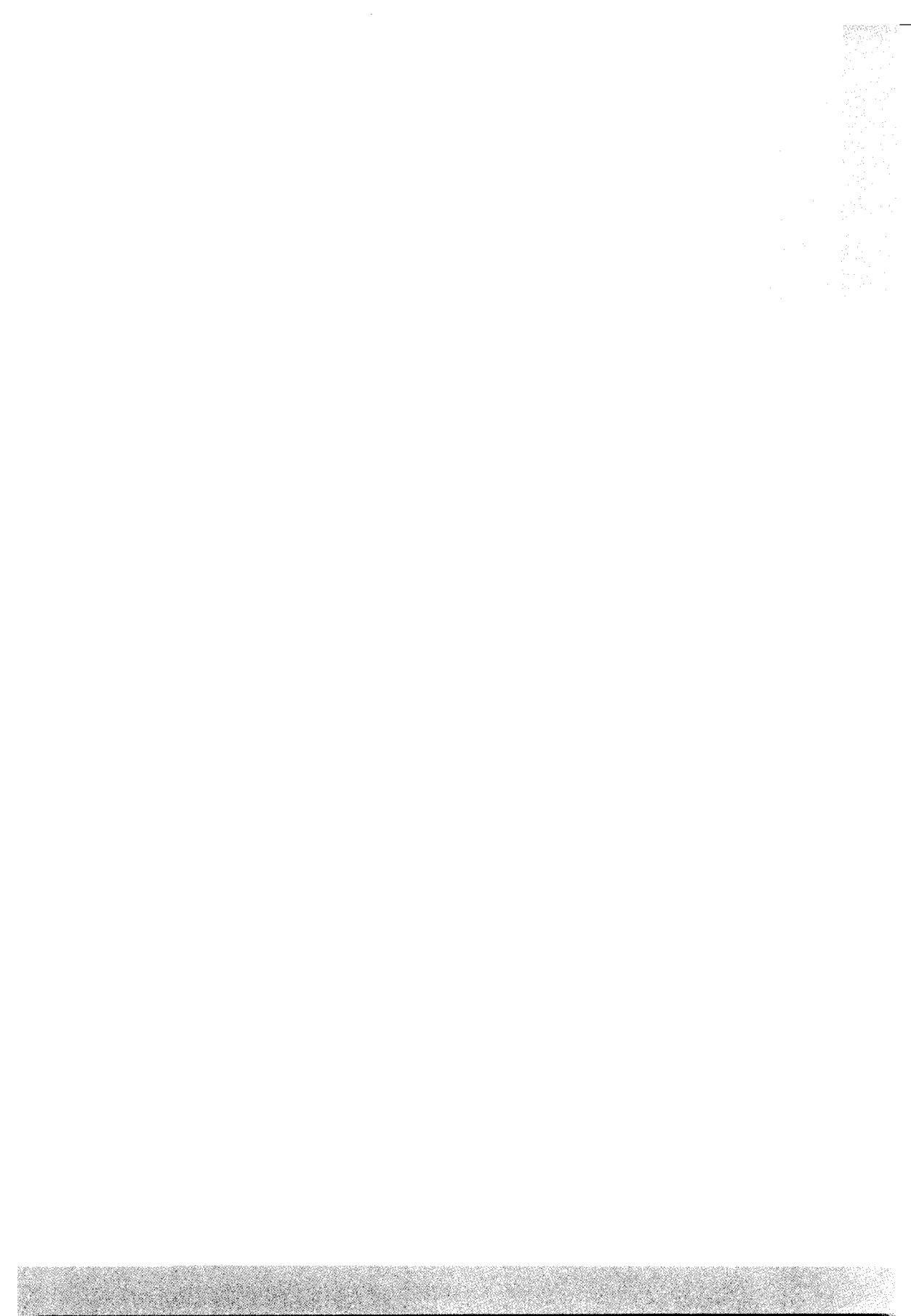
وإني لأعلم مدى التقصير لدى ، ولكنها محاولة أردت منها أن أفيد بما استطعت الوصول إليه من بلاغة هذا القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وبالله تعالى التوفيق ، ومنه جل وعلا العون والسداد .

\* \* \*

## ثبت بالمراجع :

- الإتقان في علوم القرآن. تأليف جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ج ٢، عالم الكتب بيروت.
- الإيضاح في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع. الخطيب القزويني. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م. دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
- البلاغة العربية في ثوبها الجديد. علم المعاني د. بكري شيخ أمين . ج ١ - الطبعة الثالثة ١٩٩٢م. دار العلم للملائين ، بيروت لبنان.
- البلاغة فنونها وأفناها . علم المعاني د. فضل حسن عباس الطبعة التاسعة ١٤٢٤هـ . ٢٠٠٤م. دار الفرقان والنشر والتوزيع . عمان الأردن.
- تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود محمد العمادي الحنفي. تحقيق عبد القادر أحمد عطاج ٢ الناشر مكتبة الرياض الحديثة الرياض.
- التفسير الكبير للفخر الرازي ج ١٨ الطبعة الثانية دار الكتب العلمية طهران.
- دراسات في المعاني والبديع د. عبد الفتاح عثمان مكتبة الشباب المنيرة . القاهرة.
- دلالات التراكيب دراسة بلاغية. د. محمد محمد أبو موسى. الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ . ١٩٨٧م. مكتبة وهبة. القاهرة مصر.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدرایة من علم التفسير . تأليف محمد بن علي الشوکانی ج ٢ الطبعة الرابعة ١٤٢٦هـ . ٢٠٠٥م. مكتبة الرشد ناشرون المملكة العربية السعودية.
- فن البلاغة د. عبد القادر حسين الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ . ١٩٨٤م. عالم الكتب بيروت.
- الكشاف للزمخشري. الكشاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تأليف جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ج ٢ دار المعارف بيروت لبنان.
- مفتاح العلوم للسكاكى يوسف بن أبي بكر السكاكى الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ . ١٩٨٧م. بيروت لبنان دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

\* \* \*



# **شخصية مروان بن أبي حفصة بين العاطفة والشعر**

د. إسماعيل محمود محمد  
جامعة جنوب الوادي



## **شخصية مروان بن أبي حفصة بين العاطفة والشعر**

**د. إسماعيل محمود محمد**

**جامعة جنوب الوادي**

### **ملخص البحث:**

تتناول هذه الدراسة "شخصية مروان بن أبي حفصة بين العاطفة والشعر"، وتحاول معالجة هذه القضية من خلال الجمع بين العاطفة الخاصة للشاعر وبين موضوعاته التي تتصدى لها، ومن الطبيعي في هذه الحال أن تبرز الشخصية وتوضح معالمها ويكون من السهل استخلاص حقائقها، لأن العاطفة ركن أصيل في عملية الإبداع تسهم في تعرية الشاعر وتسمهم بشكل كبير في تقديم جوانب شخصيتها، وكان الدافع وراء هذه الدراسة متمثلًا في جدلية التعرف على شخصية مروان بن أبي حفصة من خلال أشعاره، وما إذا كانت هذه الأشعار تحمل إشارات واضحة تعين على فهم هذه الشخصية؟ ويمكن للدارس أن يحدد قضية هذه الدراسة ويصوغ مشكلاتها المحورية في هذه التساؤلات التي تمثل بؤرتها الأساسية: هل كان للعاطفة أثر في أشعار مروان بن أبي حفصة؟ وما الدور الحقيقي لهذه العاطفة؟ وهل التعرف عليها يعين في الوصول إلى الشخصية؟ ثم في نهاية المطاف ما مدى تأثير الموضوعات الشعرية بها؟ وهل كان الشعر صدى لها؟ وبعد موضوع هذه الدراسة لوأى من الدرس القديم الجديد لأنه يخضع لشخصية قديمة وشعرًا قد يما لمقاييس النقد الحديث، ويحاول عن طريق هذا المزج أن يقدم رؤية واضحة تروي الطماً وتسد الحاجة عن هذه الشخصية التي لم تحظ بالدرس المتعتمق أو الدرس الذي يروي ظلماً المتفق، ولم تحظ حتى بالدرس الذي يفي بالحاجات الأولية عن هذا الشاعر، وذلك لأن جُلًّا ما كتب عنه يدخل في دائرة ما يسمى بـ"تاريخ الأدب" وهي دراسات - كما هو معروف - ذات منحٍ شمولٍ، فضلاً عن كونها دراسات نمطية في كثير من جوانبها، لأنها تعتمد على حشد وسرد وتقديم وتركيز الأحكام العامة وتبتعد عن تقديم الآراء المتعتمدة الدقيقة [في أغلب الأحيان]. وفي الأخير، نستطيع القول عن شخصية مروان: إنها شخصية مفتوحة بالصال ولديها القدرة على تقمص الأدوار التي تروي عن طريقها شهوتها العارمة نحو المال، وهذه الشخصية مائلة في كل أغراضه الشعرية، فهي تواجهك في المدح والرثاء والفرح والهجاء... وغيرها من أغراضه الشعرية.



## مقدمة:

الحمد لله رب العالمين: خلق الإنسان في أحسن تقويم وأمره بالتدبر والتفكير. فكان أول ما أنزله من القرآن الكريم قوله: ﴿أَقِرْأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ﴿خَلَقَ إِلَّا إِنْسَنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ﴿أَقِرْأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ﴿الَّذِي عَلَمَ بِالْقَلْمَرِ﴾ ﴿عَلَمَ إِلَّا إِنْسَنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ . والصلوة والسلام على رسول الرحمة والهدایة: نبینا محمد الخاتم الأمین وسلم تسليماً كثیراً. أما بعد:

فهذه الدراسة تتناول "شخصية مروان بن أبي حفصة بين العاطفة والشعر"; وهي تحاول معالجة هذه القضية من خلال الجمع بين العاطفة الخاصة بالشاعر وبين موضوعاته الشعرية التي يتتصدى لها. ومن الطبيعي أن تبرز الشخصية وتتضح معالمها ويكون من السهل استخلاص حقيقتها من خلال الجمع بين العاطفة والشعر؛ وذلك لأن العاطفة رکن أصيل في عملية الإبداع تسهم في تعرية الشاعر كما تسهم بشكل كبير في تقديم جوانب شخصيته.

ويكمن الدافع وراء هذه الدراسة في محاولة التعرف على شخصية مروان بن أبي حفصة من خلال أشعاره؛ وهل تحمل هذه الأشعار إشارات واضحة تعين على فهم هذه الشخصية؟. ويمكن للدرس أن يحدد قضية هذه الدراسة ويصوغ مشكلاتها المحورية في هذه التساؤلات: هل كان للعاطفة أثر في أشعار مروان بن أبي حفصة؟ وما الفائدة التي تحملها هذه العاطفة؟ وهل التعرف على هذه العاطفة يعين في فهم الشخصية؟ وما مدى تأثر الموضوعات الشعرية بهذه العاطفة؟ وهل كان الشعر صدى لهذه العاطفة؟.

ولمما كانت الأشعار التي ترتبط بهذه الإشكالية والتي تتصل بالعاطفة موجودة وواضحة في ديوان مروان بن أبي حفصة، فإن هذا يخدم هذه الدراسة ويقدم لها مادتها التي تقوم عليها من جانب، ويقدم القناعة التي تتحتم ضرورة ولوح هذا المعترك لكي نقف على الصورة المقاربة لهذه الشخصية من الجانب الثاني. والأهم من ذلك أن هذه الدراسة تحاول طرح آراء جديدة بعيدة عن المألوف والمقرر عن هذا الشاعر؛ طالما أن الآراء المكررة والمعادة هي الوحيدة المتاحة والمفروضة على من يتتصدى لدراسة مروان وشعره. ولا يخفى أن هذه الدراسة تحاول طرح الأقنعة الغليظة والأحكام الخاطئة التي

طبعت على مروان وشعره، كما أنها تحاول إزاحة الضباب الكثيف الذي طبع عليه كذلك. وفوق كل هذا تحاول إعادة اكتشاف زوايا جديدة متصلة بمروان وشعره، وهو ما يعدُّ أمراً مطلوباً وصحيًا وذلك لكي تتحرّك الأمواج الراكدة التي تحيط به وحتى تتعرّف عليه من قرب. ولا يخفى أن الثبات على ما قدمه السابقون والاكتفاء به يعدُّ ضرورة من التحجر الممقوت في الدراسات الأدبية، خاصة وأن هذه الدراسات تحتاج إلى إعادة النظر والمراجعة حيناً بعد آخر، لأن الجسم والقطع لا ينبغي أن يكون وارداً في هذه الدراسات.

ويعد موضوع هذه الدراسة لوناً من الدرس القديم الجديد لأنه يخضع لشخصية قديمة وشعراً قديماً لمقاييس النقد الحديث. ويحاول عن طريق هذا المزج أن يقدم رؤية واضحة تروي الطماً وتسد الحاجة عن هذه الشخصية التي لم تحظ بالدرس المتعمق الذي يروي الطماً عند المتلقى، أو يفي بالحاجات الأولية للقراء، وذلك لأن جل ما كتب عنه يدخل في دائرة ما يسمى بـ”تاريخ الأدب”. وهي دراسات - كما هو معروف - ذات منحٍ شموليٍّ، فضلاً عن كونها دراسات نمطية عقيمة في بعض جوانبها. لأنها تعتمد على حشد وسرد وتقديم وتكرار الأحكام العامة وتبتعد عن تقديم الآراء المتعمقة الدقيقة [في أغلب الأحيان].

ما أحوج مروان وغيره من شعرائنا إلى دراسات تخضعهم مع إبداعهم لمقاييس النقد الحديث، ولكن بشرط أن تتلاءم هذه الدراسات مع خصوصيتنا التي تميز أدبنا وأن تراعي هذه المقاييس النقدية الحديثة تقديم أحكام منسجمة مع واقعنا العربي الأصيل. بحيث تكون مراعية للذوق العربي وأن تطبق الأحكام المناسبة مع واقعنا الأدبي لا تلك الأحكام الخارجية من واقع الغير، ولا مانع أبداً من الاستثناء بما لدى الغير في تقديم أحكام تخدم هذه الشخصية وتعمقها وتعمل على إثرائها، ولكن دون أن تتلاشى / تذوب / تنمحي الشخصية العربية للمبدع والإبداع على حد سواء.

ولا يبقى في هذا الصدد إلا بيان شخصية مروان بن أبي حفصة من خلال محاولة تفسير العاطفة عنده وبيان قيمتها وعلاقتها بموضوعاته الشعرية، والوصول إلى هذه الغايات يقتضي معالجة المباحث الآتية:

أ- المقدمة: وبيّنت فيها أسباب اختيار الموضوع والدوافع إليه وقيمة وأهميته.

بـ- التمهيد: ووقفت فيه على أهمية العاطفة ومكانتها في الشعر وخاصة والفنون  
بعامة، وختنته بذكر مفهوم العاطفة الذي سرت عليه في الدراسة.

ج - شخصية مروان بين العاطفة والمديح.

د - شخصية مروان في العهد الأموي بين العاطفة والشعر.

هـ - شخصية مروان في مدح معن بن زائدة بين العاطفة والشعر.

و - شخصية مروان في مدح الخليفة المهدى بين العاطفة والشعر.

ز - شخصية مروان في مدائنه الأخرى بين العاطفة والشعر.

ح - ضروب التجديد التي سلكها مروان في مدحه.

ط - شخصية مروان بين العاطفة والرثاء.

ي - شخصية مروان بين العاطفة والمواضيعات الشعرية الأخرى.

ويتمثل كل مبحث من هذه المباحث قضية متكاملة وحلقة قائمة بذاتها، بالإضافة إلى أن كل مبحث من مباحثها يتحدد ويلاقى مع غيره من مباحث تقديم الشكل النهائى والأخير لهذه الدراسة، كل هذا من أجل تقديم شخصية منطقية ودقيقة لشخصية مروان بن أبي حفص، بحيث تكون هذه الشخصية التي تقدمها الدراسة أصح وأقرب إلى الشاعر.

وتقتضي الإشارة في هذا السياق إلى أن تقسيم هذه المباحث على هذا النحو ليس نابعاً من تساوي هذه المباحث كل منها بالآخر، ولكن يعد هذا التقسيم في هذه الدراسة عملاً تنظيمياً وأمراً منهجه لا أكثر ولا أقل، فلا يمكن أن يتساوى المديح مع الرثاء أو مع أي موضوع آخر من المواضيعات التي عالجها مروان، وذلك لطغيان موضوع المديح عنده وغلبته على الأغراض الشعرية الأخرى، حيث يطغى المديح ويسيطر على نتاجه الشعري كله، ذلك النتاج الذي تشكل فيه المواضيعات الشعرية الأخرى أجزاء فردية وقليلة، فالظاهرة الأولى والأخيرة عند الشاعر تتمثل في أشعار المديح التي قدمها، وعلى هذا لا يمكن أن يتساوى المديح مع بقية موضوعاته الشعرية في الطرح والمعالجة، ولو صحت هذا الأمر مع غيره من الشعراء فإنه لا يصح ولا يستقيم مع مروان، وذلك لأن كل أشعاره التي وردت في ديوانه والتي يصلح أن تقدم حكمًا مقبولاً عنه قد اقتصرت على المديح في المقام الأول.

وبعد: فإنني قد بذلت في هذا الدراسة قصارى جهدي؛ فإن وفقت إلى الصواب فذلك  
فضل الله يؤتى به من يشاء، وحسبني أنني كنت حريصاً على الوصول إلى الصواب وعانياً إليه  
قدر استطاعتي، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى الصراط المستقيم، وأسأل الله -  
سبحانه - أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وصل الله وسلم على نبينا محمد  
الهادي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

\* \* \*

## تمهيد:

تعدُّ العاطفة ركناً أساسياً في عملية الإبداع الشعري ليس هذا فحسب، بل إن العاطفة ركن ضروري في كل الفنون الإنسانية. والقاعدة تقول: إنه لا يوجد فن بدون عاطفة، والافتقار إلى العاطفة يعني البعد عن التأثير، ولا يبالغ إذا ما قلنا: إن فنًا يفتقر إلى العاطفة لا يعد فنًا في الأساس، فهو فن أبتر ناقص، كما أن شعرًا لا يحمل عاطفة لا يمكن أن يكون شعرًا بأي حال من الأحوال.

وعلى أية حال، تعد دراسة العاطفة وإفرادها بالبحث عملاً خالصاً من أعمال النقد في العصر الحديث عندما كثرت المباحث في علم النفس الأدبي أو علم الأدب النفسي، كما أن هذا المصطلح من معطيات مناهج النقد الحديث أيضًا، فضلاً عن أن هذا اللون من البحث لم يفرد بهذه الطريقة المستقلة في النقد العربي القديم.

وتكون العاطفة مع الخيال واللغة [المعاني] والصور العناصر الأساسية التي تقوم عليها عملية الإبداع الشعري، وتحتل العاطفة الضع الأول والأهم من بين "العناصر الأربع"<sup>(١)</sup> التي يتكون منها وينبني عليها الشعر. وقد أفادت الدارسون في علم النفس ومناهج النقد الحديث في تعريف العاطفة وبيان أقسامها وتقسيماتها وتعمقوا في تفصيل حدودها وتفريعاتها وتطرقوا إلى تناول أثرها في الأدب وبينوا مكانتها وأهميتها وقيمتها في العمل الشعري. فما قيمة العاطفة في الفن بعامة والشعر بخاصة؟ إن وجود العاطفة قاسم مشترك في الفن والشعر (أحد الأجناس الفنية) على حد سواء، فلا وجود للفن بدون عاطفة أو انفعال يبعث فيه الوجود وبالمثل لا يوجد شعر بدون عاطفة تبعث فيه الحياة، وزيادة على هذا فإن وجود العاطفة في الشعر شيء من أهم خصوصيات العمل الشعري، فإذا كان وجود العاطفة أمراً ضرورياً في الفنون بعامة، فإن وجودها في الشعر يعد متطلباً أكثر الحالاً. وهو ما يراه المازني ويردده في قوله: "وبعد فإن الشعر مجالة العواطف لا العقل والإحساس لا الفكر"<sup>(٢)</sup>. وقوله: "وكذلك لا بد في

(١) هذه التسمية خاصة بأحد نقادنا في العصر الحديث الذين مارسوا العمل النبدي تنظيراً وتدريساً وتطبيقاً وهو د.أحمد كمال زكي.

- "النقد الأدبي الحديث. أصوله واتجاهاته". دار النهضة العربية: القاهرة، ط١٩٨١، ٢٠١، ص٨٤.

(٢) إبراهيم عبد القادر المازني: "الشعر غاياته ووسائله"، جمع وتصحيح د. مدحت الجبار، دار الصحوة: القاهرة، ط٢٠٨٦، ٢٠١٩، ص٧٢.

الشعر من عاطفة يفضي بها إليك الشاعر ويستريح<sup>(١)</sup>. ويقرر المازني كذلك أن الشعر إذا كان فكرا خالطاً فإنه لا يعد في حقيقته شعراً وإنما يتحول إلى علم خالص؛ وبالآخر يكون علماً خالطاً ولا يصح أن نطلق لفظ الشعر عليه<sup>(٢)</sup>. والعاطفة في الشعر بمنزلة القلب الذي ينبض بالحياة وهي العصب الذي يتفجر بالنشاط وهي العين التي تميز الأشياء عند الإنسان، فهي التي تقدم للشعر الديمومة والاستمرار والتأثير<sup>(٣)</sup>. وفوق هذا يذهب بعضهم إلى القول: فالعاطفة إذ هي لبُّ الفنون وعمادها وهي المعزف الذي تصدق به أوتار الأدب وعليه يعزف الأديب. وهي الشرفة التي يطل منها علي ما تنطوي عليه النقوس من ألم وأمل والمنفذ الذي يصل منه إلى القلوب<sup>(٤)</sup>. كما أنه يصيب كبد الحقيقة بقوله أيضًا: إن ارتباط العاطفة بالأدب وثيق، فإن الأدب هو التعبير الجيد عن خير ما في الحياة من روائع المعانى والخواطر النفسية. وإن الميدان الذي يسرح فيه الأدب ويحول الأديب، هو الميدان الحيوي والميدان النفسي<sup>(٥)</sup>. ومن الدارسين من يجعل مصطلح "الانفعال" بديلاً عن العاطفة: يشكل الانفعال محركاً فاعلاً للفن عموماً وللشعر على وجه الخصوص، إذ لا تجربة فنية ولا شعرية دون انفعال سابق ومحرك لها<sup>(٦)</sup>. والعاطفة في الأخير هي الأساس الذي تبني عليه عملية الإبداع الشعري؛ فالعاطفة هي الباعث الأول المحرك لعملية الإبداع يقول بعض الدارسين إن: "..... الشعر لا ينبع إلا عن إحساس ولا يصدر إلا عن عاطفة ووجودان"<sup>(٧)</sup>.

لقد أدرك النقاد في العصر الحديث قيمة العاطفة في العمل الفني منه بصفة عامة والشعري منه على وجه الخصوص فأفردوا مباحث مستقلة لمعالجة العاطفة وإن اختفت المصطلحات التي أطلقوها عليها. وبينوا أثرها في الأعمال الفنية، وهو ما يلح عليه د. محمد زكي العشماوي بقوله: إن العاطفة هي التي تضفي على الفن ما في الرمز

(١) المرجع السابق: ص ٧٢.

(٢) نفسه: ص ٧٢.

(٣) د. أحمد كمال زكي: "مراجع سابق". ص ٩١.

(٤) د. عبد الحميد حسين: "الأصول الفنية للأدب"، مكتبة الأنجلو المصرية: القاهرة، ط ٢، ١٩٦٤م، ص ٧١.

(٥) المرجع السابق: ص ٦٩.

(٦) د. عبد الله أحمد باقازى: "الشعر والموقف الانفعالي"، دار الفيصل الثقافية: الرياض، ١٩٩١م، ص ٩.

(٧) د. يوسف حسين بكار: "بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث"، دار الأندلس: بيروت، ط ٢، ١٩٨٢م، ص ٦٢.

من خفة هوائية<sup>(١)</sup>، ويقول: "إن العاطفة هي التي تهب الحدس تماسته ووحدته وما كان الحدس أن يكون حدساً حقاً إلا لأنه يمثل العاطفة"<sup>(٢)</sup>. وهو ما يقرره د. حمد الدخيل على سبيل البديهة بقوله: "لذلك فإن أقوى الشعر وأصدقه ما صدر عن اقتناع وأملاء شعور صادق وتجربة حية مؤثرة"<sup>(٣)</sup>. والعاطفة كذلك هي: "الأسس والينابيع التي يفجر عنها الشعر، وكأنهم أدركوا أن الطبع الموهوب لا يكفي وحده للتغريد بالشعر بل لا بد من مثير يدفع إلى قوله وهو ما نسميه اليوم بالانفعال أو العاطفة"<sup>(٤)</sup>. وكل هذه الآراء تتفق على أهمية العاطفة في العمل الشعري، وقيمتها الفاعلة فيه.

بيد أن التساؤل الذي يفرض نفسه الآن هو: ما العاطفة؟ وما التعريف الاصطلاحي لها والذي ستعتمد عليه هذه الدراسة؟ بداية يمكن القول: إن تعريف العاطفة بات شيئاً سهلاً نتيجة كثرة الدراسات المنهجية المتعمقة التي سيطرت على علم النفس ويفضل تعمق مباحثه وجذدة الأعمال التي ترصد قضيائاه. ولا يخفى في هذا الصدد أن مناهج النقد في العصر الحديث كان لها دورها في تقديم تعريف دقيق لهذا المصطلح. بالإضافة إلى العلاقة الحميمة بين المناهج النقدية في العصر الحديث وعلم النفس، بحيث إننا لا نعرف ما إذا كان هذا التعريف من وضع المشتغلين بمناهج النقد الأدبي أم من وضع العلماء المشتغلين بعلم النفس. فالعاطفة هي: "الحالات النفسية التي تجري في الشعور كما يجري ماء النهر في مجراه، ولا تقطع عن الحضور في الذهن ما كانت هناك حياة"<sup>(٥)</sup>. والعاطفة كذلك بديل للمعاناة التي عانها الشاعر: "فتكون العاطفة حينئذ هي بديل المعاناة التي عانها الفنان وأحالت عليه مشاعره إلى طاقة تفعل من أجل حضور يعتمل في النص"<sup>(٦)</sup>. ويعرف د. محمد زكي العشماوي العاطفة بقوله: "إنما

(١) د. محمد زكي العشماوي: "قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث"، دار النهضة العربية: بيروت، ١٩٧٩، ص. ١٠٠.

(٢) المرجع السابق: ١٠٠.

(٣) د. حمد بن ناصر الدخيل: "دراسات ومقالات في الأدب العربي"، ط النادي الأدبي بالمنطقة الشرقية: الدمام، ١٤٢٠هـ، ص. ٣٧.

(٤) د. أحمد أحمد بدوي: "أسس النقد الأدبي عند العرب"، دار نهضة مصر: القاهرة، ١٩٧٩م، ص. ٥٢.

(٥) د. أحمد كمال زكي: "مرجع سابق، نفسه"، ص. ٩٠.

(٦) المرجع السابق: ص. ٩٣.

العاطفة في العمل الفني هي تجسيد للحظة شعورية معينة يسيطر عليها الفنان ويُخضعها للصورة كما يُخضع الصورة لها بحيث يصبح الشعور هو الشعور المصور والصورة هي الصورة المحسوس بها<sup>(١)</sup>.

تعريفنا للعاطفة: إن العاطفة التي نركز عليها هي كل الدوافع النفسية والطاقات الشخصية الكامنة والظاهرة داخل الإنسان، بالإضافة إلى أنها البواعث الوجدانية والانفعالية التي تسيطر على الإنسان وتفرض نفسها عليه وعلى إبداعه وقد يكون تأثيرها واضحًا معلنًا أو غامضًا خفيًّا ولكن يبقى أثرها في الإبداع؛ فهي المحرك الأول فيه.

(٢)

### شخصية مروان بين العاطفة والمديح

بعد المديح الغرض الأول عند مروان بن أبي حفصة، كما أنه من أكثر الموضوعات التي طرقها، ولا يعرف بغرض من أغراض الشعر غير المديح، وليس أول على هذا من الطغيان لأنشئ المديح وقصائده في شعره الذي جمعه حسين حموي. فلقد مدح مروان ابن أبي حفصة الخليفة الأموي<sup>(٢)</sup> – إذا صحت نسبة الأبيات التي وردت في الديوان إليه – الوليد بن يزيد في العهد الأموي، كما مدح معن بن زائدة الشيباني ومدح قومه كذلك وأقبل على مدح الخلفاء والوزراء والقواد والولاة في العهد العباسى، مع ملاحظة أنه لم يستطع الدخول بمديحه على الخليفة العباسى أبي جعفر المنصور!.

بعد مروان واحدًا من مدرسة عبد الشعر التي يتزعمها أوس بن حجر والتي تبعه فيها زهير بن أبي سلمى وابنه كعب وتلامهم فيها الحطيئة وكان خلفهم فيها مروان بن أبي حفصة. وكما يروى ابن المعتر وغيرة فإن مروان كان من المحككين لشعرهم الذين ينظمونه في أربعة أشهر، ثم يهذبونه وينقحونه في مثلها، ويعرضونه على الرواة والعلماء بالشعراء والنقاد في أربعة كذلك، وفي الأخير ينشدونه ويقدمونه للممدوح بعد أن يستوفوا هذه المراحل مجتمعة، يقول ابن المعتر: "ومروان من المجيدين المحككين للشعر"<sup>(٣)</sup>، ويقول المرزباني: "وكان مروان بن أبي حفصة يفتح

(١) د. محمد زكي العشماوي: "مرجع سابق"؛ ص ١٠٣.

(٢) ابن المعتر: "طبقات الشعراء"، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف: القاهرة، ١٩٥٦م، ص ٤٥.

الشعر ويحككه ولم يكن مطبوعاً<sup>(١)</sup>، وهو ما يؤكده الأصفهاني فيما يحكى عن مروان نفسه بقوله: إني إذا أردت أن أقول القصيدة رفعتها في حول، أقولها في أربعة أشهر، وأنخلها في أربعة أشهر، وأعرضها في أربعة أشهر<sup>(٢)</sup>. وهو ما يعني سيطرة الرغبة في التجويد والإبداع على أشعاره، فما السبب الكامن وراء هذه الرغبة؟ وهل هو فعل الرغبة في التكسب؟ أم أن هناك أمراً آخر يدفعه إلى التجويد والتنتقيح أقوى وأعمق من هذه الرغبة؟ وإذا وجِدَ هذا الدافع بالفعل فما هو؟ وما الأدلة على وجوده؟ وبم نفسر التضارب في موقف الرجل من مددوحه إنْ وجِدَ؟ وهل الأمر مرتبط بالصدق الفني وحده أم يتعداه إلى جوانب أخرى؟.

وسنببدأ من حيث انتهت التساؤل الأخير لنتعرف على شخصية مروان من خلال الجمع بين العاطفة والم الموضوعات الشعرية التي عالجها، ولا يخفى في هذا المقام أن الإجابة عن هذه التساؤلات لا يمكن أن تتم بمعزل عن العاطفة التي سيطرت على مروان والوقوف على حقيقتها من جانب؟، والإلمام بحال هذه الموضوعات الشعرية وطبعتها تجاه هذه العاطفة من الجانب الثاني. وعلى صعوبة هذه المعادلة وصعوبة الإمام بطرفها إلا أن محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة تشجع وتغري على الإقبال على هذه المخاطرة. ولو كانت الصعوبات والمخاطر هي المحك في الإقلاع عن البحث والدرس لما تقدم البحث الأدبي والنقدi ولما ظهر كثير من الدراسات الجادة والمبتكرة التي تركز على درس أدبنا ونقده. ويدولى أن المحفزات والدوافع في مثل هذه القضايا أقوى وأكثر بكثير من المثباتات، ولا يخفى أن الإقدام على المخاطر أولى من السكون والانتظار، كما أن الإقدام على العمل والبحث أولى من الركون إلى الراحة، ومناوشة القضايا ومحاولة دغدغتها أفضل دوماً من تركها راكدة جامدة لا تُثر فيها للحياة، وعلى ذلك تصغر هذه المتابع والصعوبات وتتلاذى بحيث إنها ترتد وترجع في صورة مثيرات قوية تدفع إلى البحث فما الشخصية التي يمكن استخراجها من أشعاره في المديح؟ إنها تتضح من خلال تأمل أشعاره في المديح، بالإضافة إلى أنها استظهر أكثر عندما يُكشف عن علاقة هذه الأشعار بالعاطفة المروانية الخاصة. ويحسن بنا أن نُفرد لهذه

(١) المرزباني: "الموشح": تحقيق محمد على البجاوي، دار الفكر العربي: القاهرة، د.ت، ص ٣٦.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني: "الأغانى"، دار الكتب المصرية: القاهرة، د.ت، ٨٢ / ١٠.

الأشعار المدحية حتى نقف على حقيقة الشخصية المروانية وقوفًا منهاجيًّا ودقيقًا،  
وحتى نتمكن من استخراجها من خلال الجمع بين العاطفة والمدح: على هذا النحو:

(٢)

### شخصية مروان في العهد الأموي بين العاطفة والشعر

وتواجهنا في هذا الشأن أبيات مروان بن أبي حفصة التي قالها في مدح الوليد بن يزيد  
أيام العهد الأموي والتي يقول فيها:

إن بالشام الموقر عِزًا  
وملوکًا مباركين شهودًا  
سبقوا الناس مكرماتٍ وجودًا  
سادة منبني يزيد كرامًا  
هان يناسقتي على فسيري  
أن تموتي إذا لقيت الوليدا<sup>(١)</sup>

وقال كذلك في الاعتراف بفضلبني أمية عليه:

بَنُوكَرْوَانَ قَوْمِي أَعْتَقُونِي وَكُلُّ النَّاسِ بَعْدَ لَهُمْ عَيْدُ<sup>(٢)</sup>

فماذا تحمل هذه الأبيات؟ لا يمكن أن تقدم هذه الأبيات المفردة ما يصلح أن يكون حكمًا على مروان، فمن غير المعقول أن نقدم حكمًا من خلال الاعتماد على هذه الأبيات القليلة، ولكن إذا أردنا أن نقدم حكمًا على هذه الشخصية وحالها مع الأمويين فلا مفر من الاستئناس ببعض مواقفه لكي نبني رأيًا قريباً من الصحة، جاء في الأغاني: "وكان مروان من أدخل الناس على يساره وكثرة ما أصابه من الخلفاء"، وقوله أيضًا: "وكان - مروان - لا يأكل اللحم بخلاف حتى يقرمه إليه، فإذا قرم أرسل غلامه فاشترى له رأسًا فأكله". فقيل له: نراك لا تأكل إلا الرءوس في الصيف والشتاء، فلم تخذل ذلك؟ قال: نعم! الرأس أعرف سعره، ولا يستطيع الغلام أن يغتنمي فيه، وليس بلحم يطبه الغلام فيقدر أن يأكل منه، إن مس عيناً أو أذناً أو خداً وفقت عليه، فاكمل منه أو وانا آكل عينيه لوناً، وأذنيه لوناً، وغلصمته لوناً، وأكفي مؤونة طبخه فقد اجتمعنا في فيه مرافق"<sup>(٣)</sup>. وقال الجاحظ في وصف شح مروان وتقديره وحرصه البالغ على المال: "أو من يشق غبار

(١) مروان بن أبي حفصة: "شعره"، تحقيق د. حسين عطوان، دار المعارف: القاهرة، ط٢٠١٩٨٢م، ص٢٢.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٥.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني: "مصدر سابق": ١٠ / ٧٧.

مروان بن أبي حفصة ... فهو بخلٌ من مادر<sup>(١)</sup>.

إن في هذه الأقوال ما فيها من تأكيد على شهوة حبِّ المال الذي قدسه مرwan وسار تحت ركباه، فهو أسيرٌ للمال، بل إنه مخلصٌ ووفيٌ له. فلقد أعلى مروان من قيمة المال وبالغ في الحرص عليه وانطلق في السعي للحصول عليه بكل سبيل لدرجة أنه لم يخلص في نظري إلا لهذا المال الذي ملك عليه زمام أمره كلها، حتى أوقعه في التقتير على نفسه وحرمانها من أقل الطبيات. ولقد كانت آثار هذا البخل واضحة عليه هو قبل أي شيء آخر، فذاق من شررها ما لم يذقه الفقير المعدم! وقد جاء في الأغانى رأيٌ له دلالته في هذا السياق، فقد قيل لمروان بن أبي حفصة: ..... والله لما يرى من أثر البخل عليك أضرُّ من الفقر لو كان بك<sup>(٢)</sup>. وفي هذا الرأي ما فيه من دلالة على غرق مروان في شهوة حبِّ المال غرقاً، بل وأهم ما فيه أنه يكشف عن حقيقة الشخصية المروانية. وفي هذا البيت الذي أنسنده رجل من بنى بكر بن وائل من الدلالة على حقيقة الشخصية المروانية ما فيه من الكفاية والوضوح: قال الرجل:

وليس لمروان على العرس غيرهٔ ولكن مروانًا يغمار على القدر<sup>(٣)</sup>

ويعلن مروان عن هذه الشخصية إعلاناً صريحاً ومبشراً في قوله مفتخر بحب المال مبيناً ما حققه من كسب مادي، ومعروف أن الإنسان عندما يفخر يقدم أولويات الفخر

على أساس الأهم عنده، كما أنه يركز ويقدم ما يمثل له أهمية خاصة، يقول: .  
ما نالتِ الشعراءُ من مُسْتَخْلِفٍ مَا نَلَتْ مِنْ جَاهٍ وَأَخْذَ بِدُورٍ  
عَزَّتْ مَعًا عِنْدَ الْمُلُوكِ مَقَائِتِي  
ما قالَ حَيَّهُمْ مَعَ الْمَقْبُورِ  
ولقد حَيَّتْ بِإِلْفِ الْفِلْمِ لَمْ تُثْبِ  
ما زَلْتُ أَنْفُ أَنْ أَوْلَفَ مِدْحَةً  
إِلَى الصَّاحِبِ مِنْ بَرِّ وَ سَرِيرٍ<sup>(٤)</sup>

وتدلل قصة الضيف الذي تركه مروان لثلا يكرمه على شخصيته، مع أن هذا الضيف قد أحضر ضيافته لنفسه ولمروان على حد سواء، أورد صاحب العقد الفريد والبيهقي وابن

(١)الجاحظ: "البخلاء"، تحقيق د. طه الحاجري، دار المعارف: القاهرة، ١٩٦٢م، ص ٦٥.

(٢)أبو الفرج الأصفهاني: "مصدر سابق"، ٧٨ / ١٠.

(٣)المصدر السابق: ٧٩ / ١٠.

(٤)ابن المعنوز: "مصدر سابق"، ص ٤٧، ٤٦، ٥٥، ٥٦.

قتيبة هذه القصة بقوله: ”قال الهيثم بن عدي: نزل بابن أبي حفصة ضيف باليمامة، فأخلى له المنزل، ثم هرب عنه مخافة أن يلزمه قراه تلك الليلة، فخرج الضيف فاشترى ما يحتاج

إليه ثم رجع وكتب إليه:

يأيها الخارج من بيته وهارباً من شدة الخوف  
ضيفك قد جاء بخنزله فارجع وكُن ضيفاً على الضيف<sup>(١)</sup>

إن إنساناً بهذه الشاكلة قد غالب عليه حب المال وجمعه لا يمكن أن يجتمع في قلبه حب شيء آخر معه إلا أن يكون هذا الحب متمثلاً في الأنانية التي تغذى جشعه المادي، ومن الصعب أن يجتمع لديه هذا النهم الطاغي نحو المال وجمعه والإخلاص له مع الإخلاص لأي شيء آخر كائناً ما كان. وعليه فإن مروان لم يصدر لا عن عاطفة صادقة ولا عن إخلاص حقيقي في مدحه للأمويين، فلم يحب مروان الأمويين أو غير الأمويين - ولا بالغ إذا قلنا: إن ذات مروان لم تنعم أو تفتد من هذا الحب - وإنما أحب مالهم وعطائهم، ولم يخلص لهم كما يدعى بعض الدارسين: ”إذن فالولاءالأصيل لمروان بن أبي حفصة إنما كان للأمويين دون العباسين“<sup>(٢)</sup>، وكذلك: ”وهنا يجد رأى تؤكد أن مروان بن أبي

(١) ابن عبد ربه: ”العقد الفريد“، تحقيق أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، ط مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر: القاهرة، ط. ٣، ١٩٦٥، م. ١٨٥ / ٦.

- البيهقي: ”المحاسن والمساوی“، تحقيق أحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة نهضة مصر: القاهرة، ١٩٦١، م.

٤١٩. وجاءت رواية البيهقي في أربعة أبيات، هي:

يا تاركَ الْبَيْتَ عَلَى الضَّيْفِ  
وَهَارِبًا مِنْهُ الْخَوْفِ  
ضَيْفُكَ قَدْ جَاءَ بِزَادِ لَهُ  
إِذَا اشْتَهَى الضَّيْفُ طَبِيعَ الشَّيْتَا  
أَتَاهُ بِالشَّهْوَةِ فِي الصَّيْفِ  
وَإِنْ دَنَّا الْمِسْكِينُونَ بِالسَّيْفِ

- ابن قتيبة: ”عيون الأخبار“، تحقيق د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية: بيروت، ط٢٠٠٣، م. ٢٧١.  
2. رواية البيتين في عيون الأخبار:

يا تاركَ الْبَيْتَ عَلَى الضَّيْفِ وَهَارِبًا مِنْهُ الْخَوْفِ

ضَيْفُكَ قَدْ جَاءَ بِخَبْرِ لَهُ فَارْجَعْ فَكُنْ ضَيْفًا عَلَى الضَّيْفِ

(٢) مصطفى الشكعة: ”الشعر والشعراء في العصر العباسي“، دار العلم للملايين: بيروت، ط١٩٩٧، م. ٩، ص. ٣٥.

حصة لم يكن مخلصاً في ولائه للعباسيين، وإذا كان له ولاء وإنما كان أموي الهوى والولاء<sup>(١)</sup>. وتبدو هذه الآراء محرجة لأصحابها لأنها ما زالت بحاجة إلى سند من الأدلة والبراهين التي تقويها، ولأنها بعيدة كل البعد عن حقيقة الرجل الذي لم يخلص لشيء قط في حياته إلا للمال الذي كان صادقاً وأميناً في التعبير عن حبه له وكان صادقاً وأميناً في السعي نحو اكتنازه، وكان صادقاً وأميناً مع نفسه ومع غيره في الصدور عن شهوته، وهو ما يقود إلى نتيجة متوقعة ومحتملة، وهي أن مروان كان صادراً في مدائنه للأمويين من كونهم الوسيلة فحسب التي تقويه إلى تحقيق حبه الحالى للمال وإرضاء شهوته العارمة له، وهو ما يقود إلى المفتاح الأول في هذه الشخصية المروانية. هذا هو الخط الأول - نحو اكتشاف هذه الشخصية - الذي يتمثل في أن الرجل لم يخلص لشيء إخلاصه للمال الذي يقدسه، وكيف لإنسان جار على نفسه وتنكر لها وحرمتها وقسماً عليها في المقام الأول - كما مرّ من شدة تهالكه وحرصه على المال - أن يخلص لغيره؟ إنه المحال!. فالرجل صادق أمين يمْدَحُ ويُجَوِّدُ في المدح ليس من أجل العاطفة الصادقة نحو الممدوح أو من أجل الإخلاص والحب الذي يكنته للممدوحين، ولكنه يصدر في هذا كلّه استجابة لما يتحقق له شهوته الخاصة، تلك الشهوة العارمة والطاغية طغياناً لا ينقطع عند حدٍ أو ينتهي عند مقام، إنه المال الذي سيطر على وجده وملأ عليه عقله فانفعل به وجَدَ في طلبه وسَخَرَ كل موهبته من أجل الحصول عليه.

ولم يكن عجيباً أن ينطبق قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "منهومان لا يتباعن، طالب علم وطالب الدنيا"<sup>(٢)</sup> على مروان كل الانطباق، ولم يكن عجيباً أن تجتمع عليه

(١) المرجع السابق: ص ٤.

(٢) الدارمي: "سنن الدارمي"، تحقيق فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الريان للتراث: القاهرة.

١٩٨٧ م، مج ١٠٨ / رقم ٣٢٤]. وجاء إسناد الحديث: "حدثنا إسماعيل بن أبي حاتم حدثنا عبد الله بن إدريس عن ليثٍ عن طاوس عن ابن عباس قال: "منهومان لا يتباعن، طالب علم وطالب الدنيا". \* وقد أورد الطبراني هذا الحديث في المعجم الكبير بهذه الرواية والإسناد: "أخبرنا أبو عبد الله بن محمد قال: أخبرني أبي، حدثنا عبد الله بن يونس، حدثنا بقى بن مخلد، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا إدريس عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال: "منهومان لا تنقض نهمتهمما: طالب علم وطالب الدنيا".

- الطبراني: "المعجم الكبير"، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مطبعة الزهراء: الموصل، ط ٢، ١٩٨٤ م، مج ١١ / رقم ٧٦٧٧. [والحديث رقم ٩٥١١٠].

مثل هذه الآراء، يقول د. طه حسين: "إنما كان مروان يعبد المال عبادة، ويقدسه تقديساً، وكان فيما بينه وبين نفسه يزدري الأمويين والعباسيين والعلويين، وكان فيما بينه وبين نفسه مقتنعاً بأن يفوز بأموال العباسيين، فلو أداه الله منهم للأمويين أو العلوبيين لسار مع الدولة الجديدة سيرته مع الدولة القديمة ليظفر منها بالمال الذي يعبده ويقدسه"<sup>(١)</sup>، وحكم د. طه حسين على مروان بأنه يعبد المال ويقدسه حكم فيه بعد نظر ودقة منهجية في الحكم، أما قوله بأن مروان يكره الأمويين والعباسيين والعلويين فلا يقوم الدليل عليه ويعد في نظري مبالغة من مبالغات د. طه حسين التي يميل فيها إلى الخروج من موضوعه ليستطرد في موضوع آخر، وقد كانت شخصية مروان مكشوفة للعيان عند دارس آخر، حيث يرى أن مروان علم على رأسه نار في مملكة البخل والشح، يقول: "كان -مروان- يحب المال وتكتسيه / يحرم على نفسه طيب الطعام ونفيسه، فقد كان بخيلاً من بخلاء العرب، وهذا سر تهالكه على المال وجمعه إيه وهذه صفتة التي تعيز بها"<sup>(٢)</sup>، ويقول أيضًا: "..... وجمع -مروان- المال لأنه ممن يحبون جمعه ولا يحبذون تفريقه، فلقد كان مروان بخيلاً شحيحاً مقتراً بكل ما تحمله تلك الألفاظ من معانٍ، لم يكن هذا شأنه مع نفسه- فحسب- ولكنه مع الناس أيضًا، ولئن كان بخلاء العرب أربعة هم أبو الأسود الدؤلي، والخطيئه، وخالد بن صفوان، وحميد بن ثور، فلنعتبره

\* وأورد هذا الحديث ابن عبد البر أيضًا بهذه الرواية والإسناد قال: "حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا محمد بن إسحاق بن أبيوب الراري، حدثنا جرير عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أحسبه رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: "منهومان لا يقضى أحدهما نهمته، منهوم في طلب العلم ومنهوم في طلب الدنيا".

- ابن عبد البر: "جامع بيان العلم وفضله"؛ تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي: المملكة العربية السعودية، ط٤، ١٤١٩هـ، مج٤ / ٤٠٤، [والحديث برقم ٥٨٢] وقد صرحت الألباني بهذا الحديث وقال: "لكن هذا الحديث عندي صحيح... ولا بأس به". مع ملاحظة أن رأي الألباني في تقوية هذا الحديث قد أتبته أبو الأشبال الزهيري في تحقيقه لكتاب ابن عبد البر "جامع بيان العلم وفضله" السابق في حاشية ص ٤٠٥ / من مج١١.

(١) د. طه حسين: "حديث الأربعاء"؛ دار المعارف: القاهرة، ط١٠، د.ت. ٢٢٠ / ٢.

(٢) إسماعيل بن حمد السعمايل: "شاعر الإمام مروان بن أبي حفصة"؛ مكتبة الملك فهد الوطنية: الرياض، ١٤١٤هـ، ص ١١٠.

خامسًا ولتنصبه عليهم رئيساً، لأنه بلغ في البخل غايته واحتل قمته<sup>(١)</sup>. ويقول من طريق ثالث: ”.....ولكن الذي يدعوا إلى الغرابة هو مناقضة مروان لطبعه إذ يحيث الناس على الكرم ويحذرهم مغبة البخل والشح مع أنه في مملكة الشج عالم في رأسه نار وفي سمائها نجم لا يتغير<sup>(٢)</sup>. ويقول في الأخير: ” وعلى أي حال فإنني لا أكاد أجد لفظاً أو وصفاً يصور بخله وشحه، لأنه جل في ذلك عن الوصف وعلا على التشبيه<sup>(٣)</sup>. هذه هي حقيقة الشخصية المروانية التي تتبدى من خلال مدحه وعاطفته في العهد الأموي، والتي يعلنها مروان نفسه إعلاناً صريحاً ويلخصها تلخيصاً مباشراً واضحاً حيث يقول:

وما فعلتُ بنو مروان خيراً ولا فعلت بنو مروان شرًا<sup>(٤)</sup>

فهل أخلص مروان بن أبي حفصة لبني أمية أمر أنه أخلص للمال الذي أحبه؟ لم يخلص مروان في نظري إلا للمال ولم يحب إلا المال ولم ينفعه إلا لهذا المال: هذه هي شخصية مروان تجدها في بيته السابق الذي انسلاخ فيه مروان انسلاخاً من بني أمية وكأنهم أعداء يتبرأ منهم. لكي يرجع مرة ثانية إلى المال ولكي يعاود ثانية الحصول عليه. إنها شهوة حبِّ المال التي توجه صاحبها وتدفعه إلى الإخلاص لها مستهيناً بكل القيم مهما عظمت من أجلها. هذه هي شخصية مروان وتلك حقيقته وحقيقة عاطفته في العهد الأموي فما هي حقيقة هذه الشخصية المروانية في العهد العباسي؟ وتواجهنا في هذا السياق أشعاره في مدح معن بن زائدة الشيباني وغيره من رجالات الدولة العباسية. سواءً كانوا خلفاءً أو وزراءً أو لادةً، على هذا النحو:

(٤)

#### شخصية مروان في مدح معن بن زائدة بين العاطفة والشعر

لقد قال مروان أجمل مدائحه وأرقاها في الثناء على معن بن زائدة الشيباني. لدرجة أن مدائحه في معن قد ألبَّت عليه الخلفاء العباسيين والبرامكة. فهل السبب في هذا راجع إلى صدق مروان في عاطفته تجاه معن بن زائدة وإخلاصه له؟ وما حقيقة الشخصية

(١) المرجع السابق: ١١٠.

(٢) نفسه: ١٥٤.

(٣) نفسه: ١١١.

(٤) مروان بن أبي حفصة: ”مصدر سابق“، ص ٤٢.

المروانية في هذا المدح؟ من المعروف أن مروان أنسن شعره في مدح معن هذا، ومن المعروف كذلك أنه تغنى في مدائحه لمعنى هذا غناءً، والأهم من هذا كله أن مدائح مروان في معن كانت محطةً أنظار الخلفاء العباسيين وموضع إعجابهم، فهؤلاء الخلفاء رأوا فيها النموذج الراقي الذي يجب أن يتلزم به الشعراء عند مدحهم. وفي القصة التي أوردها صاحب العقد الفريد بين الخليفة العباسي هارون الرشيد مع رجل من بنى أسد أفرط في مدحه خير دليل على هذا، جاء في العقد: قال شراحيل بن معن بن زائدة: حج هارون الرشيد وزميله أبو يوسف القاضي وكانت كثيراً ما أسايره إذ عرض له أغراضي من بنى أسد فأنسنده شعراً مدحه فيه وأفرط، فقال له هارون: ألم أنهك عن مثل هذا في مدحك يا أخا بني أسد؟ إذا قلت فينا فقل بقول القائل في أبي هذا:

بَنُو مَطَرَ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ  
أَسْوَدُ لَهَا فِي غِيلٍ خَفَانَ أَشْبَلُ  
هُمْ يَمْتَعُونَ الْجَارَ حَتَّىٰ كَانَ  
لِجَارِهِمْ بَيْنَ السِّمَاكِينِ مَنْزَلٌ  
كَأَوْلَاهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْلَ  
بَهَالِيلُ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ  
وَمَا يَسْتَطِيعُ الْفَاعِلُونَ فِعَالُهُمْ  
هُمُ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا  
أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطَوا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا<sup>(١)</sup>

ويعلق ابن خلكان على هذه الأبيات بقوله: "هذا لعمري السحر الحال المنقح لفظاً ومعنىً، وحقه أن يفضل على شعراء عصره وغيرهم"<sup>(٢)</sup>. ومن مدح مروان في معن بن زائدة الشيباني أيضاً ما أورده ابن عبد ربه: قال العتبى: لما قدم معن بن زائدة البصرة واجتمع لديه الناس، أتاه مروان بن أبي حفصة فأخذ بعضاً من بابه فأنسنده شعره الذي

قال فيه:

فَمَا أَحْجَمَ الْأَغْدَاءَ عَنْكَ بَقِيَّةَ  
عَلَيْكَ وَلَكِنْ لَمْ يَرَوْا فِيكَ مَطْمَعاً  
لَهُ رَاحَتَانِ الْحَتْفُ وَالْجُودُ فِيهِمَا<sup>(٣)</sup>

ومن يقرأ هذه الأبيات قد يظن أن مروان بن أبي حفصة أخلص لمعن بن زائدة إخلاصاً

(١) ابن عبد ربه الأندرسي: "مصدر سابق": ٢٠٨ / ١.

- وفي رواية شعره ص ٨٨، تقديم للبيت الأخير [الخامس]، مكان البيت الرابع.

(٢) ابن خلكان: "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر: بيروت، ١٩٧٧م.

.١٩١ / ٥

(٣) ابن عبد ربه الأندرسي: "مصدر سابق": ١ / ٣٠٢، والبيان أبناها على رواية شعره ص ٦٤.

منقطع النظير، وأنه نظم هذه الروائع انطلاقاً من حبه لهذا الرجل الكريم السخي الذي أفضى عليه وأغناه. فما حقيقة الشخصية المروانية في هذه المدائح؟ وما طبيعة العاطفة التي تسيطر على مروان فيها؟ الأمر الذي يتراهى لي أن مروان لم يكره معناً ولم ينافقه!! بل إنه أحبه وأقبل عليه. ومع ذلك فقد كان هذا الحب والإخلاص منصرفًا في الأساس إلى الأموال والعطايا التي يقدمها هذا الرجل العظيم؛ ولا مانع من أن يحب مروان هذا الرجل الذي أفضى عليه نتيجة للعطاء الوافر الذي غمره به. ولا مانع لدى مروان كذلك من أن يخلص لمعن أو لغيره من الأشخاص طالما أنهم أكرمه. فحب مروان في الأول والأخير إنما هو حبٌ خالصٌ للأموال التي يغرس بها؛ وسوف ينصرف حبُّ مروان وإخلاصه لمن يقدم له المال كائناً ما كان اسمه، فعاطفة مروان الحقيقية معقودة مع المال ومرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً وإخلاص مروان لهذه العاطفة سوف يسبق هؤلاء الممدوحين، ولا عجب في هذا لأن مروان قد أحبَّ المال قبل كل شيء؛ فإذا خلاص مروان لهم إخلاص ثانوي يكون على قدر ما يقدمون له من هبات وعطايا، هذه هي الشخصية المروانية التي تطل من خلال استخلاص عاطفته من مدائحه لمعن بن زائدة.

ولم يكن مروان مخلصاً لمعن أو غيره كما قد يتوهם بعض الدارسين؛ وذلك لأن رجلاً بصفات مروان لا يمكن أن يخلص إخلاصاً صادقاً، لأن طلب المال والحرص على تحصيله وكسبه بكل سبيل يجعله متوجساً بل قلقاً وحريضاً على الإكثار والاكتناز؛ ومن غير شك فإن حالة الحرص والقلق التي تسيطر عليه تصرفه عن الإخلاص الكامل لشيء إلا للمال، وعلى هذا تعدد هذه الأقوال والأحكام والآراء التي تركز على الصدق أو الكذب من قبل الوهم بهذا الرجل وطبيعته التي جبل عليها، فهل أخلص مروان لمعن كما نرى؟ ولكن هناك أمراً مهماً يجب الإشارة إليه وهو أن مروان سلك مع معن طريقاً لم يسلكه مع ممدوح سواه لأنه كان يمدح أحياناً بداعف من عاطفة مادية بحتة كما في علاقته مع خلفاء بنى العباس فيما بعد، فإنه لم يكن كذلك مع معن بل كان مادحًا له بداعف من عاطفة صادقة، ولهذا جاء مدحه له متسمًا بحرارة الصدق ولهجة الإخلاص نظرًاً لاتفاق المذهب السياسي الذي يجمع بينهما وذلك يتمثل في ولاء معن ومران للأمويين<sup>(١)</sup>؛ كما

(١) إسماعيل بن حمد السعاعيل: "مرجع سابق"، ص ٤.

رأينا فلقد تحلل مروان من الأمويين وانسلخ منهم، ولو كان مروان مخلصاً لهم إخلاصاً حقيقياً لما تحلل منهم هذا التحلل ولو كان مروان صادقاً في عاطفته لهم لما انسلخ منهم هذا الانسلاخ المهين، ولم يكن مروان كذلك مخلصاً لمعنى أو صادقاً معه صدقاً خالصاً على الرغم من كل ما سجله من قصائد في مدحه، ولم تخدع هذه المدائج د. طه حسين في تقديم رأيه في مروان حيث رأى أن أشعار مروان لم تكن مرآة له بحسب يوثر الرأي ويضيّن بالنفس في سبيل الإخلاص لمن يحب، يقول: "فقد كان مروان بن أبي حفصة محبًا للمال، شرعاً إليه، لا يشبع منه..... وإنما كان مروان يعبد المال عبادة ويقدهسه تقديساً..... كان رجلاً عملياً يعنيه أن يظفر بالمكانة والثروة..... فهو راغب حين يمدح يطلب المال ويحرص على أن يظفر به، فمعقول أن يجيد، وأن يبلغ من الإجاده حظاً عظيمًا" (١).

ليس مروان إذاً من يخلصون في جبهم أو ولائهم، وليس مروان كذلك من يثبتون على رأي أو يعتدون بموقف، إلا أن يكون هذا الإخلاص والحب والولاء منصراً إلى المال، فهنا سنجد مروان يفعل الأفاعيل من أجله وسنجد مروان يثبت على رأي وسنجد مروان يعتد بموقف صلب وثابت، هذا هو مروان وذاك إخلاصه وتلك شخصيته، فالرجل أمين مع نفسه مخلص لها ينطلق منها بكل ثبات ويصدر عنها في صدق وإخلاص، وعلى هذا فالذي يغلب على الظن أن مروان لم يخلص لأحد من ممدوحه وإنما أخلص قبل كل شيء وبعد لنهمه الخاص الذي جعله يدخل حتى على نفسه من أجله، إنها الرغبة في جمع المال والشراهة في اكتنازه، بل إنها الشهوة المفرطة التي تسيطر على صاحبها فلا يحيد عنها قيد أنملة، فإن نأى ونقول: إن الرجل قد أحب وأخلص لغير المال، فهذا لون من العبث، وضرب من التناقض! خاصة إذا ما كنا نتحدث عن مروان ونريد أن نستخرج شخصيته التي تحركه من خلال الجمع بين العاطفة والشعر.

ونخلص من هذه المعادلة إلى نتيجة أخرى أكثر حسماً، وتخلص في أن ممدوحي مروان ابن أبي حفصة لا يمثلون شيئاً ذا قيمة في ذواتهم بالنسبة لمروان إلا من خلال ما يقدمونه له من أعطيات وما يهبونه له من مال، باتت المعادلة واضحة بعد وضعها على

(١) د. طه حسين: "مراجعة سابق"، ص. ٢٢٥، ٢٢٠.

ميزان العاطفة عند مروان، وعلى هذا ينبغي ألا نقول: إن مروان قد أحب الأمور أو أنه أخلص في مدائنه لمعنى بن زائدة وانطلق فيها من الإخلاص لهذا الرجل أو غيره من ممدوديه إلا إذا كان هذا الحكم يعني الحب المشروط والإخلاص للمصالح المتبادلة في هذه الحالة تكون قد قدمنا رأياً مقبولاً، لأن الجميع يعرفون حقيقة هذا الحب المشروط ويعرفون كذلك مصداقية الإخلاص الذي توجده المصالح، فهو حبٌّ زائفٌ وقول مؤقتٌ وإخلاصٌ عابرٌ لا يتجاوز المرحلة التي تقدمه، مهما بادأ عليه في الظاهر من علامات قد يخدع لها البعض.

ولم تكن هذه العاطفة التي تسسيطر على مروان بخافية على ممدوديه -في نظري- فكلهم يعلم ذلك فيه وكلهم يعلم أن إخلاص الرجل الأول والأخير مرتبط بالمال، فالمال هو حبه الذي يسيطر عليه ظاهراً وباطناً، وليس المديح الذي يدبهجه مروان فيهم إلا استجابة ظاهرية لهذا الحب وذلك الإخلاص، وليس هذا المديح إلا وسيلة لإرضاء العاطفة الخاصة لدى الرجل. فهذه العاطفة هي التي تدفعه إلى المديح وهي نفسها التي تقوده إلى التجويد في مدائنه، بالإضافة إلى أنها دائمة الإلحاح عليه من أجل الوصول إلى القمة في المديح.

ويمكن تفسير السبب في انقطاع مروان بن أبي حفصة إلى معن بن زائدة الشيباني تفسيراً جديداً من هذا المنطلق يتلخص في أن هذا الانقطاع ما هو إلا وسيلة لجذب انتباه واعجاب الخلفاء العباسيين إليه، وهو الذي جعله يحرص على التجويد في شعره، بل والإفادة من كل أدواته وتسخيرها لتحقيق هذا الهدف. وليس هذا بمستبعد على مروان -الذي غلب عليه شهوة المال- أن يسعى إلى تقديم أفضل ما يملك من أجل النجاح في مهمته خاصة وأنه يعرف طريقه معرفة دقيقة، ويعرف كيف يصل إلى غايته من أقصر الطرق، وهو ما يقود إلى اليقين الكامل من أن العاطفة التي سيطرت على مروان ابن أبي حفصة وانفعل لها تتمثل في حب المال، فالمال هو شهوة الرجل الوحيدة ولذا كان شرها في حبه بل متطرفاً في هذا الحب ومدمنا لهذه الشهوة التي لم يخلص إلا لها ولم يحب إلا إليها. وأعود إلى تأكيد ذلك فأقول: لم تكن هذه العاطفة التي تسسيطر على مروان بخافية على ممدوديه، فكلهم يعلم ذلك فيه، ولكن كلهم يعلم أيضاً أن هذه العاطفة على حقيقتها هذه هي التي تقدم لهم القصائد المدحية المجددة واللازمة

لتخليدهم وتخليد سجايهم، كما أن هذه العاطفة هي السبيل الوحيد لتخليد ذكراهם في سجل التاريخ والثناء عليهم وإظهار محسنتهم والإشادة بخصالهم، كما أن هذه العاطفة في الأخير هي السبيل المناسب لإرضاء نهمهم هم في الرغبة في المدح والإطراء لخلالهم الكريمة ومواهبهم النبيلة. فكل من مروان ومدوح يعلم حقيقة صاحبه ويعلم حقيقة بظاعته لو جاز التعبير ولم لا يجوز فهولاء الممدوحون يوجدون بالمال ومروان يوجد بالمديح - فالملائحة موجودة عند الطرفين لا غنى لأحدهما عن الآخر. وعلى هذا فلقد كان هؤلاء الممدوحون أكثر جشعًا وهما من مروان، حيث سيطرت عليهم شهوة حب الثناء والرغبة في تسجيل الذات ومدح خلالها وتخليد هذه الخلال في سجل التاريخ فكالوا لمروان الأموال / أو بمعنى أدق أعطوه الوسيلة التي يحتاج إليها لتحقيق مرادهم هذا. ولا يخفى أن الوسيلة عندهم تعد هدفًا تميناً عند مروان، وعلى هذا فالعلاقة بين مروان ومدوح يه علاقة متبادلة تقوم على الرغبة من الطرفين فالتوازن هو ميزانها وأساسها الذي يتحكم في مجرياتها.

وهذه النتيجة تدفع إلى القول بأن: شخصية مروان شخصية واضحة المعالم لمن فهمها، وهي شخصية تنطلق من عاطفة واحدة وثابتة في كل أشعاره في المديح! وأين الغموض في هذه الشخصية التي تعلن عن نفسها بكل تبجيح؟ وتطلب المال صراحة وبأعلى صوت في كل مناسبة؟؟. فلو كان الإخلاص هو الأساس في أشعار مروان التينظمها في مديح معن لمارأينا كل هذه الإشارات الظاهرة بل والمبتذلة - ولا نغالي إذا ما قلنا: الإشارات الرخيصة - التي تحمل التذكير والبحث لمعن على إعطائه الكثير!! أليس هو القائل في طلب النوال وطلب المال بل استجداء المال استجداء في غير ملل أو دونما

سأمم؟؟، أليس هو القائل في قصيدة واحدة؟:

**- لَوْلَا رَجَاؤُكَ مَا تَخَطَّتْ نَاقَتِي**

**يَغْمَدَ الْمَنَاخُ لِرَاغِبٍ وَلِرَاهِبٍ**

**- إِنْ عَدَّ أَيَّامُ الْفَعَالِ فَإِلَمَا**

**- كَلَّا يَدِيكَ أَبَا الْوَكِيدِ مَعَ النَّدَى**

- فَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً أَتَمَّتَهَا

وَرَبِّيْهَا يُفَوَّدِ الإِحْسَانٍ<sup>(١)</sup>

هذا هو مروان الحريص على توريط الممدوح بكل سبيل، فهو لا يكفي عن المسألة والاستجداء وهو كذلك دائم التذكير للممدوح على ضرورة العطاء. وهل بعد قوله: "لَوْلَا رَجَاؤُكَ مَا تَخَطَّتْ نَاقَتِي عَرْضَ الدَّبِيلِ وَلَا قُرَى نَجَرَانِ" قول أو رأي. إن مروان لا يهدأ ولا يمل ولا يكل عن طلب العطاء فهو يفرض نفسه على الممدوح فرضاً، وهذه الصفة تمثل سمة غالبة وطابعاً عاماً في كل أشعاره، ولم لا تمثل ظاهرة عند الرجل؟ وأي ظاهرة!! إنها الظاهرة التي تحمل معها مفتاح شخصية مروان ابن أبي حفصة، وإذا كان لكل شخصية مفتاح تعرف منه وتقرأ من خلاله فإن المفتاح السحري الذي تنطوي عليه شخصية مروان يتتمثل في شراهة الرجل وشهوته وحبه للمال. وهذا المفتاح السحري هو الذي يرفع العجب والعجب عن الرجل ويفسر السبب في حرصه على أن يجعل المال والبذل والعطاء مركزاً تدور حوله القصيدة كلها وتبني عليه خاصة وأنه يقدمه على

المديح ويجعله شريكاً أساسياً في أشعار المديح، نراه يقول أيضاً:

قَدْ أَمِنَ اللَّهُ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ عَدَمٍ      مَنْ كَانَ مَعْنَى لَهُ جَارًا مِنَ الرَّمَنِ  
مَعْنَى ابْنُ زَائِدَةَ الْمُوْفَى بِذِمَّتِهِ  
وَالْمُشْتَرِي الْمَجْدُ بِالْغَالِي مِنَ النَّفَنِ      يَرَى الْعَطَّاِيَا الَّتِي تَبْقَى مَحَامِدُهَا  
غَنْمًا إِذَا عَدَهَا الْمُعْطِي مِنَ الْغَبَنِ      بَنِى لِشَيْبَانَ مَجْدًا لَا زَوَالَ لَهُ  
حَتَّى تَزُولَ ذُرَى الْأَرْكَانِ مِنْ حَضَنِ<sup>(٢)</sup>

ويمكن القول إن حب المال والرغبة فيه هو القوس الذي تصدر منه صفات المدح عند مروان ولولا هذه الشهوة والرغبة نحو المال واكتنازه لما قدم مروان هذه المدائح السائرة ولما تحركت شاعرية الرجل ولما جادت قريحته بهذه الأوصاف الحالدة، وإن ما معنـى أبيات مروان السابقة غير الملاحقة المستمرة للممدوحين في سبيل الوصول إلى الأموال؟ وماذا يعني قوله على وجه الخصوص؟: يَرَى الْعَطَّاِيَا الَّتِي تَبْقَى مَحَامِدُهَا غَنْمًا إِذَا عَدَهَا الْمُعْطِي مِنَ الْغَبَنِ، غير الإلحاح ومعاودة السؤال من حين لآخر. ويواصل مروان حملاته في فرض نفسه على الممدوح، وبمعنى أدق فرض إتاوة عليه، حيث يقول:

(١) مروان بن أبي حفصة: مصدر سابق: ص ١٠٦ - ١٠٨.

(٢) المصدر السابق: ص ١٠٩.

أَجَابُوا إِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا  
وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّاهِيَاتِ وَأَجْمَلُوا  
حَرَامٌ عَلَيْهِ قَوْلٌ لَا حِينَ تَسَأَلُ  
فَلَا تَحْنُ نَذْرِي أَيْ يَوْمَيْهِ أَفْضَلُ  
وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أَغْرِيَ مُهَاجِلٌ<sup>(١)</sup>

هُمُ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا  
وَمَا يَسْتَطِيعُ الْفَاعِلُونَ فِعَالُهُمْ  
تَجْنَبَ لَا فِي الْقَوْلِ حَتَّى كَانَهُ  
تَشَابَهَ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَأَشْكَلَ  
أَيَّوْمُ نَدَاهُ الْغَمْرُ أَمْ يَوْمُ بَاسِهِ

ولم يكن هذا التوريط من جانب مروان لمدحه مقتصرًا على الأقوال والأشعار فحسب، ولكنه تعدى ذلك إلى الفعل والتعریض عن طريق السلوك المباشر، وهو ما توضحه هذه القطة السابقة التي يرويها العتبی: ”لما قدم معن بن زائدة البصرة واجتمع إليه الناس، أتاه مروان بن أبي حفصة فأخذ بعضاً مني الباب فأنسده شعره“<sup>(٢)</sup>. فما دالة هذا الفعل إلا فرض الذات وطلب المال بكل تبجح وتبذل؛ إنه الاستجداء الواضح للعيان، بل إن هذا الفعل وهذا المنظر انعکاس طبیعی لوجه مروان الحقيقی! / ومن أراد أن يرسم صورة صادقة للرجل فعلیه أن يضع في ذهنه الصورة السابقة وحاله فيها وهو يمسك بعضاً مني الباب!! / وفيها الغناء عن القول والتصريح، بل إنها أقوى دالة من كل قول وتقرير.

اليس هذا مروان؟ أولاً يعبر هذا بكل وضوح وبدون مواربة عن شخصية الرجل؟ الرجل الذي أحب المال وأبدع في مدائحه من أجله؟ وجعله قسيماً للمديح في قصائده من أجله؟ ويخل بالبخل الشديد من أجله؟ اليس في هذا ما يكفي لتصحيح كثير من الرؤى الخاطئة والأحكام الخاطئة عن الرجل وشعره؟؟ إن الذي يدفعه إلى مداومة المسؤول والإلحاح في السؤال دفعاً مقصوداً أحياناً وخفياً أحياناً أخرى / هو هذه العاطفة العارمة والشهوة الطاغية التي تمثل حجر الأساس في شعره بعامة ومديحه بخاصة / هو حبُّ المال !! / ولو كان مروان محبًا صادقاً أو مخلطاً حقيقياً لما حملَ مدائحه كل هذه الإشارات!! وماذا تعني هذه الإشارات؟ غير الإعلان الصريح عن صاحبها وشخصيته؟؟ وكأنه يقول لهؤلاء الممدحين ويدركهم دائمًا أن المديح سيكون على قدر ما يعطونه من الأموال، هذه

(١) نفسه: ص ٨٨ .٨٩

(٢) ابن عبد ربه: مصدر سابق، ٢٠٢١،

هي شخصية مروان بن أبي حفصة من خلال مدائحه وعطفته لمعن بن زائدة الشيباني. إنها تبدو بعد هذا العرض شخصية بعيدة عن المأثور والمعتارف عن الرجل!! فما شخصيتها التي تظهر من خلال العاطفة والشعر في مدح العباسين؟

(٥)

### شخصية مروان في مدح الخلفاء العباسين بين العاطفة والشعر

كان الخليفة العباسي المهدى أول الخلفاء العباسين الذين مدحهم مروان، وتبدأ حكاية اتصال مروان بن أبي حفصة بالمهدى بقصة عجيبة مقتضاه أن المهدى طرد مروانَ من مجلسه عندما وفد عليه أول مرة ليمدحه فيمن وفد من الشعراء، وقد وردت هذه القصة على هذا النحو: "وحكى الفضل بن الربيع قال رأيت مروان بن أبي حفصة قد دخل على المهدى بعد موت معن بن زائدة في جماعة من الشعراء، فأنسده مدحًا، فقال له: من أنت؟ فقال شاعرًا مروان بن أبي حفصة. قال: ألسنت القائل: فقلنا أين نرحل بعد معن، البيت المذكور وقد جئت تطلب نوالنا وقد ذهب النوال لا شيء لك عندنا جروا برجله. قال فجرروا برجله حتى أخرجوه"<sup>(١)</sup>، لقد بدأت بذكر هذه القصة لأنها تحمل دلالات وإشارات قوية على شخصية الرجل، بل إنها تضاف إلى قصصه المتعددة التي تعكس حقيقة شخصيته، وخاصة أنه يظهر فيها بمظاهر المسؤولين الثقلاء، الذين يسحبون ويضربون ومع ذلك لا يرتدعون أو يكفون عن تسولهم وترخصهم، ويفدوهذا الوصف مناسبًا للشخصية مروان، فالرجل متسلول من الطراز الأول ولكنّه متسلل من طراز خاص، ينص على رأس أولئك المسؤولين الثقلاء لأنه يفعل أفعالهم ويتشبه بسلوكيهم. ألم يسحب من رجليه في مجلس المهدى؟! فلماذا عاد وعاود الكرة في الدخول مرة ثانية؟ وهل يحمل هذا الإخراج وبهذه الصورة دلالة ما؟؟. الذي يغلب على الظن أن الخليفة المهدى كان على وعي دقيق بحقيقة شخصية مروان، ورأى أن يبدأ بهذا الموقف معه حتى يلهب مشاعره ويدفعه قريحته حتى تجود بأروع ما تستطيع وخاصة أن الرغبة تدفعه دفعاً إلى الإتيان بالعجب والطريف هذا من جانب، ومن الجانب الآخر، فإن المهدى يعلم أن المحرك الأول الذي يسيطر على هذه الشخصية المروانية يمكن

(١) البافعى: "مرأة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان"؛ تحقيق عبد الله الجبوري، مؤسسة الرسالة: بيروت، ١٩٨٤، مجل ١/٣٢٩.

في المال والرغبة في جمعه، ويرى دمشق الشكعة أن السر في لجوء مروان إلى الشعر السياسي والمذهبي – الذي يدافع فيه عن أحقيّة العباسين في الخلافة – يكمن في هدفه المتمكن منه وهو حبُّ المال<sup>(١)</sup>. والذي يغلب على الظن كذلك أن مروان الشره إلى المال قد فطن إلى مقصود الخليفة المهدى وعرف مراده من هذا التصرف، فلم يلبث أن رجع بقصيدة في العام التالي لكي يرضي الخليفة: ”..... فلما كان من العام المقبل تلطّف [مروان] حتى دخل مع الشعراة فمثل بين يديه [المهدى]. وأنشده قصيده التي أولها: ” طرقت زائره فحي خيالها ”، فأنّصت لها المهدى ولم يزل يزحف كلما سمع شيئاً منها حتّى زال عن البساط إعجاّباً بما سمع، ثم قال كم هي؟ فقال: مئة. فأمر له بمئة ألف درهم ويقال إنّها أول مئة ألف أعطيها شاعر في خلافةبني العباس ”<sup>(٢)</sup>. لقد صدق حدس المهدى في مروان، وصدقت فراسته فيه، حيث إن مروان قدّم للعباسين السنّد الشرعي في الخلافة وهو أهم ما يحتاجون إليه للتتصدي لخطر أبناء عمومتهم العلوبيّن<sup>(٣)</sup>. يتراوّي لي أنّ هذا المدخل صالح ومفيد للتعرّف على حقيقة الشخصية المروانية التي تظهر من العاطفة والشعر، ويتراءى لي كذلك أنّ هذه الشخصية ليست بجديدة أو غريبة على<sup>\*</sup>، فلقد عرفتها من قبل شرّهه تسسيطر عليها شهوة حبِّ المال واكتنازه، كما أنها ليست بجديدة على مروان نفسه الذي أغاظه على نفسه من أجل المال. فقد سعى الرجل وبكل ما أوتي من قوّة إلى المال وطلب المال وتنازل عن كرامته وكبرياته – إن كان له ما يعرف بالكرياء أو الكرامة – من أجل المال، ولم يثار الرجل ل蔓اله في مجلس

(١) مرجع سابق: ص ٤٤.  
(٢) اليافعي: ” مصدر سابق ”: مج /١٣٤٠ .

(\*) وكان طبيعياً أن يفسر أحد الدارسين السبب الذي من أجله طرد المهدى مروان بن أبي حفصه بقوله: ..... ولكن الغاية من طرده هو أنه لم يضمن شعره الدفاع عن أحقيّة العباسين بالخلافة فطرده لكي يشعره بما أراد و يريد وهو أن يتجه في شعره اتجاهًا سياسياً يؤيد حجج العباسين في عدم مشاركتهم للعلويّين في الخلافة، وقد عرف ذلك مروان فكان بعده شاعر الحزب العاسي الأول ”

– إسماعيل حمد السمايعيل: ” مرجع سابق ”: ص: ٧٠.

المهدي في أول مرة وحق له أن يغضب وأن يثور وأن ينتصر لذاته لكنه لم يفعل كذلك من أجل المال !!

فماذا قال مروان في هذه القصيدة لكي ينال كل هذا التكريم والاحتفاء من قبل الخليفة المهدي؟ وما سبب هذا التحول؟ وما المعاني التي قدمها مروان في قصيده هذه؟ تكمن الإجابة عن هذه التساؤلات فيما أورده ابن عبد ربه عن مروان قال: وقال مروان

بن أبي حفصة: دخلت على المهدي فاستنشدني، فأنسدته الشعر الذي أقول فيه:  
طَرَقْتَكَ زَائِرَةَ فَحَرِيَ خَيَالَهَا بَيْطَاءُ تَخْلُطُ بِالْحَيَاءِ دَلَاهَا  
قَادَتْ فُؤَادَكَ فَاسْتَقَادَ وَمِثْلُهَا قَادَ الْقُلُوبَ إِلَى الصِّبَا فَامَّلَهَا

حتى انتهيت إلى قوله:  
شَهِدتُ مِنَ الْأَنْفَالِ أَخْرُ آيَةٍ  
أو تَجْحُدُونَ مَقَالَةً عَنْ رِيْكُمْ  
هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومَهَا

قال [مروان] وأنسدته أيضاً شعرِي الذي أقول فيه:  
يَا ابْنَ الْذِي وَرَثَ النِّبِيَّ مُحَمَّداً  
الْوَحْيُ بَيْنَ بَنِي الْبَنَاتِ وَبَيْنَكُمْ  
مَا لِلنِّسَاءِ مَعَ الرِّجَالِ فَرِيشَةٌ  
أَنَّى يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ  
أَلَّا سِهَامُهُمُ الْكِتَابُ فَحَاوَلُوا  
ظَفَرَتْ بُنُوْسَاقِي الْحَجِيجِ بِحَقِّهِمْ

قال مروان فلما أنسد المهدي الشعرين قال: وجَبَ حَقُّكَ عَلَى هُؤُلَاءِ وعندَ جماعة من أهل بيته، قد أمرت لك بثلاثين ألفاً وفرضت على موسى خمسة آلاف وعلى هارون مثلها وعلى علي أربعة آلاف وعلى العباس كذا وعلى فلان كذا فحبست سبعين ألفاً.

قال [مروان]: فأمر لي بالثلاثين ألفاً فأتي بها، ثم قال أخذ على هؤلاء وخذ ما فرضت لك، فأتيت موسى فأمر لي بخمسة آلاف، وأتيت هارون فأمر لي بمثلها وأتيت علياً قال: قصر بي دون إخوتي فلن أقصر دون بنفسي فأمر لي بخمسة آلاف وأخذت من الباقيين سبعين

لا يكمن السر في هذه الأبيات فيما تحمله من معانٍ مدحية في نظري ولكن السر ككل السر يكمن في المعنى السياسي الذي طرقته والمكسب الدعائي الذي أهداه إلى العباسيين، فلقد قدم لهم مروان ضالة كانت غائبة عنهم، وهدية مبتكرة وجدت القبول والتكرير بخاصة أنها هدية قيمة لا تقدر بثمن عند العباسيين على وجه الخصوص. ولقد مثل مروان اللسان الناطق بل إنه المدافع الأول عن العباسيين والمتهم للعلويين وهي معان حرص عليها العباسيون وحرضوا أكثر على تعقيتها عند الرعية والعوام على وجه التحديد، وكان طبيعياً أن يعطى كل هذه العطايا، لأنه حقق نصراً سياسياً وفكرياً ومعنوياً كان العباسيون في أشد الحاجة إليه، هذا النصر الذي يضاف إلى نصرهم العسكري. ويكتفي أن هذه الأبيات وقعت كالطاعقة على العلويين وأشياعهم، بل وأفقدتهم كثيراً من التعاطف الذي كان يقابلون به من الرعية والعوام.

وعلى ذلك لم يلتفت المهدى إلى صدق مروان أو كذبه ولا داعي للصدق في مثل هذه الأمور وطالما أن مروان قد قدم شعراً في صالح الحكم العباسى، هذا ما نظر إليه المهدى وأولاًه اهتمامه، فلئن كان مروان كاذباً فلسوف يقتبّع بأبياته وأشعاره الكثيرون من العامة. ولئن كان مروان كاذباً فلسوف يتبنّى هذه الرؤية آخرون صادقون في توجّههم وحبّهم للعباسيين، ويكتفي أن مروان قد فتح الطريق ومهدّه أمامهم، وإذا كان المهدى في حاجة إلى المديح العادي فإن حاجته أكثر على مدح من اللون الذي قدمه مروان.

فما الذي دفع مروان إلى هذا المعنى المبتكر الجديد؟ أتراه الإخلاص للعباسيين!! الم يكن مروان مخلصاً أو محباً لهم. ومع ذلك فإذا كان مروان كاذباً في حبه وإخلاصه وعاطفته تجاه العباسيين فإنه كان صادقاً ومخلصاً لعاطفته التي صدر عنها!! ولا يضرّ مروان الكذب أو الادعاء على ممدوحيه طالما أنه أخلص لعاطفته الخاصة وانطلق عن معاناته الخاصة التي ألمت به وسيطرت عليه، فهذه العاطفة هي التي دعته إلى الابتكار في المديح والتجديد فيه ليس من أجل الممدوح بل من أجل العاطفة التي تحرّكه، وهذا كانت هذه العاطفةُ المحركَ والداعِي أطلق له العنوان لكي يتصرف بكل حرية من

(١) ابن عبد ربه: "مصدر سابق" ١ / ٣٢٠ - ٣٢١، والقصيدة كاملة في شعره ص ٩٦ - ٩٤.

أجل إرضائهما وأباح له كل شيء محظور في سبيل تمثيلها.

وتتجدر الإشارة إلى أن قصائد مروان في العباسيين تتفوق في نظرى على قصائد فى مدح معن ابن زاندة وغيره، كما أن مدائح مروان للمهدى لا تقارنها مدائح أخرى، فهى من غرر قصائد المديح في الأدب العربى، وليس هذا من قبيل الحكم على هذه القصائد بالمعنى الدقيق ولكن هذا معناه أن العباسيين أرادوا الانفراد بمروان بن أبي حفصة بل إن الأهم من ذلك أنهم استكثروا مدائحه في معن / والأصح أنهم طلبو لوناً معيناً وخاصة من المديح السياسي والحزبى والمذهبى / وعلى ذلك فهم يرغبون في احتكار الرجل واحتكار مدائحه لهم وحدهم، وهذا نراه في تكرار معاتبتهما أو بالأحرى معاقبتهما لمروان بسبب مدائحه لمعن بن زاندة الشيبانى، إنه التعنيف المقصود الذى يحمل تكاليفاً معناه يعرفه مروان وهو ضرورة تقديم مدائح متألقة / مدائح من طراز خاص يحتاج إليها العباسيون / تتفوق على هذا المديح السالف. ومع ذلك فهم لا يواجهونه بهذا التجھم لأنه أخلص للرجل، فهم يعرفون أن الإخلاص الأوحد له يرتبط ويتوقف على الأموال.

ويبدو أن أشعار مروان ومواقفه تعطى أدلة أخرى وشهادـتـؤكـدـ هـذـهـ النـتـيـجـةـ بالإضافـةـ إلىـ هـذـاـ التـفـسـيرـ،ـ ويـمـكـنـ أنـ نـقـرـأـ هـذـهـ المـوـاـفـقـ وـالـأـشـعـارـ لـنـرىـ عـلـىـ أيـ شـيـءـ تـنـطـوـيـ؟ـ!ـ

الأول: تبدى لي من خلال المصادر المختلفة أن مروان بن أبي حفصة عندما يخبر قصة عن نفسه أو شعره فإنه لا ينسى أن يذكر العطايا التي أخذها بل ويضم منها ما أخذه بكل دقة، وهذا إن دل فإنما يدل في نظرى على حرص الرجل على أن يذكر ما يحب، إذ لو لا هذا الحرص لما ذكر القيم الدقيقة لما أخذه أو لما تذكرها في الأساس، ولكن كيف ينسى مروان؟ إنه يتذكرها وبكل دقة لأنها ترتبط به ويصدر عنها / ولو أن هذه الأموال لا تمثل شيئاً بالنسبة له لنسي على الأقل قيمة ما أعطى وكما قالوا: فإن زلات اللسان تفتح وبأمانة عما يعتمل في القلوب من الحب أو الكره؛ وهي مع مروان أكثر إفصاحاً وأقوى دلالة، ويكتفى أن نتأمل القصة السالفة التي يتحدث فيها مروان عن هذه العطايا وما أخذها من هذا ومن ذاك وهو يذكر قيمة ما أخذه بدقة متناهية لنرى أنها خير دليل على ما تنتطوي عليه داخيلة الرجل، ولنرى كذلك أنها خير دليل على حبه الحقيقي. ويبدو أن الرجل أمين مع نفسه وصادق معها كل الصدق لأنه لا يفعل إلا ما يرضيها ويرضى نهمها ويشبّع شهوتها. وتأتي أشعاره وأفعاله تعبيراً أصيلاً عما يعتمل ويدور في خلجهاته

الداخلية، كما أنها تعبر أصيل عما تطلبه عاطفته، فبها يتوجه وعلى أساسها يتصرف ومن خلالها يرى، وهو لا يرى ولا يصدر ولا يتصرف إلا بإرادتها، بل إنه يصدر عنها صدوراً أعمى، إنه الإخلاص العجيب والحب الحقيقي للمال، هذا هو مروان مع المهدى وها هي شخصيته لمن أرادها.

الثاني: أشعار مروان في مدح المهدى مليئة بالإشارات التي تركز على المال والعطاء، وهذا أيضا انعكاس تلقائي لشخصية الرجل التي لا تستطيع أن تهمل أو تنسى ما تحب، ولنتأمل على هذا قوله:

بِسَبَّعِينَ الْفَا راشِنِي مِنْ حِبَائِهِ وَمَا نَالَهَا فِي النَّاسِ مِنْ شَاعِرٍ قَبْلِي<sup>(١)</sup>

لنرى هذه السعادة الغامرة التي تسسيطر على مروان، إنه يفخر بالأموال التي طارت بعقله

وحققت أمله، ولنتأمل قوله أيضاً:

رَقَعَ الْخِلِيفَةُ نَاظِرِي وَرَاشِنِي بِيَدِ مُبَارَكَةِ شَكُورْتُ نَوَالَهَا  
وَحُسِيدُتُ حَتَّى قِيلَ أَصْبَحَ بَاغِيَا فِي الْمَسْنُى مُتَرَفَّ شِيمَةً مُخْتَالَهَا<sup>(٢)</sup>

وقوله كذلك:

إِذَا هُنَّ الْقَيْنَ الرِّحَالَ بِبَابِهِ حَطَطْنَ يِهِ ثَقْلًا وَأَدْرَكْنَ مَغْنَمًا<sup>(٣)</sup>

ولنتأمل قوله في الآخرين:  
إِلَيْكَ قَصَرَنَا النَّصْفَ مِنْ صَلَوَاتِنَا  
مَسِيرَةَ شَهْرٍ بَعْدَ شَهْرٍ نُواصِلُهُ  
فَلَا نَحْنُ نَخْشَى أَنْ يَخِيبَ رَجَاؤُنَا<sup>(٤)</sup>

ليس عجيباً إذاً أن يجعل هذه الإشارات إلى المال والعطاء قسيمة للمدح، وأن يجعلها تتخلل أشعار المدح، فال الطبيعي عند واحد كمروان هو هذا الفعل، لأنه يتلذذ تلذذاً وهو يتحدث عن المال، ولا سيما أن غرامه في هذه الحياة يرتبط به ويتوحد معه في توأمية ظاهرة.

(١) مروان بن أبي حفصة: "مصدر سابق"، ص. ٩٣.

(٢) المصدر السابق: .٩٩

(٣) نفسـه: .١٠٢

(٤) نفسـه: .٩٤

الثالث: عدم ثبات مروان على حال في مواقفه وهو ما يفسره موقفه من العلوين: فيروى: ”قال الرياشي سمعت محمد بن عبد الحميد يقول: قلت لابن أبي حفصة: ما أغارك بيبي عليٌ؟ قال: ما أحد أحّب إلىَّ منهم ولكن لا أحد شيئاً أبغض للقوم منه“<sup>(١)</sup>. ومن المعروف أن حباً كهذا ليس بحب وإنما هو تزلف وكذب، خاصة من مروان الذي انسحب من ولائه الظاهر لبني أمية وأقول الظاهر لأن ولاء الرجل الباطن والظاهر جميعاً منصرف إلى المال!! وكان طبيعياً أن نرى: ”إن مروان كان يتمثل المال دائمًا“<sup>(٢)</sup> ونرى: ”ولقد كان مروان على جانب كبير من الذكاء في اقتناص المنع والعطايا“<sup>(٣)</sup>. وهذا قاده إلى: ”كما أن مروان في تحامله على العلوين ومنافحته عن العباسيين كان مرأينا منافقاً فلم يكن وراءه حقد أو حسد على العلوين وإنما كان يريد المال ولا مال إلا من هذا الطريق“<sup>(٤)</sup>. وذلك لأن الرجل: ”.... كاذب في حبه للعلويين ولكن يؤكد أن تحامله عليهم ليس صادراً عن حب للعباسيين ولو كانوا أحب الناس إليه لما تعرض لهم بسوء مهما كلف الأمر“<sup>(٥)</sup>. إن الطبع عند مروان يغلب التطبع، والطبع قائم على حب المال: وطبعي أن يقوده هذا الحب إلى الحماس والاندفاع فيما أخلص له.

فلم يحب مروانبني عليٌ أو غيربني عليٌ، ولكنه تمازج واتحد إلى حد الفناء بلغة الصوفية في المال / فهو عشقه وهو غرامه الذي يتميز فيه بالشراهة، بل إنه شهوته التي انقاد لها / والأجدر بمروان ابن أبي حفصة أن يقول: إنه لم يجد طريقاً يحقق به شهوة جمع المال إلا هذا الطريق، بعد أن توافت أمواله وعطائياته من معن، وهكذا كانت شهوة حب المال سجية جبل عليها مروان وخصلة فطرية انطلق منها في مدحه للمهدي وهو ما يقدم شخصية ثابتة للرجل في المرة الثالثة، وأقول إنه مهما غير الرجل في نمط مدحه، فإن هذا التغيير لم ولن ينصرف إلى شخصيته، فشخصيته ثابتة / محبة للمال شرفة في جمعه / على الرغم من أنه يأخذ لكل حال حالها وما يناسبها بلغة بديع

(١) ابن عبد ربه: ”مصدر سابق“، ٥ / ٣٦٨، [وصاحب هذه المقوله هو الرياشي عن محمد بن عبد الحميد].

(٢) د. مصطفى الشكعة: ”مراجعة سابق“، ص ٣٢.

(٣) المرجع السابق: ص ٤.

(٤) إسماعيل حمد السعاعيل: ”مراجعة سابق“، ص ٧٦.

(٥) المرجع السابق: ص ٧٢.

الزمان في مقاماته، فالتلون والتبدل إنما هو في الوسائل والأدوات التي تحقق الهدف /  
المال، لا في الجوهر / الشخصية.

هذه هي شخصية مروان بن أبي حفصة في مدح المهدى بين العاطفة والشعر، جاءت منسجمة مع ما تعلمه عليه عاطفته ولأن العاطفة ثابتة ومستقرة فلقد ترتب عليها شخصية من جنسها ثابتة ومستقرة أيضًا. فهل ستعطينا أشعاره الأخرى في المدح نتيجة جديدة مغایرة أو شخصية مخالفة لما عهدهناه عند الرجل؟؟.

لم يكن الخليفة المهدى الوحيد الذي مدحه مروان من الخلفاء العباسيين أو رجالات الدولة العباسية، ولكنه مدح الكثيرين غيره<sup>(١)</sup>. فماذا تحمل هذه المدائح؟ وعلى أي شخصية تنطوي؟ وهل تنطوي هذه القصائد المدحية على إشارات قوية على شخصية الرجل؟ أم أن هذه الإشارات إلى هذه الشخصية قد توقفت بعد أشعاره في المهدى والتي أعلن فيها الانتصار للعباسيين والذود عن أحقيتهم في الخلافة؟؟. وطالعنا في هذا السياق أشعار مروان في مدح الخليفة الهادى، ولكن لكي نتبين حقيقة شخصية مروان معه لابد أن نعرف أن الهادى لم يطرده من مجلسه كما فعل سلفه المهدى وخلفه الرشيد. ومن الطبيعي أن يخلص مروان في عاطفته تجاه الهادى لم يهنه ولم ينزل من كرامته، ومن الطبيعي أن يكفى عن عادته في توريط الممدوحين، ولكن مازا فعل؟ لقد مدح مروان الهادى العباسي ولكن أخباره معه قليلة، لأن الهادى مات قبل أن تكثر هذه الأخبار؛ ومع ذلك فقد كانت العلاقة قوية بين مروان والهادى، والدليل على ذلك قوله في مدحه:

إِنْ خَلِدَتْ بَعْدَ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ نَفْسِي لَمَّا فَرَحَتْ بِطُولِ بَقَائِهَا<sup>(٢)</sup>  
وقوله: تَشَابَهَ يَوْمًا بِأَسِيهِ وَتَوَالَّهُ فَلَا أَحَدٌ يَدْرِي لِأَيِّهِمَا الْفَضْلُ  
شَيْءٌ أَيْهُ مَنْظَرًا وَخَلِيقَةً كَمَا حَذَّيْتُ يَوْمًا عَلَى أَخْتِهَا النَّعْلُ<sup>(٣)</sup>

(\*) لم ألتزم الترتيب الزمني أو التاريخي في ذكر أشعار مروان المدحية التي قالها في هذه الشخصيات، لأن الشخصية لا ترتبط بزمن أو تاريخ، بالإضافة إلى أن الشخصية عند الشاعر سمعة وعلامة مميزة على كل تجاهه الشعري باختلاف الزمن الذي قيل فيه ومن هنا فالترتيب الزمني في تصوري لا قيمة له في هذه القضية.

(١) مروان بن أبي حفصة: مصدر سابق: ص ١٥.

(٢) المصدر السابق: ص ٨٥. مع أنني أرى أن التشبيه في البيت الثاني غير لائق وغير مناسب لهذا السياق.

ولقد أعجب الهدادي بالبيت الأول فأسرع إلى إثابة مروان، جاء في الأغاني: ”دخل مروان بن أبي حفصة على موسى الهدادي، فأنسده قوله فيه:

تَشَابَهَ يَوْمًا بِأَسِيهِ وَنَوَالِهِ فَلَا أَحَدٌ يَدْرِي لِأَيِّهِمَا الْفَضْلُ

فقال له الهدادي: أيما أحب إليك؟ أثاثون مجلة أمر مائة ألف تدون في الدواوين؟ فقال له: يا أمير المؤمنين أنت تحسن ما هو خير من ذلك ولكنك نسيته. أفتاذن لي أن أذكرك به؟ قال: نعم. قال تعجل لي الثلاثين ألفاً وتدون المائة ألف في الدواوين. فضحك وقال: بل يungan جميعاً فحمل إليه المال أجمع<sup>(١)</sup>. ويعلق أحد الدارسين على هذا الخبر بقوله: ”وفي هذا الخبر يتجلّى لنا طمع مروان وجشعه وتهافته على المال<sup>(٢)</sup>. ويزداد هذا التهافت

وَضُوحاً فِي هَذَا الْإِسْتِجَادَاءِ وَهَذَا التَّزْلُفُ وَالتَّرْخُصُ وَالتَّرْلَفُ الَّذِي يَتَبَدَّى مِنْ قَوْلِهِ  
بِسَبْعِينَ الْفَأْلَافِ شَدَّ ظَهْرِيَّ وَرَأْشَنِيَّ أَبُوكَ وَقَدْ عَاهَنْتَ مِنْ ذَاكَ مَشَهَداً  
وَإِنِّي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ لَوَاقِقٌ بِأَنْ لَا يُرَى شَرُبِيُّ لَدِيَّ مُصَرَّداً<sup>(٣)</sup>

فهل يوجد أكثر من هذا التزلف، إن مروان يشترط على الهدادي العطية التي يريدها. فالرجل فقط في نهمه وتهالكه على المال. وهو شره في جمعه. إنه يمدح العطاء ويشترط العطاء وتتطرق أبياته إلى العطاء. وفي الحقيقة لا أحد أكثر من هذين البيتين دلالة على مروان إنه فرض الذات والسعى بالقوة نحو تحصيل المال، فهو عينه الابتزاز الواضح والتعريض الفاضح / إنه باختصار شخصية مروان التي انقادت انقياداً أعمى وراء المال ولهثت لهثاً لا هواة فيه من أجله. وإنني لا أخفى عجبـي من صراحة الرجل مع نفسهـ فـ كـأنـ الرـجل يـقول أوـهـ يـقولـ بالـفعـلـ: إـذـ أـردـتـ أـيـهـاـ الخـلـيـفـةـ مدـحـيـ وـثـنـائـيـ فـعـلـيـكـ أـنـ تـقـدـمـ الـعـطـاءـ /ـ الـعـطـاءـ الـلـاـنـقـ،ـ وـلـاسـيـمـاـ أـنـكـ عـاـيـنـتـ مـنـ قـبـلـ الـعـطـاـيـاـ الـتـيـ كـالـهـاـلـيـ وـالـدـكـ المـهـدـيـ؛ـ وـإـنـنـيـ إـذـ أـعـلـنـ هـذـاـ اـشـتـرـطـ عـلـيـكـ الـعـطـاءـ أـوـلـاـ وـالـعـطـاءـ قـبـلـ الـمـدـحـ وـالـثـنـاءـ.ـ وـلـحـسـنـ الـحـظـ لـنـاـ وـلـسـوـئـهـ مـعـ مـرـوـانـ فـإـنـ الـأـبـيـاتـ تـفـضـحـ الرـجـلـ وـتـعـرـيـهـ تـعـرـيـةـ تـامـةـ؛ـ بـلـ وـتـقـدـمـهـ شـخـصـيـةـ وـاضـحةـ الـمـعـالـمـ إـلـىـ أـبـعـدـ الـحـدـودـ.ـ إـنـ رـجـلـ مـادـيـ بـكـلـ الـمـقـايـيسـ وـمـعـ ذـلـكـ فـلـقـدـ كـانـ عـبـقـرـيـاـ فـيـ تـحـقـيقـ الرـوـاءـ لـهـذـاـ النـهـمـ وـكـانـ عـبـقـرـيـاـ أـكـثـرـ فـيـ هـذـاـ الـامـتـالـ وـالـتـمـثـلـ لـمـاـ

(١) أبو الفرج الأصفهاني: ”مصدر سابق“، ٨٠ / ١٠.

(٢) إسماعيل حمد السمايعـلـ: ”مـرـجـعـ سـابـقـ“، صـ ٨٢.

(٣) مـرـوـانـ بـنـ أـبـيـ حـفـصـةـ: ”مـصـدـرـ سـابـقـ“، صـ ٢٠.

تمليه عليه عاطفته، فالرجل لم يخالف هذه العاطفة قيد أنملة وإنما جاءت شخصيته وشعره تعبيراً نقياً وخلصاً عن هذه العاطفة. وطالما أن الرجل قد صدر عن عاطفته الخاصة وتمثلها فلا يعييه هذا التوظيف الشعري لما يملك، ولا توجد أدنى غضاضة عليه وهو يخادع أو ينافق أو يكذب على هؤلاء طالما أن المحرك نابع من أعمق نفسه، وكل شيء في هذه الحالة مباح له الكذب أو النفاق أو عدم الصدق والإخلاص في المدح والثناء أو عدم الاكتراش بما ينال من كرامته وكبرياته، فكل هذه الأشياء مباحة طالما أنها في هامش الشعور- إن جاز التعبير - بالنسبة له.

وليس على مروان أدنى غضاضة كذلك في أن ينصرف إلى المال وينشغل بجمعه ولاسيما أنه يعاين حالة من عدم الأمان تسيطر على الأجواء من حوله، ويبدو أن مجيء مروان في الفترة الانتقالية بين الدولة الأممية والعباسية قد عمّق عنده الرغبة في جمع المال، وعمق عنده كذلك الرغبة في تحقيق طموحاته الشخصية، فالمال هو الذي يبقى له طالما أن الأشياء الأخرى غير مؤكدة الدوام أو البقاء. وليس على مروان أدنى غضاضة في أن يتثبت بالمال هذا التشبث لأن كل الظروف التي يحياها تدفعه إلى التركيز على هدفه الشخصي وعدم الاكتراش بما لا يعنيه حتى يضمن لنفسه السلامة من الفتن الكثيرة التي نالت الكثرين من حوله، فهذه الأحوال أعني الأهوال التي عاينها مروان في هذه الفترة الانتقالية هي في نظري من بين العوامل القوية التي دفعت مروان إلى السعي إلى المال بكل سبيل حتى يضمن لنفسه حياة آمنة، وهي كذلك التي حركت هذه العاطفة ودفعتها دفعاً عميقاً لتصل إلى هذا الحد من الشراءة والإقبال على المال. ولذا لا ينبغي أن نظلم الرجل ونتجنى عليه ونرجع السبب في حبه للمال إلى عاطفته فحسب، ولكن يجب أن نضع في الحسبان ونحن نرصد شخصية مروان أثر التقليبات والأجواء التي صاحبت الفترة الانتقالية في بناء شخصيته، فلقد كانت هذه الأجواء والتقلبات والأهوال العامل الأقوى الذي يضاف إلى عاطفته في إقامة هذه الشخصية ودفعها لتنحوهذا النحو. هذه شخصية مروان وهذه عاطفة التي دفعتها الظروف المحيطة إلى تعميق حبها للمال والانقياد له والارتباط به، خاصة وأن الارتباط بأي شيء في هذه الظروف يمكن أن يقود الرجل إلى المجهول، ولذا ارتبط بالمال في توأمية عجيبة طالما أن هذا الارتباط لا يعود عليه بالضرر، بل يحقق له منفعة من جوانب كثيرة أهمها على الإطلاق رواء نهمه

وعطشه في حب المال والاستجابة لعاطفته التي تدفعه إلى الزيادة منه. هذه هو الرجل وهذه هي شخصيته وهذه هي الظروف المساعدة والقوية التي شكلت شخصية مروان وجعلتها تظهر بهذا المظاهر.

بعد أن عرفنا حقيقة شخصية مروان مع الخليفة الهادي يحسن أن نتعرف على شخصيته كذلك من خلال أشعاره في مدح الخليفة هارون الرشيد، ويحسن بنا أن نترك أشعاره في مدح الرجل لتخبرنا هي بذاتها عن حقيقة هذه الشخصية، فهي أبلغ من كل تعليق، وأغنى من كل دلالة، يقول مروان في مدح الرشيد:

يَسْوُقُ بِدِيهِ مِنْ قُرْشِيٍّ كِرَامَهَا  
وَكَلَاهُمَا بَحْرٌ عَلَى النَّاسِ زَانِهِ  
إِذَا فَقَدَ النَّاسُ الْعَمَامَ تَابَعَتْ  
عَلَيْهِمْ بِكَفِيْكَ الْغَيْوَمُ الْمَوَاطِرُ<sup>(١)</sup>

ويقول في نفس القصيدة:

عَلَى بَنِي سَاقِي الْحَجِيجِ تَابَعَتْ  
أَوَيْلَ مِنْ مَغْرُوفِكُمْ وَأَوَاحِرُ  
مَدَى شَعْرُ نَعْمَاكُمْ إِنِّي لَشَاكِرٌ<sup>(٢)</sup>

إن الأبيات تحمل نفس الإشارات والتلميحات الصريحة السابقة إلى العطاء، بما يقدمه مروان في صورته التي رأيناها / حريص على التذكير بالعطاء / شره في طلب المال / عاشق للمال يقبل من أجله ما لا يقبله لغيره / التلون بما يتلاءم مع رغبته الطاغية في الحصول على المال وإدراكه / التفنن والذكاء والتحفز لما يتحقق له شهوته العارمة / اقتناص الفرص واستغلال المواقف التي تخدم هذه الغاية. ويكتفي أن نسوق على ذلك كذلك قصة طرده من مجلس الرشيد حتى تكتمل الرؤية عن شخصية مروان في مدح الرشيد بين العاطفة والشعر / لنرى إلى أي حد يستجيب مروان لهذه العاطفة! إن الرجل يلهج ويلهث من أجلها: ولنرى كيف أن الرجل يكرر نفس ما فعله أيام المهدى، وذلك لأنه سرعان ما يرجع إلى الرشيد مادحًا ويعاود الكرة في منهجه الذي أملته عليه عاطفته، والتي تعد هذه الأشعار والأفعال ترجمة أمينة ودقيقة لها / إنها العاطفة التي أسرت الرجل وقينته في شباكها فسلم نفسه وشعره وتصرفاته لها. ولذا كان طبيعياً أن نرى هذا السلوك من الرجل في هذه القصة: ..... قال الفضل بن الربيع: فلم يلبث إلا أياماً إلى

(١) مروان بن أبي حفص: مصدر سابق، ص ٥٣.

(٢) المصدر السابق: ٥٤.

أن أفضت الخلافة إلى هارون الرشيد، فأنسدده شعراً. فقال له: من أنت؟ فقال شاعر<sup>ك</sup>  
مروان بن أبي حفصة. فقال: ألسنت القائل كذا؟ فأنسدده البيت-[وقلنا أين نرحل بعد  
معن وقد ذهب النوال فلا نوالا]- ثم قال: خذوا بيده فأخرجوه، فإنه لا شيء له عندنا. ثم  
تلطف فدخل بعد ذلك فأنسدده فأحسن جائزته<sup>(١)</sup>.

إن هذا الاتفاق في سلوك مروان وتصرفاته ليحمل دلالة على وحدة العاطفة ووحدة  
الشخصية التي يصدر عنها، ولو كان الرجل مخلطاً أو محباً للتغير ردود أفعاله تجاه هذه  
المواقف، وبناءً على ذلك فطالما أن العاطفة واحدة فآثارها الشعرية متشابهة وواحدة  
كذلك، ولذلك كان طبيعياً أن نرى تكرر هذه المواقف منه وتشابهها في آن معًا، وكان  
طبعياً أن تتفاعل هذه الظروف وتتمازج هذه البيئة مع هذه العاطفة المواتية التي تملك  
استعداداً فطرياً لا مكتسباً - نابعاً من شهوته وشرادته نحو المال - في تكوين  
شخصية الرجل. فعاطفة الرجل إذاً مهيبة ومستعدة وقابلة للاستجابة القوية لهذه  
الظروف، والنتيجة الطبيعية لذلك هي أن ينقاد مروان انقياداً أعمى لعاطفته التي وجدت  
في الظروف المحيطة عوامل قوية ومساعدة لما جبلت عليه، إذ كانت هذه العاطفة على  
موعد وعلى قدر مع هذه الظروف فتماهت معها واستجابت لها في تناغم وتناسق كبير  
ووجدت فيها المعين المناسب لكي تتفجر هذه العاطفة في تلقائية ولكي تفصح عن  
نفسها بقوه وعفویه وبكل الوسائل الممكنة والمتحدة، حتى إن مروان لم يضع ضوابط  
أو حدوداً لهذه الاستجابة، وكان طبيعياً أن يتصرف مع يزيد بن مزيد الشيباني على هذا  
النحو، ويتأتون بهذه الصورة الموجلة في التدني من أجل المال، وقد أورد ابن عبد ربه هذا  
الموقف بقوله: «قال مروان بن أبي حفصة: لقيت يزيد بن مزيد الشيباني وهو خارج من  
عند المهدى، فأخذت بعنان دابته وقلت له: إني قلت فيك ثلاثة أبيات أريد لك كل بيت منها  
مائة ألف. قال هاتِ. اللَّهُ أَبُوكِ! فأنسأتك أقول:

يَا أَكْرَمَ النَّاسِ مِنْ عَجْمٍ وَمِنْ عَرَبٍ  
بَعْدَ الْخَلِيفَةِ يَا ضِرْغَامَةِ الْعَرَبِ  
أَفْنِيْتَ مَالَكَ تَعْطِيْهِ وَتَنْهِيْهِ  
يَا أَفْلَةَ الْفِيْضَةِ الْبَيْضَاءِ وَالْذَّهَبِ  
إِنَّ السَّيْنَانَ وَحْدَ السَّيْفِ لِوَنْطَقَا  
لَأَجْبَرَأَعْنَكَ فِي الْهَيْجَاءِ بِالْعَجَبِ<sup>(٢)</sup>

(١) البافعي: مصدر سابق، مج ١ / ٣٤١.

(٢) ابن عبد ربه الأندلسي: مصدر سابق، ١ / ٢٥٢، ٢٥٤. - ومروان بن أبي حفصة: مصدر سابق، ص ٢٢.

ألا يدل موقفه مع يزيد هذا دلالة حقيقة وقوية على النوازع والدوافع التي تحرك الرجل. والذي يغلب على الظن أن مروان قد أعد هذه الأبيات مسبقاً وتفكر في أمرها وكان يتخيّن فرصة لإلقاءها على من يعطيه عليها بدليل أنه لم ينص على اسم المدحوب وإنما تركه بلا تحصيص حتى تتحقق هدفه من ورائها: كما أنه تركها بدون تعين أو تحصيص حتى تلوّح له فرصة مواتية لإذاعتها على من يعطيه. وفي الأخير فإن مروان لم يترك الحرية للمدحوب في التصرف بحيث يعطيه إن أعجبته الأبيات أو لا يعطيه إن لم ترق له، وإنما اشترط العطاء أولاً وحدد قيمة العطية ثانياً: إنه الإذعان للمال والانصياع له بلا شرط أو قيد.

ويكفي أن هذا الموقف يقدم صورة مروان وهو يأخذ بعنان الدابة وصورته وهو يشتهر على المدحوب يزيد بن مزيد قيمة العطية، وكلها صور محمّلة بالدلائل القوية التي تشير إلى هذه الشخصية. ولا يخفى في نهاية المطاف ما تحمله الأبيات نفسها من صورة ذات دلالة فاضحة على هذا المقصود، ولا يخفى كذلك وهو الأهم أن يزيد ابن مزيد كان يقف على العاطفة الداخلية التي تحرّك الرجل، بل ويقف على تفاصيلها ولها جماعت استجابته الفورية لرغبة مروان. إنه الترخص والسقوط الذي لا يحافظ على صاحبه ولا يحفظ له ماء الوجه، إنه التذلل من أجل المال، إنه مروان بن أبي حفصة في تزلفه للمدحوبين وطلبه للعطاء بكل سفور. وكأن الرجل على موعد مع قول القائل: إذا المر تستحق فاصنع ما شئت، فالرجل لا يستحي ولا يتورع ولا يرعوي لكرامته طالما أن الأمر مرتبط بالمال. وقد وصل مروان في هذا النهج من الإلحاح والترخص إلى القمة في التمادي والتصرّح بالمال وطلبه / ووصل إلى القمة كذلك في توريط المدحوب من أجله / ويتجلى هذا مع الفضل بن يحيى البرمكي، يقول مروان في مدح الفضل وتذكيره سالكاً نفس

الطريق الذي اعتاده مع مدوحيه:

إِنَّ الْجَوَادَ ابْنَ يَحْيَى الْفَضْلَ لَا وَرِقٌ  
مَا مَرَّ يَوْمٌ لَهُ مَذْ شَدَّ مِثْرَرٌ  
كَمْ غَایَةٌ فِي النَّدَى وَالْبَاسٍ أَحْرَزَهَا  
يُعْطِي اللَّهُ أَحِنَّ لَا يُعْطِي الْجَوَادُ وَلَا

يَقُولُ عَلَى جُودِ كَفَيْهِ وَلَا ذَهَبٌ  
إِلَّا تَمَوَّلَ أَقْوَامٌ بِمَا يَهْبُ  
لِلْطَّالِبِينَ مَدَاهَا دُونَهَا تَعَبُ  
يَنْبُو إِذَا سُلَّتِ الْهِنْدِيَّةُ الْقُضُبُ

**فَدْ فَاضَ عُرْفُكَ حَتَّىٰ مَا يُعَارِلُهُ  
غَيْثٌ مُعْيَثٌ وَلَا بَحْرُكَ حَدَبٌ<sup>(١)</sup>**

لا تحمل الأبيات مدحًا في نظري إلا هذه الإشارات المتكررة إلى العطاء، وتعد تسولاً صريحةً يفعله مروان عيانًا جهارًا بين يدي ممدوحه الفضل البرمكي، والأبيات بما تحمله من معانٍ تعبير صادق كل الصدق عن الاستجاء والطلب والإلحاح في الطلب. تلك هي شخصية مروان، شخصية واضحة المعالم، شخصية مرتبطة بعاطفة صاحبها وخارجها عنها وصادرة عن رغبتها، بل إنها شخصية ملتزمة أمام نفسها بتحقيق هذه الرغبة، مهما كلفه ذلك من متاعب ومهما حمله ذلك ما يطيق وما لا يطيق، نراه يقول

في سبيل إرضاع هذه العاطفة متظاهراً بالمدح:

**الْمُتَرَأْنَ الْجَوَدَ مِنْ لَدُنِ آدَمٍ  
تَحَدَّرَ حَتَّىٰ صَارَ فِي رَاحَةِ الْفَاضِلِ  
إِذَا مَا أَبْوَ الْعَبَاسِ رَاحَتْ سَمَاؤُهُ  
فِي الْكَمِنْ هَطَلَ وَيَا الْكَمِنْ وَبَلِ<sup>(٢)</sup>**

يستمر الرجل في مواصلة ما دأب عليه في سيرته الشعرية، من حرص على تحقيق أعلى المكاسب المادية، فلقد حقق مروان مكاسب مادية أعلى من أي شاعر عباسي آخر، ولم لا يحقق الرجل هذه المكاسب وقد خاض طريقاً طويلاً وصبر على ما واجهه من الذل والهوان والمسكينة والصغار من أجل هذه المكاسب<sup>(٣)</sup>، كما أنه عرف ما هو أفضل من جمع المال، فلقد عرف كيف يحافظ على المال وينمييه، ولم تكن هذه المحافظة عن طريق التجارة أو أوجه التكسب المعهودة، ولكن كان ذلك من خلال التقتير على الذات والشج على النفس وعلى الغير على حد سواء<sup>(٤)</sup>. ولم يكن هذا

(١) مروان بن أبي حفصة: مصدر سابق: ص .١٨ ، .١٩.

(٢) المصدر السابق: ص .٩٢.

(٣) ويكتفي أن نتأمل صورة الرجل وهو يقف على باب معن بن زائدة الشيباني ممسكاً بخشبيتي الباب، وصورته وهو يمسك بعنان دابة بزيده بن مزيد الشيباني لنعرف كيف استطاع مروان أن يصل إلى المال وهي صور أبلغ من أي كلام وأقوى من أي دلالة، ويكتفي أن نسترجع قصته مع الضيف الذي ألم بمنزله باليمامية فتركه وانصرف.

(٤) ويكتفي أن نتأمل أيضًا موقفه مع أبي الشمقمق بعد أن مدحه فلم يعطه شيئاً، ولم يقتصر على عدم العطاء ولكنه عنده تعنيفًا مماثلاً، وتروي هذه القصة على هذا النحو: مدح أبو الشمقمق مروان بن أبي حفصة فقال له: أبا الشمقمق [على سبيل السخرية والتعنيف] أنا شاعر وأنت شاعر وغايتنا السؤال. وذكر أعرابي رجلاً بالسؤال فقال: إنه أسأل من ذي عصوبين، وقال حبيب:

لَمْ يَخْلُقِ الرَّحْمَنُ أَحْمَقَ لِحَيَّةً  
مِنْ سَائِلٍ يَرْجُو الْغَنَى مِنْ سَائِلٍ

السلوك جديداً أو عجيباً بل إنه سلوك أصيل عند مروان ارتبط به وأحبه، فهو بخضاعته الوحيدة التي يملكها والتي يتضمن فيها. وليس أدل على هذا من تظرفه مع صيرفي جعفر

البرمكي الذي دفع إليه بشهبة أعطاها إياه جعفر المتوكل حيث يقول:  
 ثلاثونَ الفَا كُلُّهَا طَبْرِيَةٌ دَعَاهُ لَهُ مَارْأَى الصَّكَّ صَالِحٌ  
 عَطَاءُ أَبِي الْفَضْلِ الْجِيَادُ الرَّوَاجِعُ  
 فَمَلَّتْ لَهُ لَمَّا دَعَا بِزُوْفِهِ اللَّاجِدُ هَذَا مِنْكَ أَمْ أَنْتَ مَارِحٌ<sup>(١)</sup>

فهل تحمل هذه الأبيات الثلاثة مدح؟؟ أم ماذا تحمل غير التعبير عن شخصية الرجل المحبة للمال الطامنة في العطاء بلا حدود؟؟ ولتنظر وتأمل البيت الثالث لنرى على أي شيء نحصل وبأي شيء نخرج بغير هذه الشخصية المروانية المفرطة الحضور!! ولا تحمل الأبيات في نظري أي حضور للمدح الحقيقي ولكن كل ما فيها من مدح يتمثل في مدح العطاء والنوال لا غير، إنه التوريط المباشر القوي للمدح وهو نفسه ما نجد له في

قوله أيضاً:  
 إِلَّسْ وَاسِعٌ لِلمُجَتَّدِينَ فِنَسَاوَهُ تَرَوْحُ عَطَايَاهُ عَلَيْهِمْ وَتَبَرِّ  
 أَبْرُرْ فَمَا يَرْجُو جَوَادُ لَحَاقَهُ أَبُو الْفَضْلِ سَبَاقُ الْأَهَامِيمِ جَعْفَرٌ<sup>(٢)</sup>

ويحسن عرض أبياته التي قالها وهو يسلك هذا الاتجاه نفسه في مدح السري بن عبد الله، وذلك حتى تكتمل الرؤية في النظر إلى شخصيته وصورتها، نراه يقول عازفاً على

نفس الوتر:  
 أَصَابَ الرَّدَى قَوْمًا تَمْنَوْالَكَ الرَّدَى  
 لَأَنَّكَ أَعْطَيْتَ الْجَزِيلَ وَصَرَدُوا  
 سَيَنْهَبُ مَا ضُمِّنَتْ عَلَيْهِ أَكْفَهُمْ  
 يُوَارِيكَ وَالْجُودَ الصَّفِيفُ الْمُنْذَدِدُ<sup>(٣)</sup>

فمروان يأبى على نفسه إلا أن يمدح معاني العطاء والإثابة والنوال، نراه في الأخير يسبح في نفس التيار وهو يمدح / يستجدي من شراحيل بن معن بن زائدة الشيباني،

- ابن عبد ربه الأندلسبي: "مصدر سابق"، مج ٤٠ / ٢.

(١) مروان بن أبي حفصة: "مصدر سابق"، ص ٢٩.

(٢) المصدر السابق: ص ١٥.

(٣) نفسه: ص ٣٤.

وقد نجح هذا النهج مع والده ولا شك أنه سينجح مع ابنه، حيث يقول:

**رَأَيْتُ ابْنَ مَعْنَى أَنْطَقَ النَّاسَ جُودَةً فَكَلَّفَ قَوْلَ الشِّعْرِ مَنْ كَانَ مُفْحَمًا<sup>(١)</sup>**

وفي نظري إن هذا العطاء كلف مروان وحده المديح / مدح معاني النوال والعطاء ولم يكلف غيره من الناس كما يزعم أو يدعي؛ فمروان يسقط على الناس ما ينطبق عليه هو، وهو نوع من النكوص يسميه المشتغلون في علم النفس "الإسقاط"، وهو ما يعطينا نتيجة في غاية الأهمية ونحن في نهاية المطاف وهي أن المحرك في مدائح مروان الكثيرة والمتعددة يرجع إلى شهوته العارمة في حب المال وشراهة العنيفة في هذا الحب. إنه مدح العاطفة وتقوّع الرجل على هذه العاطفة وخروج شخصية معبرة عن هذا التقوّع ولكنه التقوّع المرضي المزمن إن جاز التعبير على المال وطلبه وكنزه، هذه شخصية مروان المتقوّعة على ذاتها نجدها من خلال تأمل أشعاره التي عبرت عنها وفضحتها وعكسّت حقيقتها. ولا تتوقف الدراسة عند هذا الحد وذلك حتى تتم معالجة الوسائل والسبل والأدوات التي طرقها مروان حتى يصل إلى هدفه من المديح، فلم تكن هذه الأشعار لتصل به إلى ما يريد لولا ما اشتغلت عليه من ضروب التجديد / فهل اشتغلت هذه الأشعار حقًا على ضروب من التجديد؟ وهل حققت لها هذه الضروب القبول؟ إن الإجابة عن التساؤل الثاني جد يسيرة وهي على البديهة وبدون مناقشة: نعم، لقد حققت ووفرت لها هذه الضروب من التجديد القبول. أما الأدلة على وجود هذه الضروب من التجديد في مدح مروان فهي التي تحتاج إلى المناقشة والبساط والتحليل، وهو ما تقدمه الصفحات الآتية.

(٦)

### **ضروب التجديد التي سلكها مروان بن أبي حفصة في مدحه**

لقد وقف الدارسون موقفًا غامضًا متباعيًّا من هذه القضية، حيث رأى بعض الدارسين أن مروان ابن أبي حفصة لم يخرج في مدحه عن الإطار البدوي التقليدي / ومع ذلك عادوا ليتحدثوا عن بعض ضروب التجديد التي انتهجهما الرجل في شعره، فالرجل ضمن مدائحه بعض التجديد ولكنه التجديد الجزئي الذي يرتبط بالمديح السياسي للعباسيين، وعلى ذلك فالدارس يجد نفسه أمام إشكالية تفرض عليه ضرورة إبداء الرأي فيها، لاسيما أن

(١) نفسه: ص ١٠١.

هذا الرأي قد يساعد في الكشف عن شخصية الرجل أو على الأقل يقدم نتائج تخدم هذه القضية، فماحقيقة التجديد الذي قدمه مروان وهل اقتصر على غرض المديح وحده أم تجاوزه إلى غيره من أغراض؟. ويبدو أن ذكر هذه القضية [التجديد من عدمه] يزيد الأمر صعوبة وتعقيداً، لأنه يرتبط بشخصية مروان ويقود إليها، ولأن هذه الشخصية لا توجد بمعزل عن هذه الإشكالية، وما طرحت في هذا السياق إلا لتعين على فهم وتعمق هذه الشخصية، إذ إن الهدف الرئيس من معالجتها يكمن في اتخاذها وسيلة إضافية للتعرف أكثر ومن قرب على شخصية الرجل، وعلى ذلك فليس في معالجتها عبث أو شيء من العبث، وهو ما يحتم ولو جها قبل أن نختتم هذه المباحث المتعلقة بشخصية الرجل في المديح بين العاطفة والشعر. وبأي محقق شعر مروان ليسير في ركب الرأي القائل: إن أشعار مروان المدحية تكرار وإعادة، حيث يقول: "أما معاني شعره فقليلة معدودة ومكررة معادة وبخاصة في المديح، فإنه اقتصر على ترديد صفات معينة كالكرم والشجاعة والشدة والأصل العريق"<sup>(١)</sup>. وهو ما يراه د.طه حسين إذ يقول: "وهو لا يخرج في مدحه عن سنة الشعراء من قبله [ خاصة في مدائحه لمعنى ] ولكن جيد المعاني حسن الألفاظ صافيها....[فشعره] أقرب إلى شعر الجاهليين والإسلاميين منه إلى شعر المحدثين من شعراء الحضارة العباسية تقرؤه فتجد عليه هذه المسحة التي تخلو أو تكاد تخلو من الدعاية والخفة ومتنازب بشيء من الجلال والرصانة وهو يمثل البادية تمثيلاً صحيحاً، ولهذا أثره في جهة أخرى فقد رضي علماء اللغة جميعاً عن مروان... لأنه كان أقرب إلى الأسلوب البدوي القديم"<sup>(٢)</sup>. ويأتي دنجيب محمد البهبيتي ليسلط مروان في مدرسة الشعر المحافظ أو أنصار مذهب الأوائل: وهي تلك المدرسة التي تجري على جادة القدماء في نهج القصيدة وموضوعها ودياجتها ولفظها في نظره<sup>(٣)</sup>. حيث يقول: "فمروان استمرار لمذهب الأوائل واتصال التقاليد الشعرية يقوم هو ومدرسته في قلب عصر جديد"<sup>(٤)</sup>.

(١)نفسه، ص ١٢.

(٢) د.طه حسين: "مراجع سابق"، ص ٢٣٦، ٢٣٥.

(٣) دنجيب محمد البهبيتي: "تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري"، مطبعة الخانجي: القاهرة، ط ٢، ١٩٦٧م، ص ٤٧٢.

(٤) المرجع السابق: ص ٤٧٣.

ويشير أحد دارسي مروان مع هذا الرأي ولكنه يبالغ فيه إلى أبعد الحدود خاصة عندما يقدم مروان بن أبي حفصة بهذه الصورة التي تجعله يدور في دوائر مغلقة من التقليد والاتباع، يقول: ”ولهذا فإن معاني مروان في شعره تدور حول معانٍ محدودة لا تتجاوزها إلى سواها كما أنها لم تكن وقفاً عليه وإنما هي معانٍ ملقة في الطريق يأخذ منها البدوي والحضري ويستقي منها العربي الصرف والمستعرب وليس هناك مفاضلة إلا في قوة الأسر وحسن السبك وكثرة الماء والرّوَاء كما يقول الجاحظ في حديثه عن المعاني. وقد سبق الشعراء الجاهليون والإسلاميون مروان إلى تلك المعاني ونظموا منها قلائد در عقيان حلوّا بها عنانق مدحويهم ونسجوا منها ثياب عزٌّ وفخرٌ كسوهم إياها حين مدحوهم. وكانت مصدر بقاء وسبب نواح حينما رثوه، لذا فإن مروان لم ولن يستطيع أن يأتي بجديد من المعاني وحديث إلا لماماً، بل سيظلّ أسير معاني الأقدمين ورجم صدى لهم يكرر ما تغنى به زهير ويعيد ما شدّا به الحطيئة وجرين، ولهذا نجده غير قادر على التصرف بعد زمن طويل لاكت السنّة الشعراء خلاه هذه المعاني وروضتها لأفانيين القول والإبداع“<sup>(١)</sup>.

وإذا كان كل دارسي مروان السابقين [ طه حسين، مصطفى الشكعة، نجيب البهبيتي، حسين عطوان، محمد عارف حسين] لا ينفون عنه بعض ضروب التجديد التي مارسها في شعره والتي كان له الفضل في ابتكارها، حيث ذهبوا إلى أن للرجل بعض التجديد خاصّة في مدحه السياسي وانتصاره للعباسيين على العلوبيين / فإن هناك دارساً واحداً قد شذّ عن هذا الإجماع وخالفهم هذا الرأي لينفي عن مروان أي ضرب من التجديد، حيث يقول: ”وهكذا كان مروان شاعراً عباسيّاً بزمانه ولكنه جاهلي في نزعته وطريقته وعباسيّ الوقت والعصر ولكنه يلتحف ببرود الجاهلية ويشرب من معينها بكل ما تمثله من قسوة وخشونة وصلابة وجذالة في حياتها وفي شعر شعرائها“<sup>(٢)</sup>، ويقول أيضاً: ”أقول إنه لولا وجود بعض الإشارات والصور المستمدّة من القرآن الكريم ومن التاريخ الإسلامي والتي وظفها مروان توظيفاً جديداً لخدمة الفكرة التي يدافع عنها

(١) إسماعيل حمد السماعيـل: ”مرجع سابق“، ٢٥٩، ٢٦٠.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٦٥.

ويشيد بها لولا ذلك لحق لنا أن نحسب مروان شاعرًا جاهليًا صرفاً تأخر به زمانه<sup>(١)</sup>. إن السؤال يفرض نفسه في هذا السياق عن حقيقة وجود التجديد من عدمه في مدح مروان! فهل قدم مروان معانٍ مبتكرة وجديدة أم ظل حبيسَ على المعانٍ الجاهلية والإسلامية؟ وما الأدلة على وجود ضروب التجديد في شعره؟ وإذا كان الإجماع ينعقد على أن مروان جدد في المدح السياسي الذي يحتاج إليه العباسيون، فإن الأمر لا يقف عند هذا الحد. حيث يتراهى لي أن مروان لم يقتصر على هذا التجديد فحسب ولكنه قدم ألوانا من المعانٍ والصور المبتكرة في نواحٍ أخرى غير المدح السياسي السابق. وهذا يقود إلى القول: إن مروان عاش زمانه وتمثله بل إنه قد سبق هذا الزمان وتجاوزه في بعض الأحيان. ويظهر ذلك جلياً من خلال الوقوف على ضروب التجديد التي حملها لمدائحه وخاصة وأشعاره بعامة، بما يعني أن الرجل لم يقف عند حد القديم ولكنه طور من نفسه وجدد في شعره لكي يصل إلى أهدافه التي يضعها أمام عينيه وهذه الأهداف في ذاتها تفرض عليه التجديد فرضاً وتجعل منه أمراً حتمياً في شعره. ولا مناص الآن من الوقوف على الأدلة التي تثبت ضروب التجديد التي التزمها الرجل في أشعاره:

\* الدليل الأول: إن أشعار مروان تحمل الإرهاصات الأولى والإشارات المبكرة والمبتكرة إلى شعر الحرب، ذلك الغرض المبتكر الجديد الذي تعمقه أبو تمام والمتتبّي وأصبح غرضاً مستقلّاً على أيدي الشعراء فيما بعد. فلقد اشتغلت أشعار مروان على التفاصيل التي تجعلها بحق الإرهاصات والبدایات الأولى لظهور هذا الفن. ولو لا ما قدمه مروان وأمثاله من شعراء الباكرة العباسية لما استقلّ هذا الغرض المستحدث في القرن الثالث الهجري وأصبح من خصوصيات القرن الرابع الهجري عند المتتبّي بما سجله من انتصارات سيف الدولة الحمداني. وبكفي أن نتأمل قول مروان لنقف على حقيقة هذا التجديد الذي بدأه في مدائحه والذي يحمل الإرهاصات القوية الأولى لشعر الحرب في الأدب العربي: يقول في

مدح الفضل بن بحبي البرمكي الذي أخمد الثورة في خراسان:  
 يُلِينُ لِمَنْ أَعْطَى الْخِلِفَةَ طَاعَةً      وَيُسْقِي دَمَ الْعَاصِي الْحُسَامَ الْمُهَنَّدَا  
 أَذَلَّتْ مَعَ الشَّرِيكِ النِّفَاقَ سَيْوَفَةً      وَكَانَتْ لِأَهْلِ الدِّينِ عِزًا مُؤْدِدًا  
 أَبْحَثَتْ جِبَالَ الْكَابُلِيَّ وَلَمْ تَذَعْ      يُهِنَّ لِنِيرَانِ الْضَّلَالِ مَوْقِدًا

(١)نفسه: ص ٢٧١، الدارسون هم [طه حسين، مصطفى الشكعة، نجيب البهبيتي، حسين عطوان، محمد عارف حسين].

فَتِيلًا وَمَاسُورًا وَقَلًا مُشَرَّدًا  
تَحَوَّبَ مَخْذُولًا يَرِي الْمَوْتَ مُفَرَّدًا<sup>(١)</sup>

فَاطَّلَعْتَهَا خَيْلًا وَطِيشَنَ جُمُوعَهُ  
وَعَادَتْ عَلَى ابْنِ الْبَرْمِ نُعْمَاكَ بَعْدَمَا

ويقول مروان في نفس القصيدة وقد توسيع في الحديث عن انتشارات الفضل:  
 يَأْرُوَعَ بَدْءَ النَّاسِ بَاسًا وَسُؤْدَدًا  
 لَقَدْ صَبَحْتَنَا خَيْلَهُ وَرَجَالَهُ  
 نَفَى عَنْ خُرَاسَانَ الْعَدُوَّ كَمَا نَفَى  
 لَقَدْ رَاعَ مَنْ أَمْسَى بِمَرْزِوَ مَسِيرَهُ  
 إِلَيْنَا وَقَالُوا شَعْبَنَا قَدْ تَبَدَّدَا  
 عَلَى حِينَ الْقَى فَقُلَّ كُلُّ ظَلَامَهُ  
 وَأَفْشَى بِلَا مَنْ مَعَ الْعَدْلِ فِيهِمْ  
 وَأَصْدَرَ بَاغِيَ الْأَمْنِ فِيهِمْ وَأُورَدَا<sup>(٢)</sup>

ينقل مروان إلى المتألق جوًّ هذه المعركة التي قادها الفضل بن يحيى البرمي ويستطرد في الحديث عنها وعن آثارها على أهل بغداد، كما إنه لم يقف أمام جهوده التي قضت على التمرد في هذا الإقليم الثاني فحسب ولكنه ينقل إلينا ما جرى من أحداث. فالآيات مليئة بالحركة، تلك الحركة التي تعكس مسيرة الجيش وحركته وأثاره الواقعة على الخارجين "نَفَى عَنْ خُرَاسَانَ الْعَدُوَّ كَمَا نَفَى ضُحَى الصُّبْحِ جِلْبَابَ الدُّجَى فَتَعَرَّدَا". وليس هذا النقل لأجواء الجيش وتحركاته إلا صدى للحدث نفسه. فهو نقل وتسجيل لمجريات القتال وما يحيط بها من آثار نفسية دقيقة. وتتبدي هذه الإرهادات بقوة في قصيده "الهائية" الشهيرة التي مدح بها المهدى، والتي مطلعها:

طَرَقَتْكَ زَائِرَاهُ فَحَيَّ خَيَالَهَا بَيْضَاءُ تَخْلِطُ بِالْحَيَاءِ دَلَالَهَا<sup>(٢)</sup>

حيث يظهر فيها مروان بمظاهر من يؤسس ويقعد لهذا الغرض، حيث يعرض في هذه القصيدة عرضاً للأسس والقواعد التي قام عليها هذا الغرض فيما بعد. وكأنه يعلم بحوانب الابتكار والجدة التي تحملها قصائد. فها هو يقول ملخصاً جهود المهدى في حماية ثغور المسلمين ببلاد الشام المتاخمة لحدود بلاد الروم، وهو يرسى دعائم هذا الغرض ويقعد له، مما يمثل الإرهادات الأولى القوية والإشارات الواضحة إلى هذا الغرض

(١) مروان بن أبي حفصة: "مصدر سابق": ص ٣٢.

(٢) المصدر السابق: ص ٣١.

.(٣) نفسه: ص ٩٦.

الوليد:

أَجْرَى لِغَایَتِهِ الَّتِي أَجْرَى لَهَا  
بِالْحَیْلُ مُنْصَلِّتًا يُجَدُّ نِعَالَهَا  
نُورٌ يُضِيءُ أَمَامَهَا وَخِلَالَهَا  
وَقَدْ تَحْفَظَ قِينَهَا فَاطَّالَهَا  
جَيْحَانَ بَثًّا عَلَى الْعَدُوِّ رِعَالَهَا  
وَبَاحَ سَهْلًا بِلَادِهِمْ وَجِبَالَهَا  
غَارَاهُنْ وَالْحَقَّتْ آطَالَهَا  
إِلَّا نَحَائِهَا وَلَا آلَهَا<sup>(١)</sup>

هَلْ تَعْلَمُونَ خَلِيفَةً مِنْ قَبْلِهِ  
طَلَاعَ الدُّرُوبَ مُشَمِّرًا عَنْ سَاقِهِ  
قُوَّدًا تُرْبِعُ إِلَى أَغَرَّ لِوَجْهِهِ  
قَصْرَتْ حَمَانَلَهُ عَلَيْهِ فَقَلَّصَتْ  
حَتَّى إِذَا وَرَدَتْ أَوَائِلُ خَيْلِهِ  
أَحْمَى بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ  
أَدْمَتْ دَوَابِرَ خَيْلِهِ وَشَكَّيْمَهَا  
لَمْ تُبْقِ بَعْدَ مَقَابِرَهَا وَطَرَادِهَا

إن مروان بن أبي حفصة يوظف انتصارات المهدى في الثغر الشامي ويستغلها في مدحه، ويربط بين هذه الفتوح والانتصارات وبين صفات الخليفة. فقد خاض الخليفة المهدى المعارك الحاسمة في هذا الثغر من أجل القضاء على فلول الروم ولم يقتصر على مواجهتهم في ساحات القتال ولكنه تعقبهم في الطرق الضيقة والمسالك الخفية حتى يقضي عليهم قضاء مبرماً: طَلَاعَ الدُّرُوبَ مُشَمِّرًا عَنْ سَاقِهِ بِالْحَيْلِ مُنْصَلِّتًا يُجَدُّ نِعَالَهَا. وما الإلحاح على ذكر التفاصيل إلا دليلاً على وعي مروان بهذا الغرض الوليد، ولم تكن هذه الإشارات المتكررة إلى هذه الواقع وانتصارات من قبيل المصادفة / بقدر ما أنها تعبر عن إدراك الرجل ووعيه التام بالأسس والقواعد التي يقوم عليها شعر الحرب.

ولقد كان مروان على وعي دقيق بالمادة الأولية التي يحتاج إليها هذا الغرض، ويتبدى هذا جلياً في وقوفه أمام واقعة من الواقع وتصديه لذكر تفاصيلها وأحداثها. وهو عين ما فعله أمام واقعة الثغر الشامي التي لم يكتف فيها المهدى بطرد الروم من هذا الثغر ولكنه تعقب فلو لهم في الطرق الوعرة والمسالك الضيقة الخفية لكي يظهر البلاد من رجسهم وشرهم. ويسجل مروان كل هذا تسجيلاً دقيقاً:

حَتَّى إِذَا وَرَدَتْ أَوَائِلُ خَيْلِهِ      جَيْحَانَ بَثًّا عَلَى الْعَدُوِّ رِعَالَهَا

(١)نفسه: ص ٩٨-٩٩. والنحائز بالزاي المعجمة الطبع.

## أَحْمَى بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ وَأَبَاحَ سَهْلَ إِلَارِهِمْ وَجِلَالَهَا

ولم ينس مروان أن يقف أمام ما أصاب الخيل من جهد وإعياء ومع ذلك لم يتوقف المهدى عن الملاحقة والمتابعة لهذه الفلول، وعلى ذلك فإن أشعار مروان تحمل الإرهاصات الأولى والقوية لشعر الحرب وتمجيد البطولات الإسلامية ذلك الفن الويلد والمبتكر الذي اكتمل أركانه وأصبح غرضاً مستقلاً في القرن الرابع الهجري؛ وهو ما يعني أن مدائخ مروان لم تقتصر على التقليد والاتباع ولكنها تميزت بالجدة والابتكار؛ كما أن هذه المدائخ بهذا الصنيع تقف شاهد إثبات على ضروب التجديد التي سلّكها مروان وقصد إليها قصداً في أشعاره / بما يجعلها الدليل والبرهان على جوانب التجديد والابتكار التي التزمها الرجل.

\* الدليل الثاني: إن مروان بن أبي حفصة لم يقتصر على المعاني التقليدية أو الصور المكررة في مدحه ولكن كانت له تجدياته الخاصة التي انفرد بها في معاني المديح وكانت له ابتكاراته المستقلة الواضحة في هذه المعاني. ويختلط من يظن أن كل معانيه في المديح قد اقتصرت على المعاد أو المكرر أو قد دارت في فلك واحد ولم تتعده إلى غيره، لأن أشعاره قد حملت ضرباً من التجديد في هذه المعاني، ويكتفي أن نتأمل وصفه لبني العباس لنرى صورة من هذه الابتكارات والتجديفات وذلك في معرض مدحه

للمهرى:

أَيَادِي بَنِي الْعَبَاسِ يِيُضْ سَوَابِغُ  
عَلَى كُلِّ قَوْمٍ بَادِيَاتُ عَوَادِ  
كَمَا تَعْدِلُونَ السَّمْكَ مِنْ قَبْبَةِ الْهُدَى  
هُمُّ يَعْدِلُونَ السَّمْكَ مِنْ قَبْبَةِ الْهُدَى<sup>(١)</sup>

ففي هذه الصورة المدحية تجديد، فالعباسيون يحملون الهدى ويحرسونه كما أن القواعد هي التي تحمي البيت الحرام، وفي الصورة ابتكار وطرق لمعنى جديد حيث تتبدى أهمية الخلافة العباسية في الحفاظ على أركان الدين كما تتبدى أهمية قواعد البيت الحرام في حمل أركانه، وكأن الدين لا يمكن أن يحرس ويتمكن بدون العباسيين فكذلك البيت لا يمكن أن يستقيم بغير قواعده. وهذا الافتقار من جانب الدين إلى العباسيين يعمق مكانة هؤلاء العباسيين ويبالغ في مكانتهم، كما أن افتقار البيت إلى

(١)نفسه: ص.٣٧

قواعده يبين أهمية وقيمة هذه القواعد. وهي صورة من إبداع وابتكار ابن أبي حفصة، ويبدو أن المناسبة هي التي أوحى لمروان بطرقها، ويسوق مروان في نهاية القصيدة

صورة مبتكرة أخرى حيث يقول:

يَرِزِّينَ بْنَيْ سَاقِيِ الْحَجِيجِ خَلِيفَةً  
يَكُونُ غَرَارًا نَوْمَهُ مِنْ حِذَارِهِ  
كَانَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدًا  
عَلَى أَنَّهُ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ مِنْهُمْ

ويظهر مروان بن أبي حفصة بمظاهر الغواص الماهر الذي يغوص من أجل أن يستخرج صيداً ثميناً من الآلي والدرر والأصداف الكريمة النادرة التي تجمل شعره، وما هذا الصيد الثمين بالنسبة له إلا هذه الصور المبتكرة التي يضمنها مدحه، فلقد قدم مروان صورة تشخيصية مبتكرة حيث جعل الحق شاهداً والوجه نوراً في البيت، وقدم صورة حية عن متابعته لأحوال الرعية ومداومته على المتابعة **يَكُونُ غَرَارًا نَوْمَهُ مِنْ حِذَارِهِ عَلَى قَبْبَةِ الْإِسْلَامِ وَالخَلْقِ شَاهِدًا** ثم نتأمل التشبيه في قوله **كَانَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدًا لِرَأْفَتِهِ بِالنَّاسِ وَالْدُّولَ** والتتشبيه يقوي الرحمة والرأفة. ولا يخفى أن مروان يفعل ما يفعله المصورون في العصر الحاضر من خلال التركيز على الشخصيات المهمة، ولقد كان موقف مروان من الصور موقف الصانع الخبير بصناعته حيث طوره وجدد في صوره أحياناً، واعتمد على السائد المألوف أحياناً أخرى وهكذا عمل مروان على التجديد في شعره

يَا أَكْرَمَ النَّاسِ مِنْ عِجْمٍ وَمِنْ عَرَبٍ      بَعْدَ الْخَلِيفَةِ يَا ضِرَاغَامَةَ الْعَرَبِ  
أَفْيَتَ مَالَكَ تَعْطِيهِ وَتُنْهِيهِ      يَا آفَةَ الْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ وَالْذَّهَبِ<sup>(٢)</sup>

والذي يغلب على الظن أن مروان أول من جعل الكرم والسخاء آفة ولكنها الآفة المحمودة التي تكون ميداناً للفرح، وكان استخدام مروان لها مبتكرًا طريفًا منسجماً مع الهدف متلائماً مع الدالة التي قصدها. ومن معانيه السائرة التي حسده عليها العباسيون وعنفوه كثيراً من أجلها قوله:

(١) نفسه: ٣٧، ٣٨.

(٢) ابن عبد ربه الأندلسي: "مصدر سابق": ١ / ٢٥٢، ٢٥٤. ومروان بن أبي حفصة: "مصدر سابق": ص ٢٢.

بَهَا لِلْفِي إِلَسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ  
كَأَوْلَاهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْلَ  
وَمَا يَسْتَطِعُونَ فِعَالَهُمْ  
وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّابِاتِ وَأَجْمَلُوا  
هُمُ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا  
أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وَإِنْ جَزَلُوا<sup>(١)</sup>

وقصة هذه الأبيات مع العباسيين معروفة وتكرارها يبين مدى جودتها ودقتها، كما أن تعنيف العباسيين المتكرر لمروان من أجلها هو الآخر يكشف قدرة الرجل على التصرف في فنون المدح ورغبته في تجويد صناعته بكل ما أوتي من مواهب.

\* الدليل الثالث: لم يكتف مروان بالتجديد في المعاني والصور المدحية ولكنه تعدى ذلك كله إلى التجديد في مطالع قصائد المدح ومقدماتها / خاصة تجديده في مقدمة وصف الرحالة، بما يعطي بعدها مهماً في حرص الرجل ووعيه بضرورة الابتكار وعدم قناعته بالمكرر المعاد من الشعر. ولم ينفت أحد من دارسي مروان إلى هذه السمة كما فعلوا أمام السمة الأولى، مع أن الرجل قدّم الجديد المبتكر فيها ولم يأت مقلداً ولا حتى متبعاً لأحد، وله تجديده المستقل فيها.

وليس أدل على هذا من اهتمامه بمطالع قصائده اهتماماً خاصاً، حيث أولى مروان هذه المطالع والمقدمات ما يتناسب مع أهميتها، بحيث إننا لا نعثر على مطلع ضعيف أو غير ملائم للقصيدة بل على العكس من ذلك نرى اهتماماً وحرصاً على الاهتمام من خلال ما تحمله هذه المطالع من قوة ومن خلال ما تشمل عليه من جمال وتزيين / ولا أحاجب الحقيقة إذا ما قلت: من خلال ما تشمل عليه من حرص على التجميل والتجويد، ولذا كان طبيعياً أن تظهر مقدماته بهذه المظاهر المبهرة الجميلة هذا من جانب. ومن الجانب الثاني فإن مروان نوع في هذه المقدمات فبعضها يتحدث عن الطيف، وأخرى يتحدث فيه عن المشيب والشباب، وثالثة تناول فيها مروان وصف الرحالة وقد نوع في مقدمات وصف الرحالة فبعضها تقليدي بصياغة جديدة وبعضها الآخر مبتكر بأسلوب جديد، كتلك الرحالة التي قطعها مروان إلى الخليفة المهدى أثناء سقوط الأمطار والجو ملبد بالسحب / ويعد هذا الجو الذي قطع فيه مروان رحلته إلى الخليفة المهدى مبتكرة جديداً بكل المقاييس، حيث يتحدث مروان عن علاقة الأرض بهذه الأمطار التي تنهرم

(١) ابن عبد ربه الأندلسي: مصدر سابق: ٣٠٨ / ١.  
- وفي رواية شعره ص ٨٨، ٨٩. تقديم للبيت الأخير [ الخامس ]، مكان البيت الرابع.

عليها ويطيل في تفصيل هذه العلاقة ورصدتها و يجعل قطرات المطر المتتساقطة عاشقة للأحجار التي تنزل عليها وتواجهها، فهذه الأحجار تحضن المياه في حميمية

وعشق و قطرات المياه تلتف بها التفاف العاشر المدいف، يقول مروان:

وَكَانَمَا طَرَقْتُ بِنَفْحَةِ رُوضَةٍ سَحْتُ بِهَا دِيمَ الرَّبِيعِ ظِلَالَهَا  
يَأْتُ تُسَائِلُ فِي الْمَنَامِ مُعَرِّسًا  
سَئَمُوا مُرَاعَشَةَ السُّرَى وَمِطَالَهَا  
فِي فِتْيَةٍ هَجَعُوا غِرَارًا بَعْدَمًا  
فَكَانَ حَشْوُ ثَيَابِهِمْ هِنْدِيَّةً  
تَحَلَّتْ وَأَغْفَلَتِ الْقَيْوْنُ صِقالَهَا<sup>(١)</sup>

ففي هذا / الجو الرومانسي إن جاز التعبير / قطع مروان رحلته إلى الخليفة العباسى المهدى؛ وكانت الناقة التي أصابها التعب من طول الرحلة هي وسيلة في الوصول إلى الخليفة / ولا تخفي علاقة التوأم بين قطرات المطر وما تسقط عليه من أحجار في هذه الصحراء؛ فكأن قطرات المطر النازلة تطرق باب الأرض المقفرة وهذه الأرض المقفرة لا تمل من سقوط أو طرق هذه قطرات لبابها. ولا يخفى أن هذا الجو الماطر الذي تتتساقط فيه قطرات المطر على أحجار الصحراء يعد من الأجواء المبتكرة والخلفيات الجديدة وبخاصة أننا عهدنا الشعراء يقطعون رحلاتهم إلى الممدوحين في أجواء صحو يسيطر عليها الحر الشديد والوهج الحار الذي يصاحب ظهور السراب المليء باللفح والقيط وتوهج الحرارة، وأن يأتي مروان ويقطع رحلته في هذا الجو وتلك الخلفية فهذا معناه حرمه على التنوع والتجديد في مقدمات قصائده المধية وأجوائها.

وكان مروان مولعاً بالمقدمات المبتكرة الجديدة وكان التجديد في هذه المقدمات من أولوياته التي يطمح إليها، ومن ذلك اهتمامه بتناول معاني الشباب والشباب في قصائده، ولا يخفى أن حرمه وعكرقه على هذه المعانى يعكس رغبة ملحة منه في تقديم مقدمات مبتكرة وجديدة تتجاوز المقدمات التقليدية المكررة، وهو ما تبرهن عليه هذه المقدمات نفسها، يقول مروان بن أبي حفص ذاكراً الشباب والشباب في مقدمة قصيده اللامية التي مدح بها معن بن زائدة الشيباني:

(١)المصدر السابق، ص ٩. ولقد أثبتت جامع شعر مروان [العيون] في البيت الرابع والصواب [القيون]، وهي من الأخطاء التي وقع فيها غفر الله له، والقيون جمع قين وهو صانع السيوف.

ضَيْفًا أَقَامَ فَمَا يُرِيدُ رَحِيلًا  
كَالصُّبْحِ أَحْدَثَ لِلظَّلَامِ أَفْوَلا  
يُعِيُونِهِنَّ وَلَا يَدِينَ قَتِيلًا  
ضُمِّنَ أَحْوَرَ فِي الْكِنَاسِ كَحِيلًا  
كُلُّ أَصِيبَ وَمَا أَطَاقَ نُهُولًا  
وَلَقَدْ تَبَذَّنَ كُتْرِراً وَجَمِيلًا  
فِيهِنَّ أَصْبَحَ سَائِرًا مَحْمُولاً  
مِمَّنْ تَرَكْنَ فُؤَادَهُ مَخْبُولاً<sup>(١)</sup>

أَفْسَى الْمَشِيبُ مِنَ الشَّبَابِ بَدِيلًا  
وَالشَّيْبُ إِذْ طَرَدَ السَّوَادَ بَيَاضُهُ  
إِنَّ الْغَوَانِيَ طَالَمَا قَتَلَنَا  
مِنْ كُلِّ آنِسَةٍ كَانَ حِجَالَهَا  
أَرْدِينَ عُرْوَةَ وَالْمُرَقْشَ قَبْلَهُ  
وَلَقَدْ تَرَكْنَ أَبَادُؤِيبِ هَائِمَا  
وَتَرَكْنَ لَابْنَ أَبِي رَيْعَةَ مَنْطِقَا  
إِلَّا أَكُنْ مِمَّنْ قَاتَلَنَ فَإِنِّي

وتوجي إطالة مروان في مقدمة وصف الشباب والشيب الكامنة في الابتكار والتجديد، كما أن بيانه للعلاقة القائمة بين ظهور الشيب والغوانى وتفصيله لهذه العلاقة ليحمل نفس الداللة والرغبة في التجديد، ويمكن أن تقرأ مقدمات وصف الشباب والشيب قراءة جديدة تتماشى مع تدرج هذه الدراسة؛ فهذه المقدمات يمكن أن تحمل نوعاً مبتكرًا من الاستجداء قصد إليه مروان عن طريق إظهار ضعفه وحاله المستكينة لكي ترق القلوب له، وعلى هذا فهو يستخدم هذه المقدمات كحيلة من أجل الوصول إلى التكسب. وليس أول على هذا كله من تكراره لمقدمات الشباب والشيب وتوالي

ورودها في قصائد نراه يقول:  
صَحَّابَعَنْ جَهْلِي فَاسْتَرَاحَتْ عَوَادْلَهُ  
وَأَقْصَرَنَ عَنْهُ حِينَ أَقْصَرَ بَاطِلَهُ  
وَبَدَلَ شَيْئًا بِالْحِظَابِ يَقَاتِلَهُ  
وَهَيَهَاتَ لَا يَخْفَى عَلَى الْحَظَى نَاصِلَهُ  
وَمَنْ مُدَّ فِي أَيَامِهِ فَتَأْخَرَتْ  
وَبَدَلَ شَيْئًا بِالْحِظَابِ يَقَاتِلَهُ  
وَهَيَهَاتَ لَا يَخْفَى عَلَى الْحَظَى نَاصِلَهُ  
وَمَنْ مُدَّ فِي أَيَامِهِ فَتَأْخَرَتْ<sup>(٢)</sup>

ويظهر حرص مروان على التميز من خلال إلحاحه على مقدمات الشباب والشيب في مدائحة ومن خلال تجويده أيضاً في هذه المقدمات؛ فلقد قدم مروان صنعة خاصة في هذه المطالع، وعلى ذلك فلا يخفى في هذا السياق أن تجديد مروان بن أبي حفصة قد اقتصر

(١) نفسه: ص ٧٧، ٧٨.

(٢) نفسه: ص ٤٩.

على التجديد والتنوع في المقدمات فحسب ولكنه التزم منهجاً آخر للتجديد والابتكار / تمثل هذا المنهج في عنايته بمطالع قصائده وحرصه على تجويدها بكل سبيل وتعكس وفقة أمام هذه المطالع جهود الرجل في تدييجهما وتزيينهما وتجميلهما، حتى كان هذا الاهتمام سمة في كل أشعاره وخصوصية من خصوصياته. ويكفي تأمل هذين المطلعين

الذين بدأ بهما مقدمتي الشيب والشباب السابقين، في قوله:  
 أَمْسَى الْمَشِيبِ مِنَ الشَّيْبِ بَدِيلًا      ضَيْفًا أَقَامَ فَمَا يُرِيدُ رَحِيلًا  
 وقوله: صَاحَ بَعْدَ جَهْلٍ فَاسْتَرَاحَتْ عَوَالِهُ      وَأَقْصَرَنَ عَنْهُ حِينَ أَقْصَرَ بَاطِلَهُ

لنرى هذه الخصوصية على صاحبنا ولنعرف إلى أي حد أجده نفسيه في سبيل تقديم الجديد والمتفرد من هذه المقدمات ومطالعها.

أما مقدمات وصف الطيف التي انتهجها مروان فتظهر في قوله:  
 مَا يَلْمَعُ الْبَرْزُقُ إِلَّا حَنَّ مُغْتَرِبٌ      كَائِنٌ مِنْ دَوَاعِي شَوْقِهِ وَصِبْ  
 وَنَحْنُ لَا صَدَدَ مِنْهَا لَا كَثَبٌ      أَهْلًا بِطَيْفٍ لِأَمِ السِّمْطِ أَرْقَنَا  
 لَا الْقَلْبُ عَنْكُمْ يُطُولُ النَّأْيَ يَنْقَلِبُ      وَدِيٌ عَلَى مَا عَهِدْتُمْ فِي تَجَدُّدِهِ

وتظهر في قوله كذلك:  
 طَافَ الْخَيَالُ وَحَتِّيهِ إِسْلَامٌ  
 وقوله: طَرَقَتَكَ زَائِرَةَ فَحَمِيَ خَيَالَهَا  
 قَادَتْ فُؤَادَكَ فَاسْتَقَادَ وَمِثْلَهَا

نخلص من هذا كله إلى نتيجة حتمية وهي حرص مروان بن أبي حفصة ورغبته في التجديد والابتكار في قصائده المدحية، كما أن شعره لم يكن تكراراً أو إعادةً للمعاني التقليدية أو الموروثة منها فحسب، بل كان له حظ ونصيب من التجديد والابتكار الذي يميزه ويميز أشعاره.

\* الدليل الرابع: ابتكار مروان بن أبي حفصة للحجاج السياسي والمذهبى للعباسيين وهو من قدم للعباسيين السند الشرعي الذى يحتاجون إليه في التصدي لحجج العلوين. ويعود

(١)نفسه: ٢٠.

(٢)نفسه: ١٠٤.

(٣)نفسه: ٩٦.

مروان المعلم الأول – إن جاز التعبير – لغيره من الشعراء العباسيين في طرقه لهذا النهج الحجاجي؛ فهو رائد هذا الاتجاه الذي أرسى دعائمه وبنى قواعده وحدث ولا حرج بهذا الخصوص / مما جعل الشعراء يتيممون نهجه ويسيرون على خطاه.

ولقد استطاع أن يبتكر الوسائل التي تعين العباسيين على مواجهة حجج أبناء عمومتهم العلوين؛ ومروان نفسه هو الذي قلب في هذه المعادلة ظهر المجن على العلوين بأشعاره في هذا السياق؛ لتكون الغلبة فيها للعباسيين بعد أن دامت للعلويين رحاماً من الزمن. وهو ما يعد ضرباً مميزاً من ضروب التجديد يحسب لمروان بن أبي حفصة ويضاف كذلك إلى جوانب التجديد السابقة التي طرقتها، حتى إن مرwan قد سبق معاصريه من الشعراء العباسيين في هذا الباب وتفوق عليهم، بما يعني حرصه وسعيه الحديث نحو الابتكار والتميز والتفرد بين أقرانه.

ولولم يكن لمروان إلا هذا الضرب من التجديد لما جاز للبعض أن يتهمنه بالتقليد والاتباع في معانيه وأشعاره، فهذا السبق في هذا الباب كفيل وحده بأن ينصله ويضعه في عداد المبتكرين والمجددين، إلا إذا كان هؤلاء يطلبون منه تقديم أشعار مبتكرة في مجموعها وعلى إطلاقها، فهذا ما لا يستطيعه مرwan أو غيره. وتأتي أشعار مرwan لتروي ظماً العباسيين وتأكيد أحقيتهم في الخلافة وتسقط كالصاعقة المدوية على العلوين. وكان طبيعياً أن يأتي هذا الرأي: «لعل شاعراً لم يبلغ في هذا الدفاع [الدفاع السياسي عن أحقية العباسيين في الخلافة] مبلغه، إذ كان يعرف كيف ينقضُ على العلوين بالحججة القاطعة»<sup>(١)</sup>، والنماذج على ذلك كثيرة، منها قول مرwan في قصidته الهائية

الشهيرة والتي تعد البداية التي انطلق منها مرwan في حجاجه عن العباسيين:  
هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومَهَا      يَا كَفِّكُمْ أَمْ تَسْتَرُونَ هِلَالَهَا؟  
أَمْ تَجْحَدُونَ مَقَالَةً عَنْ رَيْكُمَا      جِبْرِيلُ بَلَغَهَا النَّبِيُّ فَقَالَهَا  
شَهِدَتْ مِنَ الْأَنْفَالِ آخِرُ آيَةٍ      يَتَرَاثُهُمْ فَأَرَدُتُمْ إِبْطَالَهَا<sup>(٢)</sup>

وكان لارتباط هذه الأبيات بالحجاج السياسي وقيامها بالدفاع عن أحقية العباسيين

(١) د. شوقي ضيف: «العصر العباسي الأول»، دار المعارف: القاهرة، ط. ٥، ١٩٧٥م، ص ٢٩٩.

(٢) مروان بن أبي حفصة: «مصدر سابق»، ٩٩.

في الخلافة أبعد الأثر في إعجاب الخليفة العباسي المهدى بها، إلى حد أنه ترك مصاله وأخذ يزحف على البساط حتى وصل إلى نهايته إعجاباً وطرياً بما سمع. ويعلق د.نجيب البهبيتي على هذه الأبيات بقوله: "وكانت الخلافة العباسية في حاجة إلى هذه الفتوى التي أهدتها إليهم مروان، لتكون أساساً لاتهامهم العلوين بالخروج على صاحب السلطان الشرعي، فوجدوها في شعر مروان أولاً"<sup>(١)</sup>، وكانت مكافأة المهدى لمروان نابعة ومرتبطة بهذا الحاجاج السياسي الذي طرقه مروان وقدمه كهدية على طبق من ذهب له ولل Abbasians، وقد تلقف العباسيون هذه الهدية أو المكافأة التي لا تقدر بثمن واحتفلوا بها كأحسن ما تكون الهدية، لأنها أصابت وترأً مهما عندهم وحققت لهم القدر الدعائي الذي يحتاجون إليه. ولم يكن تقدير المهدى لمروان في رأيي صادراً من الأبيات المدحية في ذاتها، إذ لو لم تتحمله القصيدة من هذا الحاجاج وتلك الدعاية في الدفاع عن العباسيين ضد العلوين لما لاقت كل هذا التقدير الذي لاقته. وتوللت أشعار مروان في هذا

الميدان السياسي على هذه الشاكلة، حيث يقول:

طَافَ الْخِيَالَ وَحِيَّهُ إِسْلَامٌ  
أَنْسَ الْمَ وَلَيْسَ حِينَ لِمَامٍ  
يَا ابْنَ الَّذِي وَرَثَ النَّبِيَّ مُحَمَّداً  
دُونَ الْأَقْارِبِ مِنْ ذَوِي الْأَرْحَامِ  
الْوَحْيُ بَيْنَ بَنِي الْبَنَاتِ وَبَيْنَكُمْ  
مَا لِلنِّسَاءِ مَعَ الرِّجَالِ فَرِيَضَةٌ  
نَزَّلَتْ بِذَلِكَ سُورَةُ الْأَنْعَامِ  
أَنْ يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَافِنِ  
الْفَسِ سِهَامُهُمُ الْكِتَابُ فَحَاوَلُوا  
لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرَائِهُ الْأَعْمَامِ  
ظَهَرَتْ بِنَوْسَافِي الْحَجِيجِ بِحَقِّهِمْ  
نَحْلُوا الطَّرِيقَ لِمَعْشَرِ عَادَهُمْ  
وَارْضَوْا بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكُمْ بِهِ

ولا يخفى أن المعاني التي طرقوها مروان في الأبيات السابقة قد مثلت القاعدة التي التزمها شعراء الحزب العباسى، حيث استقوا منها مادتهم الدعائية في تأييد العباسيين والدفاع عنهم وإثبات أحقيتهم بالخلافة، ويقول مروان في قصيدة أخرى سالكاً نفس

(١) مرجع سابق، ص ٧٤.

(٢) مروان بن أبي حفصه: مصدر سابق، ١٠٤. وأرى أن الصواب في البيت الأول "فحية" مكان "وحية".

الطريق:  
 عَلَيْ بَنِي سَاقِي الْحَجِيجِ تَتَابَعُ  
 فَأَصْبَحْتُ قَدْ أَيْقَنْتُ أَنْ لَسْتُ بِالْفَأْ  
 وَمَا النَّاسُ إِلَّا وَارِدٌ لِحَيَاضِكُمْ  
 حُصُونُ بَنِي الْعَبَاسِ فِي كُلِّ مَأْزُوقٍ  
 فَطَوْرًا يَهُزُونَ الْبَوَاتِرَ وَالْفَنَّا  
 بِأَيْدِي عِظَامِ التَّفْعَعِ وَالضُّرُّ لَاتَّنِي  
 لِيَهُنِّكُمُ الْمُلْكُ الَّذِي أَصْبَحَتِي  
 أَبُوكَ وَلِيُّ الْمُصْطَفَى دُونَ هَاشِيمٍ

تبين هذه الأدلة وجوهاً من التجديد التي حرص عليها مروان بن أبي حفصة وتعكس ضروب الابتكار التي سلكها، وتعطي اقتناعاً بأنه لم يكن مقلداً صرفاً أو مكرراً للمعاني والصور التقليدية؛ بقدر ما كانت تدفعه الرغبة الشخصية والفنية في تقديم شعر يحمل بصمته الخاصة. فمروان لم يتجه على نفسه في دائرة مغلقة، كما أنه لم يتقوّع على المعاني التقليدية، على الرغم من انتهاجه للطرق التقليدية في بناء قصائده المدحية، ويحق لمروان وغيره أن ينتهي البناء التقليدي ويتمسّك به لكنه لا يقدّم عملاً مكرراً معاذاً بل على العكس من ذلك تماماً، ولكي يقدّم عملاً مستقلّاً له خصوصيته وتفرده على صاحبه، فالشاعر المتمكن وحده هو القادر على أن ينجز ويسلك الطرق التقليدية ومع ذلك فهو وحده أيضاً قادر على إبداع عمل فني خاص، وتقديم عمل شعري متفرد.

إن هذه هي النتيجة تطرح نفسها على الدارس وهو يستخرج شخصية مروان ابن أبي حفصة من بين العاطفة والمدح في هذا السياق والشعر في مجلـل الدراسة، لكن هذه النتيجة تطرح مجموعة من التساؤلات الأخرى المهمة وهي ما الدافع التي قادت مروان إلى التجديد والابتكار؟ وما البواعث التي جعلته يخوض هذه المعانة وهو يقدم هذه الضروب التجددية؟ وهل لهذه الدافع والبواعث علاقة بشخصية الرجل؟ أم أن الرجل قدم هذه الضروب اعتباً دون أن يقصد إلى هدف أو أهداف بعينها؟

(١)المصدر السابق: ص ٤٥.

إن الإجابة عن هذه التساؤلات ليست في صعوبة الحديث عن ضروب التجديد التي خاضها مروان؛ وتبداً من الوقوف والإلحاح على هذه الضروب ذاتها، فمن الجوانب التي تكشف للدارس من شخصيته نستطيع أن نتصدى للإجابة عن هذه الأسئلة، كما أن هذه الجوانب التي تكشفت من خلال قراءة شخصية مروان تقدم الكثير في فهم هذه القضية. ويمكن القول: إن واحداً مثل مروان لا يمكن أن يتصرف تصرفاً دون أن يقدره حق التقدير، ومن هنا فإنه قد إلى غاية من خلال ضروب التجديد التي ألزم نفسه بها، وأقول ألزم لأنها أكثر دلالة وأكثر مناسبة لطبيعة الشخصية المروانية. فلقد قصد مروان قصداً إلى توفير كل عناصر الجودة والإبداع لأشعاره حتى تتحقق القبول والنجاح الذي يتمناه لها حتى تروي نهمه في جمع المال وكسبه وفي النهاية حتى تعود عليه هذه الأشعار بالمكاسب المادية التي ينشدها. وعلى ذلك كان تقييم مروان لأشعاره مرتبطاً بهذه الغاية ولم يأت بعيداً عنها، كما أن ضروب التجديد التي سلكها ارتبطت رأساً بهذا الهدف. فقبول هذه الأشعار من مددوحيه أمر شديد الأهمية له، فالعطايا والمكافآت المادية وقف على تأثير هذه الأشعار في المددوحين بغض النظر عن إخلاصه لهم من عدمه، والمهم هو صدق الرجل وإخلاصه مع نفسه.

إذا ما عرفنا بذلك نصل إلى القول بأن هذا السلوك من مروان ارتبط في الأصل بعاطفته الشخصية المحبة للمال، تلك العاطفة التي جعلت منه إنساناً نهماً وشرهاً وهو في أقوى درجات النهم والشرابه بل إنه في الدرجات المتطرفة والشاذة منها عندما يرتبط الأمر بالمال. فهو يوظف طاقاته ويُسخر إمكاناته من أجل المال ولا يلتفت إلى أي شيء قد يعيقه عن الحصول على المال وتحصيله، و شأنه في ذلك عجيب وغريب ومثير للاهتمام والاستغراب فتراه يتقلب ويتحول ويتحول في سرعة فائقة بما يتناسب مع هذا الهدف. إن مروان يعرف أهدافه ويسعى إلى تحقيقها من أقصر الطرق. ولذا كان طبيعياً - وهذه هي حاله - أن يسعى جاهداً إلى تحقيق وتقديم ضروب من التجديد والابتكار في مدائنه خاصة وأن تقديمها سيمكنه من الوصول إلى هدفه في جمع المال واكتنازه من جانب، ويضمن له كذلك الحصول على المال بكميات كبيرة من الجانب الثاني.

لقد كانت ضروب التجديد التي انتهجها مروان عوامل مساعدة وإضافية تمكنه من رواه نهمه وشرهه المادي وكانت كذلك وهو الأهم استجابة طبيعية لعاطفة المتطرفة

في هذا الحب؛ وفي الأخير جاءت العاطفة مع الشعر[المديح] لتقدم شخصية مروان وتكشف عنها في جانب جديد من إبداعه، ولا غرابة في هذه النتيجة إذ إن العاطفة الإنسانية تتميز بالثبات وعدم التغير، مهما تغيرت المراحل الزمنية التي يحييها صاحبها، حيث إنها مستقرة وواحدة وغير متغيرة من مرحلة إلى أخرى؛ فهي في مرحلة الطفولة متقاربة مع مرحلة الشباب وغير متعارضة أو متغيرة عن ذلك في مرحلة النضج والشيخوخة. هذه هي شخصية مروان بن أبي حفصة التي تتبدى من أشعاره في المديح؛ بالإضافة إلى شخصيته التي تتبدى أيضاً من ضروب التجديد التي طرقها. فما الشخصية التي تتبدى من خلال أشعاره في الرثاء؟ وهل سيصيّبها التغير والتبدل؟ إن هذين السؤالين يقودان إلى ضرورة مناقشة شخصيته عن طريق التعرف على العاطفة المروانية وعلاقتها بأشعاره في الرثاء.

(٧)

### شخصية مروان بين العاطفة والرثاء

كان الرثاء الغرض الثاني بعد المديح عند مروان بن أبي حفصة، حيث إنه نظم دراماً من قصائد وأشعار في هذا الغرض، واشتهر بوريته الرائعة في معن بن زائدة الشيباني، كما أنه رثى المهدى والهادى من الخلفاء العباسيين. فما الشخصية التي تتبدى من هذا الغرض؟ وما طبيعة العلاقة بين عاطفته وشعره في الرثاء؟ وهل أخلص الرجل في مراتبه؟ أم أن إخلاصه جاء على نفس النهج الذي سلكه في المديح؟.

وتفرض طبيعة العلاقة بين عاطفة مروان وشعره في الرثاء نفسها في هذا السياق، لترتبط الإجابة عن بقية التساؤلات عليها أولاً، إذ لا يخفى أن معرفة هذه العلاقة هي الأساس الذي ينبغي عليه فهم هذه التساؤلات والأهم من ذلك أنها القاعدة التي يتربّ عليها إصدار الأحكام والرؤى في هذه القضية. وكانت العلاقة بين مروان وقصائده في الرثاء ميداناً للوقوف أمام عاطفته في هذه المراتي، بالإضافة إلى أنها ميدان لتقديم الأحكام عن هذه العاطفة. ويأتي د. محمد عارف حسين ليحكم على مروان وعاطفته في غرض الرثاء يقول فيه: "ولقد أجاد مروان في الرثاء، وإن لم يكن بالحد الذي أجاد به في المديح، وذلك لأن مروان كان راغباً في المال حين مدح، أما في الرثاء فلم يكن راغباً في

المال ولا طالبه، وإنما كان يفي بعهد ويشكر صنيعة<sup>(١)</sup>. ثم يذهب ليقرر في نهاية مبحثه عن الرثاء هذه النتيجة: "ويظهر مما تقدم أن مراييه في [معن] كانت أكثر صدقًا وأعمق عاطفة وأشد حرارة. أما مراييه الأخرى [إشارة إلى مراييه للخلفاء العباسيين] فينقصرها صدق العاطفة وعمق الانفعال وبذلك كانت دون الأولى جودة وفناً"<sup>(٢)</sup>.

على أن هذه النتيجة تناقض ما قرره الدارس في قوله: "وقد جاءت مراييه مروان على قدر كبير من الجودة والروعة خاصة مراييه في معن بن زائدة وسر جودة مراييه في معن راجع فيرأي [يقول الدارس] إلى مدى ما شعر به مروان من خسارة لحقته بفقد معن حيث ذهب نواله وزالت عطاياه"<sup>(٣)</sup>.

لقد أوقعنا هذا الدارس في حيرة من أمرنا من هذا التناقض فلم يحدّد أكان التجويد راجعاً إلى صدق مروان في عاطفته تجاه معن وهو ما قرره في قوله السابق، أم أن التجويد في هذا الرثاء قد ارتبط بمروان نفسه وتوقف على عاطفته الخاصة التي تدفعه إلى البكاء نتيجة لهذا فقد المادي الذي حرمه من رحيل معن، فكان بكاؤه على تلك العطايا التي فقدها كما قرر في هذا القول الأخير. ولقد اقترب هذا الدارس من التوجيه المناسب لأنشعار مروان في رثاء معن عندما قال إن هذه المرايى فيه قد تميزت بالجودة وعمق العاطفة نتيجة ما شعر به مروان من خسارة لحقته بفقد معن حيث ذهب نواله وزالت، فالبكاء هو بكاء النوال والعطايا والعاطفة هي عاطفة حب المال التي احتكم بها مروان، وعلى ذلك فمروان لا يبكي معناً وإنما يبكي النوال والعطايا التي خسرها من رحيله. وهو ما يقرره د. مصطفى الشكعة في قوله: "وهو إذا بكى أورثي فلا يرثي إلا معانى النوال أولاً ثم تأتي بقية الصفات الأخرى التي كان يتحلى بها الفقيد في الدرجة الثانية"<sup>(٤)</sup>، وهو رأي له وجاهته ولو ما يبرره من الأدلة، ويعكس قدرة صاحبه على فهم شخصية مروان من خلال الوقوف على طبيعة عاطفته في الرثاء.

(١) د. محمد عارف حسين: "مروان بن أبي حفصة شاعريته وشعره"، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٩٨٣م. ص

.١٢٨

(٢) المرجع السابق: ص ١٣٠.

(٣) نفسه: ص ١١٢.

(٤) د. مصطفى الشكعة: "مرجع سابق"، ص ٢٢.

ويأتي بعض دارسيه ليحكم على عاطفته مرة من خلال مراهقه لمعن بن زائدة الشيباني حيث يقول: "بعد هذا يجب أن نتساءل عن أي عاطفة سيطرت على مروان في رثائه؟ - يجيب الدارس نفسه - لا شك أنها كانت عاطفة الصدق والإخلاص التي منحته هذه القدرة على تصوير الحزن والبالغة فيه..... وهذه العاطفة هي التي أورثته النفس الطويل حتى استطاع أن يصور أحزنه وأن يعبر عن مشاعره التي تحتدم في فؤاده دون أن يضعف أو يهن أو ينضب معينه لأن العاطفة كانت قوية دافعة كالنهر متلاطمـة كالبحر تحس فيها حرارة النار"<sup>(١)</sup>. ويحكم عليه مرة ثانية من خلال رثائه للخلفاء العباسيين، حيث يقول: "...و عموماً كيف نطالب شاعراً كاذباً في عاطفته تجاه العباسيين حينما مد حهم بالرثاء"<sup>(٢)</sup>. ويقول أيضـاً: "إن مروان لم يكن على استعداد لرثاء أي خليفة عباسي... فمهمته مع الخلفاء العباسيين هي انتظار الدرهم والبحث عنه"<sup>(٣)</sup>.

ويلاحظ على هذه الأحكام حرص صاحبها على تبني موقفين متعارضين لعاطفة مروان في رثائه يختلف كل منهما عن الآخر، وهو ما يعود بنا إلى الأحكام الأولى المعهودة والمقررة عن مروان والتي لا تضيف جديداً إلى ما قرره دارسوه من قبل، وهي أحكام وأراء لا تتفق كذلك مع شخصيته التي يحملها، وعلى هذا فنحن أمام حرص من الدارس يبين عدم رغبته في تجاوز الأحكام النمطية المألوفة والأراء المكررة المعادة عن مروان بن أبي حفص وشعره، ويعكس كذلك ابتعاد صاحبه حتى عن محاولة التعرف على شخصيته.

هذا هو مروان وهذه هي عاطفته في الرثاء عند مجموعة من الدارسين، فما حقيقة عاطفته في الرثاء؟ وهل تنسمـج مع هذه الأحكام؟ وهل تنصرف إلى هذا التوجه الذي رأوه؟ أم أن الباعث في هذا التوجه يرتبط بشيء آخر؟.

لا يمكن لدارس أن يغفل طبيعة شخصية مروان وهو يحاول الوصول إلى رسم معالـم دقيقة لشخصيته ولا يمكن أن يصل الدارس إلى شيء ذي قيمة في هذا الصدد إلا من خلال النفاذ إلى عاطفة مروان في الرثاء، لأن تحديد هذه العاطفة والوقوف على حقيقتها هو

(١) إسماعيل حمد السماعيـل: "مرجع سابق"، ص ١٨٠.

(٢) المرجع السابق: ص ١٨٢.

(٣) نفسه: ص ١٨٦.

السبيل الأول في هذا العمل. حيث تحمل أشعاره في الرثاء صدقًا قويًا قلما نعثر له على نظير أو مثيل إلا عند شاعر يحمل صفات مروان نفسه، فهو يحمل عاطفة خاصة / عاطفة متوجة في رثائه، ومع ذلك لم تنتصر هذه العاطفة إلى الحزن على شخصياته التي قال فيها أشعاره ولكنها تنتصر على فقده الخاص الذي أصابه. فهو يرثي حاله التي فقدت رافدًا من الرواقي التي تمدها بالمال. وهذه العاطفة الخاصة جاءت قوية في رثائه لمعن بن زائدة الشيباني في ظاهر الأمر، وتفسير ذلك لا يعود إلى صدقه في عاطفته تجاه معن، وأنها تعود إلى حبه له وتعلقه به وإخلاصه له ولكنها ترتبط في الأساس بفقده لمصدره الوحيد الذي يدر له العطايا، وبخاصة أنه لم يكن قد اتصل بأحد غيره بعوض هذه العطايا والهبات التي كان معن يغدق عليها. وعلى ذلك فما يوجد في أشعاره من الحزن والحرقة في رثائه لمعن لا ينصرف إلى شخصية معن نفسه ولكنها يرتبط بعلته الخاصة ومصيبة الشخصية الكبيرة التي ألمت به لاسيما أنه يصنف من رجال الأموبيين ولا يعرف حتى لحظته الآنية ما إذا كان سيتصل بالعباسيين أم لا. هذه هي العلة الحقيقة التي يمكن الاعتماد عليها في قراءة أشعار مروان في الرثاء، فعاطفته قلما تنتصر إلى شيء غير المال ولا يمكن أن تصدق مع شخص آخر غير ذاته التي بين جنبيه، فهو حزين حزناً لا يستطيع إنكاره دارس منصف ولكن العلة الحقيقة تكمن في النوازع القوية التي سببت هذا الحزن وزادت من مرارة الفقد التي تمثل في فقد المادي الذي أفق بظلاله عليه، ولذا كان طبيعياً أن يتعدى في شعره معانى الرثاء التي تتصل بالفقيد ليستغرق في بكاء العطايا والأموال التي حرمها من هذا الفقد، ولily على ما يهمه إلحاحاً وهو الفقد المادي، وعلى ذلك يأتي رأي د. مصطفى الشكعة السابق ليصيب كبد الحقيقة ويكشف القناع عن حقيقته وحقيقة عاطفته، تلك الحقيقة التي غفل عنها بعض الدارسين وصدر فيها البعض الآخر عن الوهم وقد خدعهم مروان وأوقعهم في اللبس من خلال ذاك الرثاء القوي لمعن فظنوا وتوهموا أن هذا مرد راجع في الأساس إلى إخلاصه في عاطفته تجاهه ووجهه له وارتباطه الوثيق به.

لو كان هذا المسلك الذي سلكوه صحيحًا لما انصرف مروان إلى بكاء الأموال والعطايا ولآخر الصمت عن هذا الموضوع ولما أقبل على ذكره في هذا السياق، إذ كان من الأولى أن يعدد مناقب هذا الفقيد ويقف أمام صفات الراحل دون أن يشير من قريب أو

بعيد لما يتعارض مع الرثاء الحقيقي، وكان من الأولى له كذلك لا يغادر الفقيد إلى ذكر ما يرتبط بالمال والعطايا والصلات التي تخصه شخصياً والتي تشكي في مصداقية الرثاء من أساسه، وبخاصة أنه وقف أمام مطابه الذاتي الخاص أكثر من وقوفه أمام صفات الفقيد الراحل، وجاءت أشعاره في الرثاء أقل بكثير من أشعاره في بقاء المال؛ فالرجل رثى المال بحق في أشعاره، وهو ما يعلن عن حقيقة هذه الشخصية ويكشف ذات القناع الوهمي عنها الذي لازمها وغطى عليها ردحاً من الزمن. ولقد استغرق مروان في قصائده الرثائية الحديث عن مطابه وما ألم به بسبب رحيل معن، إذ نراه يبكي ويتحسر على خسارته الشخصية، وعلى ذلك فمروان يرثى نفسه بهذه الصفات وهذه الصفات تنصرف إليه هو ولا تنصرف إلى معن أو غيره، ولم يكن معن إلا المعادل الموضوعي لمروان ومصبيته التي نزلت به، ويكتفي أن نتأمل قوله لنعرف إلى أي شيء ينصرف، هل إلى معن أو إلى العطايا؟ يقول:

وَلَمْ يَكُ طَالِبٌ لِلْعُرْفِ يَنْوِي  
مَضَّ مَنْ كَانَ يَحْمِلُ كُلَّ تِقْلِي  
وَمَا عَمَدَ الْوُقُودُ لِمِثْلِ مَعْنِي  
وَلَا بَلَغَتْ أَكْفُ ذَوِي الْعَطَايَا  
وَمَا كَانَتْ تَجِفُّ لَهُ حِيَاضُ  
لِأَبْيَضَ لَا يَعُدُّ الْمَالَ حَتَّى  
فَلَيْتَ الشَّامِيتِينَ يِهِ فَدَوْهُ

إِلَى غَيْرِ ابْنِ زَائِدَةَ ارْتَحَالا  
وَيَسِيقُ فَطْلُ تَائِلِهِ السُّؤُالا  
وَلَا حَطُوا بِسَاحَتِهِ الرِّحَالا  
يَمِينَا مِنْ يَدِيهِ وَلَا شِمَالَا  
مِنَ الْمَعْرُوفِ مُتَرَعَّةً سِجَالا  
يَعْمَمْ بِهِ بُعَاهَ الْخَيْرِ مَالا  
وَلَيْتَ الْعُمَرَ مُدَّ لَهُ فَطَالا<sup>(١)</sup>

لقد وصل هذا الاستغراب في بقاء المال إلى قمته على يد مروان بن أبي حفصة الذي لم يدع بيتاً من أبياته السابقة إلا وذكر فيه المال وبمعنى أدق إلا وبكي فيه المال ببقاء شديداً. وتفصح الأبيات عن طبيعة عاطفة مروان التي اتحدت مع الهبات والعطايا فلم تخرج لغته إلا لتعبر عن اتحاده بعاطفته أو تعبر عن هذه المعاني المرتبطة بالهبات والعطايا، ويستولى هذا فقد المادي على مروان ويستولى عليه حتى إنه لا يستطيع منه الفكاك، ولهذا كان طبيعياً أن يكون مضربياً للمثل في انكفاءه على عاطفته وتمثله لها

(١) مروان بن أبي حفصة: "مصدر سابق"، ص ٧٩، ٨٠.

في هذه المرثية بما يضمن له الحصول على المال أو يعبر عن خسارته للمال، فمروان يقدم بكتابية خاصة على هذه الخسارة التي لحقته من رحيل معن، بل إنه يقيم عويلاً متصلًا على الأموال التي حرمتها كنتيجة لهذا الحدث الجلل، فهذا الخطاب فادح عليه لأنه سيحرمه من العطايا والهبات التي يمنحها له معن، ولا تنتصرف هذه الكتابية رأسًاً التركز على صفات معن، ومن هنا فمروان عندما يرثي أو يبكي فإنما يبكي خسارته التي لحقته في المقام الأول، وتتضخ هذه المعادلة من خلال صورته التي تغيرت ملامحها والتي رسماها لنفسه بعد رحيل معن، فلقد تغيرت حالته وتلونت صورته وأصابه الأرق والنحوش لدرجة

يصعب فيها معرفته لضياع معالمه، حيث يقول:

مَضَ لِسَيْلُهِ مِنْ كُنْتَ تَرْجُو  
بِهِ عَثَرَاتُ دَهْرِكَ أَنْ تُقَالَا  
فَلَسْتَ بِمَالِكِ عَبَرَاتِ عَيْنٍ  
أَبْتِ بِدُمُوعِهَا إِلَّا انْهَمَّا  
وَفِي الْأَحْشَاءِ مِنْكَ غَلِيلُ حُزْنٍ  
كَأَنَّ اللَّيْلَ وَاصَّلَ بَعْدَ مَعْنٍ  
لَقَدْ أُورَثْتَنِي وَبَنِيَ هَمًا  
وَقَائِلَةٌ رَأَتْ جِسْمِي وَلَوْنِي  
رَأَتْ رَجُلًا بَرَاهُ الْحُزْنُ حَتَّى  
أَرَى مَرْوَانَ عَادَ كَذِي نُحُولِ  
فَقَلَّتْ لَهَا الَّذِي أَنْكَرْتُ مِنِي  
وَآيَامُ الْمَنْوِنِ لَهَا صُرُوفٌ  
يَرَانَا النَّاسُ بَعْدَكَ فَلَّ دَهْرٌ  
فَنَحْنُ كَاسْهُمْ لَمْ يُقْرِبْ رِيشًا  
فَلَهْفُ أَيِّ عَلَيْكَ إِذَا الْعَطَابِا  
وَلَهْفُ أَيِّ عَلَيْكَ إِذَا الْقَوَافِي  
أَقْمَنَا بِالْيَمَامَةِ إِذْ يَئِسْنَا  
وَقُلْنَا أَيْنَ نَرْحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ

بِهِ عَثَرَاتُ دَهْرِكَ أَنْ تُقَالَا

لَيَالِيَ قَدْ قُرِنَ بِهِ فَطَالَا

وَاحْزَانًا نُطِيلُ بِهَا اشْتِغَالَا

مَعًا عَنْ عَهْدِهَا قُلْبًا فَحَالَا

أَضَرَّ بِهِ وَأَوْرَثَهُ خَبَالَا

مِنَ الْهِنْدِيِّ قَدْ فَقَدَ الطِّقَالَا

لِفَجْعٍ مُصِيبَةٍ أَنْكَى وَعَالَا

تَقْلِبُ بِالْفَتَنِ حَالًا فَحَالَا

أَبْسِ لِجُدُودِنَا إِلَّا اغْتِيَالَا

لَهَا رَبِّ الرَّمَانِ وَلَا نِصَالَا

جَعْلَنَ مُنْتَى كَوَادِبَ وَاعْتِلَالَا

لِمُمْتَدَحِ بِهَا ذَهَبَتْ ضَالَا

مُقَامًا لَا تُرِيدُ لَهُ زِيَالَا

وَقَدْ ذَهَبَ النَّوَالُ فَلَا نَوَالًا<sup>(١)</sup>

(١) نفسه: ص ٨١ - ٨٣.

ماذا يبكي مروان في هذه الأبيات؟ أتراه يبكي معناً ويرثيه؟ أم أنه يبكي مطابه الشخصي؟ ويرثي حالته النفسية الخاصة؟ لا نكاد نعثر على رثاء لمعنى في هذه الأبيات إلا ما جاء لماماً! ولكن الأبيات تحمل بكتابية خاصة ورثاء متميزاً إنها بكتابية الذات ورثاء النفس قبل كل شيء، فماذا يحمل قوله: *مَضِ لِسَيْلِهِ مَنْ كُنْتَ تَرْجُوِهِ عَثَرَاتُ دَهْرِكَ أَنْ تُفَالَا* "غير البكاء على المال"؟

لقد طرح مروان شعره لهذه العاطفة وأباح لها نفسه وسخر لها كل إمكاناته وتبعها في هذا الرثاء وعبر عن مراتتها وغصتها النابعين من هذا الفقد، وكان صادقاً مع نفسه، أmino في التعبير عن مطابه وقد بدا ذليلاً خانعاً نتيجة هذا المصاص، وحق للرجل أن يجزع وحق له أن يبكي كذلك وأن تغير ألوانه وتشحّب صورته ويتبدل رسمه / وذلك كلّه لشيء واحد وهو أنه يبكي نفسه ويعبر عن عاطفته الممزقة التي أصابها الهم والغم، فلقد فقد اليقوع الوحيد الدافق الذي يمدّه بالأموال والهبات والعطايا، هذه هو السبب الأصيل في جزع مروان، وهو ما تعبّر عنه البكتائيات المتتابعة التي تأتي بعد البيت الأول، ويؤيد هذا الرأي بعض الدارسين بقوله: "وحين يموت معن بن زائدة تتولى مرنيات ابن أبي حفصة عليه، وهي جميعاً مع جودة إنشائتها وروح ألفاظ مروان الجزلة التي ينسج خيوطها في براعة، فإننا نحس ببكاء مروان على عطايا معن وليس على معن نفسه"<sup>(١)</sup>، ويقدم د. مصطفى الشكعة رأيه بصرامة حول رثاء الرجل ويبين أنه يبكي نفسه أولاً والجانب الذي يفهمه ثانياً حيث يقول: "ثم ينطلق مروان في بكاء الجانب الذي كان يفهمه من معن وهو جانب العطاء في سير قصيده *كَلَّهَا عَلَى هَذَا الدَّرَبِ*"<sup>(٢)</sup>.

ويبدو مروان في هذه البكتائيات مطاباً مكسوراً ومحرومًا معتدباً لأنّه يبكي نفسه ويتجزّع مرارة لها غصتها الأليمة في حلقة، ولم يكن مروان في كلّ هذا متصنعاً أو مجانباً للحقيقة، لأنّ الرجل أمام مواجهة مع نفسه وأمام لحظة تجلّ مع الذات - إن جاز التعبير - هي التي تضاعف المرارة التي يكتوي بنيرانها ويتألم بلهبها / وتتبدي هذه المرارة في حالة التي تحول إليها بعد وفاة معن، فلقد سدّ هذا الباب المفتوح، وأغلق هذه النبع الجاري / نبع العطايا والهبات، ليس هذا فحسب ولكنه وجد نفسه بلا بديل لهذا

(١) د. مصطفى الشكعة: "مرجع سابق"، ص ٤٠.

(٢) المرجع السابق: ص ٤١.

النبع وبلا عوض لهذا فقد، ولهذا كانت هذه البكائيات المتتالية التي أطلقها صورة منطقية لأخلاقه / فمروان يبكي حاله أولاً قبل أن يبكي معناً أو غيره، إنه يبكي نبعة الفياض الذي قطع بلا رجعة.

ولا شك أن هذا الحديث ثقيل على مروان خاصة وأنه يحيى من أجل المال وشخصيته تتمازج مع المال وتتحدى معه في توأميه واتساق عجيب وهو في هذه البكائيات أشد تمازجاً واتساقاً مع شهوته الطاغية التي ولّت، فروحه وكينونته تساوي المال والعطايا، ولا قيمة لهذه الروح بدون العطايا والهبات التي يجد نفسه فيها، وعليه فلقد وهم الكثيرون ووقعوا في الخلط عندما أخرجوا هذه البكائيات من سياقاتها وذهبوا إلى تقرير بعض الآراء الجزئية عن الرجل وعن شخصياته الذين قال فيهم رثاءه. ولو نظرنا إلى هذه المراثي في سياقها العام لما أقبلوا على هذه الأحكام الجزئية الواهمة في الأساس، والدليل على ذلك أنهن قدمو أحکاماً مقبولة عندما طرحا هذا السياق الضيق، وكانت الأحكام أكثر ملاءمة لمروان.

وهذا ما فعله أحدهم عندما تجاوز هذه الإطارات الضيقة واستجاب لما تملّيه شخصية مروان حيث يقول في تعليقه على الأبيات السابقة: "ثم أظهر الشاعر اللوعة والحسرة لفقد معن وصوّر ما أصابه وبنبه من شديد الهم والحزن، فقد نحل جسمه وبراه الهمُ والأسى لفقد هذا المعطاء السخّي الذي كان موضع رجائه لإقالة عثرات الزمن لذا فهو يبكيه بدموع شجيّ لا يرقأ ولا يجف"<sup>(١)</sup>. أليس هو القائل وقد استبدت به شهوته وغلبت عليه أمره فلم يسمع إلا صوت المال ولم يأتمر إلا له وقد قطع كل أحبال الوصل إلا حبل

المال جعله قويّاً باقياً موصولاً:  
أَفْمَنَا بِالْيَمَامَةِ إِذْ يَيْسَنَا      مُقَامًا لَا تُرِيدُ لَهُ زِيَالًا  
وَقُلْنَا أَيْنَ تَرْحَلُ بَعْدَ مَعْنِي      وَقَدْ ذَهَبَ النَّوَالُ فَلَا نَوَالًا<sup>(٢)</sup>

ولا يحتاج رثاء مروان للخلفاء العباسيين إلى المزيد من الإفراد، لأن مروان لم يكن راثياً بالمعنى الحقيقي الكلمة ولكنه كان متقطعاً لدور الرائي وبمعنى أدق كان مروان وصوّلها

(١) محمد عارف حسين: "مرجع سابق": ص ١١٧.

(٢) المرجع السابق: ص ٨٢.

نفعياً في هذا الرثاء. لم يذهب إليه بداع من الحب والإخلاص أو حتى بداع من الكذب والنفاق ولكنه كان مقبلاً عليه لأن الوسيلة المناسبة لمقتضى الحال والتي تستقيم مع هدفه في قبض العطايا والوصول إلى الهبات. ولكن يبقى القول بأن مروان لم يكن مبغضاً للعباسيين أو محباً لهم، ولم يأت رثاؤه باهتاً لكتبه في عاطفته أو عدم رغبته في الرثاء أصلاً ولكن كل ذلك يرتبط بالمصلحة الشخصية للرجل، فالسياق الحقيقي لهذا الرثاء لا تربطه أي علاقة بالصدق أو الكذب أو الحب أو الكره بقدر ما يرتبط بما سوف يعود به على الرجل. فالسبب في صدور مروان عن النفعية والمصلحة لا غير / مرجعه إلى أنه يعرف أن أبواب النوال والعطاء التي يحرص عليها لم تغلق بموت هذا الخليفة أو ذاك ولا داعي للبكاء أو حتى بكاء الذات / فهي لم تخسر شيئاً في الأساس كما كان الحال من قبل في موت معن بن زائدة الشيباني الذي ارتبط فيه موت الرجل بزوال مصدر العطايا، وهذا الأمر لم يحدث في موت ورحيل الخلفاء العباسيين مما جعل الفتور يطغى على رثائه ويطغى حتى على القيام بدور المتق魅م الرثائي الذي فرض نفسه عليه.

وهذه النتيجة من غير شك تقوي اليقين وتزيد من الاطمئنان بأن مروان لم يكتب أو يرث إلا نفسه وحاله أولاً قبل أن يكتب أو يرجع على الآخرين، هذه هي شخصية مروان التي تبدي لي من رثائه والتي أراها أقرب إلى منحاه ومنهجه في الحياة، وعلى ذلك فرثاؤه يخرج من عاطفته الشخصية ليترد بسرعة إلى ذاته التي بين جنبيه وهو ما يمثل بؤرة الشعور في كل الأوقات عنده، أما شخصياته التي يقول فيها هذا الشعر / في الظاهر / فلا تحتل أكثر من الهمامش البعيد عن الشعور في أحسن تقدير، ومن هنا فشخصية مروان رصينة وثابتة في الرثاء كرسوخها وثباتها في المديح، ولكي تكتمل أبعاد الصورة عن شخصيته لا بد من قراءة ومعرفة حقيقة هذه الشخصية في أغراضه الأخرى غير المديح والرثاء // فما حال هذه الشخصية في موضوعاته الأخرى وما حقيقتها؟؟.

(٨)

### شخصية مروان بين العاطفة والمواضيعات الشعرية الأخرى

لم يعرف لمروان شعر كثير غير غرضيه الرئيسيين المديح والرثاء، ومع ذلك تقتضي المنهجية العلمية ضرورة معرفة حقيقة شخصيته في شعره المتبقى حتى نصل إلى رسم صورة أكثر دقة وأقرب مصداقية لشخصيته. وتتجذر الإشارة بداية إلى أن مروان لم

يقل شعراً ذا قيمة كبيرة غير المديح والرثاء، ولكن الإحاطة بشخصيته تقتضي قراءة هذا الشعر القليل للنفاذ منه إلى معرفة الشخصية، لاسيما وأن الشخصية كل لا يتجزأ ولا يمكن تكوين رأي مهم عن هذه الشخصية إلا بالاطلاع على مجمل هذا الشعر. ويأتي الفخر ليتمثل غرضاً من هذه الأغراض القليلة التي طرقها مروان، فما شخصيته في الفخر؟ يبدو أن عاطفته راسخة طابعة على إبداعه بحيث إنه لم يفخر بنسب أو حسب أو جاه ولكنه فخر بشيء آخر أكثر أهمية عنده من كل هذه الأشياء ألا وهو العطايا والهبات التي نالها من مددوحيه. ومعروف أن الإنسان إذا فخر فإنه يفخر بأشياء وقيم عظيمة!! وهذه القيم والمفاحر العظيمة ليست أكثر من المال عنده، لدرجة أن المفاحر الأخرى [الأصل والجنس والنسب والحسب] لا تمثل قيمة عنده. إننا أمام معادلة محيرة مع أنها نافعة ومفيدة في هذا السياق لأنها تختصر الكثير من الجهد والعنااء الذي يواجهه الدارس وهو يتبع عاطفة مروان ومن بعدها شخصيته. هذه المعادلة تبين أن غرامه القديم والحديث، الظاهر والخفى يتمثل في حبه للمال وإقباله عليه، وهذه المعادلة تبين أن له عاطفة واحدة ودائمة وأصلية في كل الحالات والأطوار وهي انفعاله بالمال وإخلاصه له، هذا الإخلاص المعلن من أشعاره هذا الإعلان الصريح والمباشر ولكنه بلغة خاصة يعرفها من يطيل تأمل هذه الأشعار؛ فهي لغة ظاهرة معلنـة ولكنـها ليست بالقول المباشر بقدر ما أنها تفهم من السياق العام. ونترك الفرصة لهذه الأبيات الفخرية لكي تعلن عن هذه

#### الشخصية المروانية:

- (١) تَبَقَّىْ قَوَافِي الشِّعْرِ مَا بَقِيْتُ
- (٢) وَالشِّعْرُ مَنْسِيٌّ إِذَا نُسِيْتُ
- (٣) لَمْ يَحْظَ فِي الشِّعْرِ كَمَا حَطِيْتُ
- (٤) جَمْعُ مِنَ النَّاسِ وَلَا شَتَّيْتُ
- (٥) كَمْ مَلِكٍ حَلَّتُهُ كُسِيْتُ
- (٦) وَمِنْ سَرِيرِ مُلْكِهِ أُدِيْتُ
- (٧) إِنْ غَبَّتْ عَنْ حَضَرَتِهِ دُعِيْتُ<sup>(١)</sup>
- (٨) وَإِنْ حَضَرْتُ بَابَهُ حُبِيْتُ<sup>(١)</sup>

إن هذه الأبيات تعبر عن شخصية مروان أبلغ تعبير: فمروان يقدم نفسه تقديماً دقيقاً لا أثر فيه للغموض أو الإبهام، ولكنه يقدم هذه الشخصية ويعريها ويكشف عن طبيعتها الحقيقة. فماذا أبقى مروان للدارسين لكي يصلوا إلى معرفة شخصيته؟ إنه لم يبق لهم

(١) مروان بن أبي حفصة: مصدر سابق، ص ٢٦.

شيئاً، بل إنه يقدم هذه الشخصية كأوضح ما تكون، وكعادته دائمًا يختصر المسافة ويصرح بما يريد، فالملوك هم من يحتاجون إلى الشاعر لكي ينظم فيهم مدائحه ويعبر عن أحقيتهم بالخلافة، وهذه الحاجة تضمن له العطايا والجوائز التي يطمح إليها. وليس في هذه التصريح ما يشينه، فهو يقدر قيمة شعره ولا يرى في هذا الوضوح حرجاً. وهو ما يؤكد ما ذهبنا إليه في بداية الدراسة من أن ممدوحي مروان كانوا أكثر جشعًا منه وكلاهما راغب في بطاقة صاحبه. ولم يفعل مروان شيئاً أكثر من التعبير عن هذه الحقيقة!!.

وتتضح هذه الشخصية بكل مكوناتها العاطفية والانفعالية والداخلية كذلك من خلال الرجوع إلى رأي ابن المعتز في تفسير فخر مروان حيث يقول: ”وقال مروان يفتخر وليس له فخر قديم ولا حديث غير الشعر“<sup>(١)</sup>، والذي يحمل إشارة إلى الطبيعة الحقيقية التي انطوت عليها هذه الشخصية، ويقدم كذلك صورة صادقة ودقيقة وأقرب إلى القبول لطبيعة هذه الشخصية خاصة وأن الفخر مرتبط بالذاتية ولملتصق بها أكثر من التصادف بغيره من الموضوعات الشعرية، وهو ما يكشف عن الشخصية وتطورها وأبعادها المتباينة لأنه يشير من قريب إلى نوازعها التي تنتابها ومحركاتها التي تدفعها بما يجعلها تدور في أفلاكها. ولا يخفى هنا أن ابن المعتز قدّم برأيه السابق لأبيات مروان الفخرية

التي تقدم صورة متكاملة وصادقة لهذه الشخصية المروانية، حيث يقول فيها:

وَقَدْ جَرِيتُ مَعَ الْجِيَادِ فَفَتَّهَا بِعَيْانٍ لَا شَيْمٍ وَلَا مَبْهُورٍ مَا نَلَّتْ مِنْ جَاهٍ وَأَخْذَ بُدُورٍ مَا قَالَ حَيْهُمُ مَعَ الْمَقْبُورِ إِلَّا بِسَيِّبٍ حَلَيقَةٍ وَأَمِيرٍ إِلَّا لِصَاحِبِ مِنْبَرٍ وَسَرِيرٍ ذُو الْفَضْلِ يَحْسُدُهُ ذُو الْتَّقْبِيرِ جُودًا وَأَتْرَعُ لِلسِّغَابِ قُدُوريٌّ مِنْ كُلِّ تَامِكَةِ السَّنَامِ عَقِيرِيٌّ بَدْءٌ وَذَاكَ عَلَيَّ غَيْرُ كَثِيرٍ	مَا نَلَّتِ الشَّعَرَاءُ مِنْ مُسْتَخَفِ عَزْتُ مَعًا عِنْدَ الْمَلُوكِ مَقَائِي وَقَدْ حُبِّيْتُ بِالْفِلَفِ لَمْ تَثِبْ مَا زَلْتُ أَكْفُ أَنْ أَقْلِفُ مِذْحَةً مَا ضَرَّنِي حَسَدُ الْلَّيَامِ وَلَمْ يَزَلْ أَرْوَى الطِّمامَ إِكْلِ حَوْضٍ مُفَعَّمٍ وَتَطَلَّلُ لِلإِحْسَانِ ضَامِنَةً الْقِرَى أَعْطَيْتُ اللَّهَ مُتَرَّعًا عَوْدًا عَلَى
---	---

(١) ابن المعتز: مصدر سابق، ص ٤٦.

## وَإِذَا هَدَرْتُ مَعَ الْقُرُومِ مُحَاضِرًا فِي مَوْطِنِ فَضَّحَ الْقُرُومَ هَدِيرِيٌّ<sup>(١)</sup>

هذه هي شخصية مروان، وذاك هو إخلاصه، لقد تفرغ الرجل لهذا الحب وصدر عنه وفخر به على حد سواء. لم يجد مروان غطاء في الفخر أو بمعنى أدق في كشف شخصيته وتعريتها، لأن هذا الفخر يفصح عن الشخصية في حقيقتها ويزييل الإبهام والغموض اللذين ربما يكتفان بها. ويدو أن جبه جعله رجلًا عمليًّا كما يقول د. طه حسين فلم يلتزم بما يلتزم به أصحاب المبادئ والقيم<sup>(٢)</sup>، وهل كانت هناك قيمة أو مبادئ لرجل لم يعترف بقيمة غير قيمة المال والعطايا والهبات؟ إن مثله وقيمه تمثل في المال وجبه فالمثل هي ذلك الرسم الذي فرضه له الخلفاء العباسيون على أنفسهم وهو المئة ألف درهم<sup>(٣)</sup>، الذي تحطم كل القيم والمبادئ والمثل الأخرى في سبيله وفي سبيل الوصول إليه، هذه هي شخصية مروان في الفخر لم أرادها، شخصية واضحة لا أثر فيها للغموض أو الالتواء أو حتى التعقيد شأنها في ذلك شأن صراحة الرجل في تمثيل عاطفته، وشأنها في ذلك شأن الوضوح والصراحة التي التزمها في سعيه الحبيث إلى المال. وإذا ما تركنا الفخر إلى الهجاء، لنتعرف على شخصية مروان في هجائه، فإننا نقف على النتيجة نفسها، وهي انطلاقه في هجائه عن المال والعطايا، وكيفي أنه هجا يعقوب بن داود وزير المهدى لأنه حال بينه وبين الدخول إلى المهدى؛ ومن هنا فقد حرمه العطية وحرمه المال من هذا المنع، لذلك أنشأ على الفور الشعر في هجائه. فالدوافع المحركة له هي المال أو ما يرتبط به أو ما يؤدي إليه أو ما يحول دونه، تلك هي عقيدته التي تأسست عليها شخصيته، يقول في هجاء يعقوب ومرارة فقد العطايا ومنعها تاح عليه، وقد أطلق لسانه الحاد في يعقوب واستباح لنفسه التنديد به وبسياسته نتيجة لهذا الفعل الذي ارتکبه يعقوب في حقه<sup>(٤)</sup> :

سِيْحَشَرْ يَعْقُوبَ بْنَ دَاؤِدَ حَافِرًا يَلْوُحُ كِتَابًا بَيْنَ عَيْنِيهِ كَافِرُ

(١) المصدر السابق: ص ٤٦، ٤٧.- ومروان بن أبي حفصة: "مصدر سابق": ص ٥٥، ٥٦.

(٢) طه حسين: "مرجع سابق": ص ٢٢٥.

(٣) ابن معنزع: "مصدر سابق": ص ٥١.

(٤) لقد كان مروان في هذا الرأي تجاه يعقوب موافقاً لرأي بشار بن برد الذي كان أول من فطن إلى خيانة يعقوب بن داود للمهدى على الرغم من أن الأخير قد أعطاه من الصلاحيات الشيء الكثير، وقد صدق بشار ومن بعده مروان في هذا الرأي، حيث أثبتت الحوادث الواقع بعد ذلك فساد سياسة يعقوب واستبداده بالأمور، بل وخياناته للمهدى مما جعل المهدى ينكبه وبعزله عن الوزارة.

فَأَمْسَى كَمَنْ قُدْ غَيْثَةُ الْمَقَابِرُ  
 مِنَ الْغِشْ مَا كَانَتْ تُجْنُ الضَّمَائِرُ  
 فَجَابَ الدُّجَى مِنْ ظُلْمَةِ اللَّيلِ سَابِرٌ؟  
 تَعَاطَيْتَ لَا أَفْلَحْتَ مِمَّا تُحَازِرُ<sup>(١)</sup>

خِيَانَتِهِ الْمَهْدِيُّ أَوْدَتْ بِذِكْرِهِ  
 بَدَامِنْكَ لِلْمَهْدِيِّ كَالصُّبْحِ سَاطِعًا  
 وَهَلْ لِيَاضِرُ الصُّبْحِ إِنْ لَاحَ ضَوْءُهُ  
 أَمْنَزَلَةُ فَوْقَ الْتِي كُنْتَ تِلْهَا

لقد جاء شعره في كل أغراضه الشعرية تقريباً هادفاً إلى المال وعانياً إليه بكل سبيل، أو جاء هذا الشعر على الأقل عاملاً مساعداً يعينه في الوصول إليه. فلم يكن الوصف أو الغزل أو الهجاء أو غيرها من الموضوعات الشعرية التي طرقها مقصودة لذاتها؛ ولكنها كانت جميئاً أغراض مساعدة جاءت لدور في السياق العام الذي هدفت إليه قصائده بما يخدم نفس الاتجاه الذي يتلامس مع شخصيته وعاطفته من بعدها، هذه الشخصية وتلك العاطفة اللتان دارتتا في فلك واحد ولم تتخطياه وهو العمل بكل سبيل من أجل المال واقتناصه.

ولا يخفى أن هذا الهدف يتناسب كذلك مع السياق الذي اختطه مروان لنفسه، ولهذا لن ترى هذه الأغراض الفرعية / الأغراض التي تمثل أجزاءً من قصائد فحسب أو تلك التي تمثل مقطوعات شعرية مستقلة / قد تجاوزت هذه الأهداف المحددة التي اختطها لنفسه وعمل من أجلها. ولتأمل على ذلك شاهداً آخر انطلق فيه مروان من هذه القاعدة حيث إنه وظف الهجاء لخدمة هذا الهدف وحده، ولم يكتف بذلك ولكنه هجا خصمه سلماً الخاسر بقلة العطايا والجوائز التي حصل عليها. فمروان يهجو بداعف المال ويصدر

عما يبتصل به في أشعاره، بقول معيراً سلماً بقلة جائزته:  
 أَسَلَمْ بْنَ عَفْرَوْ قَدْ تَعَاطَيْتَ خُطْتَهُ  
 تُقْصِرُ عَنْهَا بَعْدَ طُولِ عَنَائِكَ  
 مَدَى مِائَةٍ أَوْ غَایَةَ قَوْقَ ذِلَّكَ  
 سَنَائِكُهُ أَوْهِينَ مِنْكَ سَنَائِكَ  
 فَلَمْ يَيْقَ إِلَّا أَنْ تَمُوتَ بِدَائِكَ  
 فَقَالَ لَكَ الْمَهْدِيُّ لَسْتَ هُنَالِكَ  
 عَلَى يُوسُفِ يَعْقُوبُ مِثْلَ بُكَائِكَ  
 رَزَّيْتَ الَّذِي أُعْطِيْتَ مِنْ صَلْبِ مَالِكَ  
 وَإِنِّي لِسَبَاقٌ إِذْ الْخَيْلُ كَلَّمَتْ  
 فَدَعْ سَابِقًا إِنْ عَوَدْتَكَ عَجَاجَةً  
 رَأَيْتَ امْرَا نَالَ اللَّهَا فَحَسَنَتْهُ  
 طَلَبْتَ مِنَ الْمَهْدِيِّ شَطَرَ حِبَابِهِ  
 فَمَا أَعْوَلْتُ أَمْ عَلَى ابْنِ وَلَا بَكَسِ  
 عَضَضْتَ عَلَى كَفِيْكَ حَتَّى كَانَما

(١) مروان بن أبي حفصه: " مصدر سابق": ص ٤٦.

حَيْثُتْ بِأُوقَارِ الْبِغَالِ وَإِنَّمَا  
وَمَا نَلَّتْ حَتَّى شِبْتَ إِلَّا عَطِيَّةً  
وَمَا عَبْتَ مِنْ قَسْمٍ الْمَلُوكِ لِشَاعِرٍ  
فَأَقْسِمُ لَوْلًا ابْنُ الرَّيْبَعِ وَرِفْدَهُ

سَرَابُ الضُّحَى مَا تَدْعِي مِنْ حِيَائِكَا  
تَقْوُمُ بِهَا مَصْرُورَةً فِي رَدَائِكَا  
بِهِ خُصًّا عَفَوْا مِنْ أَوَّلِي وَأُولَئِكََا  
لَمَا ابْتَلَتِ الدَّلْوُ الَّتِي فِي رِشَائِكَا<sup>(١)</sup>

وقد أوردت في هذا المقام هذه القصيدة الهجائية بكامل أبياتها لأنها تستحق التأمل والإفراد، خاصة وأنها لون طريف ومبتكر من الهجاء. لم يلتزم فيها مروان بالطرائق المعروفة من الهجاء ولكنه قدم طريقة جديدة من الهجاء تعتمد على هجاء خصميه بقلة العطايا والجوائز التي حصلها، فمروان لم يهجه بسوء سلوك أو خلق أو صفات مما جرت العادة عليه، ولكنه تجاوز هذه التقاليد الهجائية ليقدم ضرباً مبتكرًا من الهجاء لا يخلو من الجدة والطرافة معاً.

ولكن ييدو أن هذا اللون من الهجاء هو كل ما يملكه مروان من بضاعة في الهجاء، فهو في قيامه وعوده / في سره وعلنه ليس له هم يؤرقه إلا المال، ومن الطبيعي أن يحمل هذا الهجاء إسقاطاً ضمنياً يتمثل في أنه عبر عمما يؤلمه قبل أن يعبر عمما يؤلم سلماً الخاسر؛ وكأنه لم يجد شيئاً أوجع على سلم من الهجاء بهذه الشاكلة، فمروان يقيس على نفسه ويتمثل ما يوجهها أولاً قبل أن يتوجه بالهجاء إلى سلم الخاسر؛ ولو كان سلم على شاكلة مروان لكان هذا اللون من الهجاء أوقع أثراً وأشد إيلاماً من غيره. فهو هجاء يخلو من الفحش والسباب ويتميز بالنظافة والطرافة في آن ويعبر عن التطور الذي أصاب هذا الغرض بفعل الرقي الحضاري في العصر العباسي؛ فلم يعد هذا اللون القائم على التباري في الفحش وذكر العيوب الجسمية والخلقية مناسباً لهذا العصر الذي أصبح فيه الهجاء ناضجاً يعتمد على اختراع ألوان جديدة ومعان مبتكرة من الهجاء، بالإضافة إلى الاعتماد على الوخذ والتعریض والجیل الساخرة التي تبدد ثقل الهجاء الموروث وبداوته عوضاً عن الذكر والتصريح.

وعلى كل يكشف هذا اللون المبتكر من الهجاء القناع عن مروان وعن حقيقة شخصيته إذا كان هذا القناع ما زال موجوداً!! . وعلى ذلك نستطيع القول عن شخصية

(١)المصدر السابق: ص٧٢،٧٣

مروان: إنها شخصية مفتونة بالمال ولديها القدرة على تقمص الأدوار التي تروي عن طريقها شهوتها العارمة نحو المال، وهذه الشخصية مائلة في كل أغراضه الشعرية، فهي تواجه في المديح والرثاء والفرح والهجاء... وغيرها من أغراضه الشعرية، وهي الأساس الثابت الذي يميز كل أشعاره، هذه الأشعار التي تمتلئ تتصل بهذه الرغبة عنده. فشخصية مروان تساوي المال لا أكثر ولا أقل، وعاطفته هي المال كذلك لا أكثر ولا أقل، إذ إنه قلماً تظهر هذه العاطفة بمنأى عن شهوة المال الصارخة عنده، وإن ظهرت بمقدار ما يوصله إلى المال أيضاً.

وعلى هذا يعد البحث عن الصدق والكذب أو الحب والنفاق عملاً مستهلكاً لا قيمة له مع واحد بشاكلة مروان، وذلك لأن هذا البحث سيجعل صاحبه يقدم أحکاماً ونتائج بعيدة عن سماه وحقيقته، فحقيقة الثابتة والمستقرة هي شهوة وهي العاطفة التي تتحقق هذه الشهوة وهي في الأخير الأغراض الشعرية التي تتلون بالعاطفة لترضي هذه الشهوة.

تلك هي شخصية مروان التي يتراهى للدرس أنها أقرب إلى حقيقته، والتي يمكن أن تستخرج من عاطفته وشعره، وذاك هي العلاقة التي تقوم على التكامل والتلاقي بين مروان الشخصية والعاطفة والشعر، فالعلاقة بلغة أصحاب "العلوم الطبيعية" طردية / متنامية وقوية بين هذه الأضلاع الثلاثة، فلا يكاد يذكر جانب إلا ويستدعي الأمر ذكر الجانبيين الآخرين وهو ما يشير بوضوح إلى الترابط الوثيق بين هذه الأضلاع مجتمعة، تلك الأضلاع التي تقوم العلاقة بينها على تلاقي الأدوار التي لولاها ما تمكّن الدرس أن يصل إلى نتيجة ذات قيمة عن حقيقة الشخصية المروانية.

\* \* \*

(٩)

### الخاتمة

لأقول هذا نهج جديد من البحث - كما قال العقاد عندما تصدى لاستخراج شخصية ابن الرومي من شعره - ولكنني أقول: هذا نهج مركب ومتدخل من الدرس، لأن محاولة استخراج الشخصية من مجمل الشعر تعد أمراً معقداً وصعباً بكل المقاييس؛ وذلك لأنها تحتاج إلى مزيد من الصبر والأناء من جانب، ولأنها تلزم الدارس ضرورة الرجوع إلى كل شاردة وواردة عن الشاعر وشعره والقضايا المرتبطة بهما وهو الأهم هنا من الجانب الثاني.

ولو كانت هذه المحاولة لاستخراج الشخصية وصورتها منصرفة إلى غرض بعينه لما وجَدَ هذا التعقيد من الأساس، لأن محاولة استخراج الشخصية من كامل النتاج الشعري تستدعي ضرورة البحث وإبداء الرأي في كل القضايا العالقة وشببه العلاقة المرتبطة بشخصية الشاعر وشعره، وهو ما يعد بحق عملاً مرهقاً ومعقداً، وأنه لا يخلو من المخاطر والتبعات فبعض الآراء يترب على بعض. وعلى هذا فأسهل على الدارس وأيسر أن يستخرج رأياً ما أو يكون رأياً واحداً في قضية بعينها من أن يكون مجموعة من الآراء في مجموعة من القضايا عند شاعر واحد في وقت واحد أيضاً، لأن هذا الإقدام سيلزمه ضرورة تحقيق التوازن والانسجام في كل الآراء التي يصدرها، بحيث يؤدي بعضها إلى بعض من جانب ويتكمel بعضها مع بعض من الجانب الثاني. هذه هي طبيعة الدرس الأدبي المنهجي أو هذه هي الإشكالية الحقيقة عندما يخوض الدارس في غمار الشخصية ويحاول استكشافها، أو بالأحرى عندما يحاول رسم صورة محددة ومنهجية لها.

ومع أنني لا أسعى في هذه الخاتمة كذلك إلى تقديم نتائج تقليدية، خاصة وأن أهم نتيجة تتطوّر عليها هذه الدراسة قد أصبحت محسومة وواضحة، وأعني بها واقع شخصية مروان وصورته التي يمكن أن تستخرج من العلاقة بين العاطفة والشعر، إلا إنني لا يمكن أن أتجاوز بعض النتائج المبتكرة التي تستحق الإفراد والتي تم خضت عنها هذه الدراسة.

وأول هذه النتائج المبتكرة الجديدة التي ترأت لي تكمن في تداخل عاطفة مروان

بن أبي حفصة وتمازجها مع المال بحيث أصبحت العاطفة والمال روحًا واحدة، فلأنكاد نعرف أيهما المحرك للأخر، فهل المال هو المحرك للعاطفة؟ أم أن العاطفة هي المحركة والدافعة إلى المال؟؟. ولقد كانت الشخصية المروانية مزيجاً مختلطًا ومتداخلًا من العاطفة وحب المال على حد سواء، وبالأخر كانت الشخصية المروانية رصدًا دقيقاً لشهوة حبِّ المال التي فرطت نفسها على مروان وناتجه الشعري جميماً، على ذلك نخلص إلى أن العاطفة هي المال والمال هو العاطفة عنده. ولقد تماهت شخصيته في المال وتماهى المال في شخصيته ولقد كان المال روحه التي لا تفارقها، فالمال زاده والمال غذاؤه والمال هواؤه الذي يتفسنه وباختصار المال هو فطرته التي جبل عليها ومن الطبيعي في هذه الحال أن يمثل كل شيء بالنسبة له، فهو يعيش من أجل المال وقد أراد إن استطاع / أن يعيش المال من أجله.

ومهما يكن فإن من أراد فهم حقيقة الشخصية المروانية فلا بد له من أن يضع في الحسبان هذه العلاقة المتداخلة بين الشخصية من جانب / والعاطفة والمال من الجانب الثاني؛ ذاك التداخل الذي جاء النتاج الشعري لكي يشهد عليه. وكيف لا يشهد هذا النتاج على هذه التوأمية التي تشكل الأساس الأول في فهم مروان، الذي يخفق قلبه ويرجف للمال وإن كان لا يخفق ولا يرجف لشيء آخر غير المال. ويعلل هذا الخفقان القوي والارتجاف الظاهر السبب والداعي في انقياده وصدره في شعره لما يمليه عليه المال. ولا يخفى في هذا السياق أن الشعر صدى للعاطفة ومن المفترض أن تكون الشخصية صدى من العاطفة والشعر جميماً، ولقد خالفت الأشياء طبائعها وحقائقها وانقلبت رأساً على عقب عند مروان بحيث شكلت شهوة حبِّ المال وجمعه / الشخصية والشعر والسلوك جميماً، ولا أغالي عندما أقول: إن شهوة المال هي مروان كسلوك وشعر وفعل ورد فعل... بل هي مروان في كل صغيرة وكبيرة.

أما النتيجة الثانية التي أرى إثباتها فتمثل في أن الظروف المحيطة بمروان قد عمقت في نفسه هذا الشعور من الولع والارتباط بالمال، وهي نتيجة تفرضها المنهجية العلمية، لاسيما وأن مروان قد عاش في مرحلة التحول والانتقال من الأممية إلى العباسية، ولا يخفى أن هذه التقلبات والتغيرات السريعة والمترابطة قد عملت آثارها في نفسه، وهو من عاين فتك العباسيين بكل ما هو أموي؛ وعاصر هذه الفترة التي ارتفع فيها أقوام

وانخفض فيها آخر، فقد أصاب التحول كل شيء من حوله، ولا يخفى أن هذا كله قد عمق في نفسه الشعور بالخوف وعدم الأمان، وهذا الطريق دفعه إلى الإكثار من المال وحبه، فالمال في نظره هو عدة الماء في هذه التحولات وقد يدفع عنه ما قد يصيبه من أذى في أي وقت من الأوقات، وهو سفينته التي تقويه إلى شاطئ النجاة، وهكذا كانت هذه الظروف التي لازمت فترة التحول من الأمية إلى العبرة بمثابة الوقود الذي دفع مروان دفعاً إلى التعلق بالمال، وكانت هذه الفترة هي الوقود الذي زاد الاشتعال في عاطفته تجاه المال، بل قوى في نفسه الشعور بالمال بحيث غدت شخصيته بمثابة الوجه الآخر للمال، فشخصية مروان هي المال والمال هو الشخصية بكل أبعادها ودوافعها ونوازعها.

وأما النتيجة الثالثة التي تفرض نفسها في هذا السياق فتتمثل في أن مروان لم يحلق في دوائر مغلقة ضيقة من الموروث الشعري التقليدي كما ذهب إلى هذا أكثرية دارسيه ولكنه خاض ضرورياً متعددة متنوعة من التجديد في شعره، ويكتفي أن كل دارسيه بالإجماع يتتفقون على تجديده في المدح السياسي للعباسيين وانتصاره لحقهم في الخلافة من جانب وقدرته على التصدي لحج العلوين ونجاحه في قلب الموازين ليصبح في صالح العباسيين بعد أن استمرت رذحاً في جانب العلوين من الجانب الآخر، ويكتفي كذلك أن سبقه وريادته لشعراء عصره في هذا الاتجاه الذي لا يساويه فيه شاعر آخر وقلما نعثر له فيه على ندٌ أو نظير حقيقي، وفوق هذا فقد قلده الشعراء وساروا في طريقه الذي عبده لهم.

ولقد كان لمروان ضروب متنوعة من التجديد غير هذا اللون الذائع والمشهور من تجديده في المدح السياسي، ومن ضروب التجديد التي طرقها أيضاً أسبقيته في التعبير عن شعر الحرب الذي اشتهر وذاع في القرن الثالث والرابع، ذاك الجانب التجديدي الذي لم يجد من يحفل به أو يعره الاهتمام عنده مع أن أشعاره في هذا الباب تمثل الإرهاصات الأولى التي عمقت ومهدت لهذا الفن بعد ذلك، والسبب في ذلك يكمن بدون شك في هيمنة الأحكام التقليدية على مروان وشعره.

ومن ضروب التجديد التي عالجها وسبق إليها تجديده في موضوع القصيدة الهجائية وابتكاره لطريق مستحدثة من هذا الفن، خاصة بعده عن السباب والفحش في الهجاء

والتزامه بألوان راقية من الهجاء، وبالإضافة إلى هذا نرصد في شعره ضرباً من الشعر الساخر الذي يتناول العيوب الجسمية ويصورها تصويراً ساخراً، ولقد سبق مروان بهذا الصنيع ابن الرومي رائد هذا الاتجاه في الشعر العربي، فكيف نقيم قوله؟:

لَقَدْ كَانَتْ مَجَالِسُنَا فِسَاحَةً فَضَيَّقَهَا بِلِحْيَتِهِ رَبَاحُ  
مُبْعَثَرَةً الأَسَافِلِ وَالْأَعْالَى لَهَا فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ جَنَاحٌ<sup>(١)</sup>

ومع أن بعض جوانب التجديد التي طرقها مروان لم تأخذ شكل الظاهرة في شعره إلا أنها تحمل قيمة مهمة تمثل في سبقه إلى ضروب التجديد التي تطورت واستقرت فيما بعد وهو ما يبين أن مروان لم يكن أميناً تقليدياً في شعره بقدر ما كان الرجل مهتماً بالتجديد وألوانه المختلفة مما تفرضه الحياة الحضارية العباسية الجديدة وعلى ذلك فإذا كان مروان تقليدياً في طرائق حياته المختلفة فإنه لم يكن كذلك في فنه الشعري على الإطلاق، لأن الرجل سبق عصره وتفوق على نظرائه في كثير من الضروب التي سلكها، وعلى هذا لا يصح بأي حال من الأحوال أن نطالب مروان بأن يقدم الظاهرة الشعرية المتكاملة في شعره حتى نشهد له بفطنه وسبقه ويكفي أنه قدم الإرهاصات، وكان له فضل السبق.

ولا يخفى أن الموضوعات الشعرية المستحدثة تبدأ بسيطة عفوية وتتأتي على استحياء أول أمرها ثم سرعان ما تثبت أن تتطور وتعمق بعد فترة من الزمن لتشكل ظاهرة تامة في حدودها وأركانها، ومن هنا يكفي مروان أنه طرق هذه الموضوعات وبه إليها بما ينبي عن مملكة خاصة قادرة على استشراف المستقبل، ويمكن لنا أن نتساءل: كم من موضوع مستحدث بدأ بأبيات قليلة ثم تطور ونضج بعد ذلك؟؟ ويكفي أن نشير إلى هذا اللون من الهجاء الذي بدأ سهلاً بسيطاً عند مروان وغيره ثم وصل إلى قمة تعقيده عند ابن الرومي والمتتبى وغيرهما، ويكفي أن نشير كذلك إلى شعر الحرب، ويمكن أن نشير في الأخير إلى الموضوعات الفكاهية التي بدأت بالمقطوعات الشعرية التي لا تتجاوز بضعة أبيات ثم تحولت إلى قصائد طويلة "كديك دعبدل" و"حمار طياب" و"بلغة أبي دلامة" و"طيلسان ابن حرب" و"شاة سعيد"، فكلها بدأت بسيطة ثم راقت

(١) ابن قتيبة: "الشعر والشعراء"، تحقيق د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية: بيروت، ط٢٠٠٣م.

للسُّعَرَاءِ فَنَظَمُوا عَلَى نَهْجَهَا الْقَصَادَ الطَّوِيلَةَ؟

ويبقى القول: إن هذه الدراسة عمل أدبي يجري عليها ما يجري على الأعمال الأدبية؛ ولهذا لا يمكن لها أن تقدم الكلمة الأخيرة أو النهاية عن شخصية مروان بن أبي حفصة، كما أنه يجري عليها ما يجري على أعمال البشر من النقصان فالكمال الحالص لله رب العالمين؛ ومع ذلك فقد تمحضت عن العديد من النتائج التي أحسبها جديدة في بابها فيما يتعلق بشخصية مروان ويكتفي أنها آراءً جديدة لم تطرح من قبل ولم تتطرق إليها الأقلام؛ ويمكن القول: إنها قدمت مروان جديداً وقدمت صورة جديدة غير معهودة عن الرجل؛ ويكتفي في الأخير أن هذه الدراسة قد سبحت في مياه جديدة غير راكدة أو فاسدة، وقد اختارت أن تصارع الأمواج العاتية // بما يتطلب الجرأة في إبداء الرأي والقدرة على المناقشة والحرية في الاتفاق أو الاختلاف // بدلاً من أن تعتمد على السهولة وترضى بالقشور التي تفرض على أصحابها التكرار والنمطية والإعادة بالإضافة إلى أنها تحبسه على الثابت المتواتر أو التقليدي المعهود. هذه هي الدراسة بين يدي القاريء، أتمنى من الله أن تضيف الجديد المفيد إلى هذا الموضوع، جعلها الله خالصة لوجهه الكريم فهو العالم سبحانه أني قد بذلت فيها من المعاناة والجهد الكبير، أحمده سبحانه على توفيقه وأشكره على تسديده.

\* \* \*

## **قائمة المصادر والمراجع:**

**أولاً المصادر القديمة(\*):**

- أبو الفرج الأصفهاني: "الأغاني"، دار الكتب المصرية: القاهرة، د.ت.
- البيهقي: "المحاسن والمساوی"، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة نهضة مصر: القاهرة، ١٩٦١م.
- الجاحظ: "البخلاء"، تحقيق د. طه الحاجري، دار المعارف: القاهرة، ١٩٦٣م.
- ابن خلkan: "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر: بيروت، ١٩٧٧م.
- الدارمي: "سنن الدارمي"، تحقيق فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الريان للتراث: القاهرة، ١٩٨٧م.
- الطبراني: "المعجم الكبير"، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مطبعة الزهراء: الموصل، ط٢، ١٩٨٤م.
- ابن عبد البر: "جامع بيان العلم وفضله"، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي: المملكة العربية السعودية، ط٤، ١٤١٩هـ.
- ابن عبد ربه: "العقد الفريد"، تحقيق أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، ط مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر: القاهرة، ط٣، ١٩٦٥م.
- ابن قتيبة: "الشعر والشعراء"، تحقيق د. مفید محمد قمیحة، دار الكتب العلمية: بيروت، ط٢، ٢٠٠٣م.
- "عيون الأخبار"، تحقيق د. مفید محمد قمیحة، دار الكتب العلمية: بيروت، ط٣، ٢٠٠٣م.
- المرزباني: "الموشح، مأخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر"، تحقيق على محمد البجاوي، دار الفكر العربي: القاهرة، د.ت.
- مروان بن أبي حفصة: "شعره"، تحقيق د. حسين عطوان، دار المعارف: القاهرة، ط٢، ١٩٨٢م.
- ابن المعتز: "طبقات الشعراء"، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف: القاهرة، ١٩٥٦م.
- اليافعي: "مرآة الجنان وعبرة اليقطان في معرفة حوادث الزمان"، تحقيق عبد الله الجبورى، مؤسسة الرسالة: بيروت، ١٩٨٤م.

(\*) لم يضع في الحسبان عند الترتيب "ابن" و"آل".

ثانياً المراجع الحديثة<sup>(\*)</sup>:

- إبراهيم عبد القادر المازني: "الشعر غایاته ووسائله"، جمع وتصحيح د. مدحت الجبار، دار الصحة: القاهرة، ط. ٢، ١٩٨٦م.
- د.أحمد أحمد بدوي: "أسس النقد الأدبي عند العرب"، دار نهضة مصر: القاهرة، ١٩٧٩م.
- د. أحمد كمال زكي: "النقد الأدبي الحديث، أصوله واتجاهاته"، دار النهضة العربية: القاهرة، ط. ٢، ١٩٨١م.
- إسماعيل بن حمد السمايعيل: "شاعر اليمامة مروان بن أبي حفصة"، مكتبة الملك فهد الوطنية: الرياض، ١٤١٤هـ.
- د. حمد بن ناصر الدخيل: "دراسات ومقالات في الأدب العربي"، ط النادي الأدبي بالمنطقة الشرقية: الدمام، ١٤٢٠هـ.
- د.شوقي ضيف: "العصر العباسي الأول"، دار المعارف: القاهرة، ط. ٥، ١٩٧٥م.
- د. طه حسين: "حديث الأربعاء"، دار المعارف: القاهرة، ط. ١٠، د.ت.
- د.عبد الحميد حسين: "الأصول الفنية للأدب"، مكتبة الأنجلو المصرية: القاهرة، ط. ٢، ١٩٦٤م.
- د.عبد الله أحمد باقازي: "الشعر والموقف الانفعالي"، دار الفيصل الثقافية: الرياض، ١٩٩١م.
- د. محمد زكي العشماوي: "قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث"، دار النهضة العربية: بيروت، ١٩٧٩م.
- د.محمد عارف حسين: "مروان بن أبي حفصة شاعريته وشعره"، مطبعة الأمانة: القاهرة، ١٩٨٣م.
- د.مصطففي الشكعة: "الشعر والشعراء في العصر العباسي"، دار العلم للملائين: بيروت، ط. ٩، ١٩٩٧م.
- د.نجيب محمد البهيتى: "تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري"، مطبعة الخانجي: القاهرة، ط. ٣، ١٩٦٧م.
- د.يوسف حسين بكار: "بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث"، دار الأندرس: بيروت، ط. ٢، ١٩٨٢م.

(\*) لقد قمت بترتيب الأسماء كما هي على طبيعتها، ولم التزم باسم الشهرة أو العائلة كما هو الحال مع المصادر القديمة.





# JOURNAL OF ARABIC STUDIES

KINGDOM OF SAUDI ARABIA

VOLUME 17 2010

- **Fundamentalist (Usuliyyoun) Standards in the Models of the Objections of Al-Shatby to Ibn-Malik**  
Dr. Salwa Muhammad 'Omar Arab
- **Features of Rhetoric in the Prophetic Hadiths**  
Dr. Abdul Mohsin bin Abdul Aziz Al-'Askar
- **The Eloquence of the Declarative Statement in Surat Yusef (Peace be Upon Him)**  
Dr. Abdullah bin Ahmed bin Muhammad Al-'Amri
- **Marwan bin Abi Hafsa's Personality between Passion and Poetry**  
Dr. Isma'il Mahmoud Muhammad